رهينة

بقبضة الخميني

رهينة بقبضة الخميني

الناشر: دار "نيو بنجامين فرانلكين هاوس ببليشينغ كومباني إنك" للنشر

الطبعة الأولى – الإصدار الثاني

لمزيد من المعلومات، يرجى الاتصال بالناشر: دار "نيو بنجامين فرانلكين هاوس ببليشينغ كومباني إنك" للنشر؛ ٣٠٤ ويست، الشارع ٥٨، نيويورك ١٠٠١٩

تصنيف النشر لدى مكتبة الكونغرس

رهينة بقبضة الخميني

إيران – السياسة والحكومة – ١٩٤١ – ١٩٧٩

إيران – السياسة والحكومة – ١٩٧٩

الخميني، روح الله.   ١ – اللقب

٢٤٢٨٨ _ ٨٠   ٩٥٥,. ٠٥٤   DS ٣١٨. D ٧٣

٤ - ١١ - ٩٣٣٤٨٨ _ ٠   IBSN

التصميم: غيل كاي

تصميم الغلاف: آلان يو

صورة الغلاف الأمامي: سيغما / ألين ديجين

صورة الغلاف الخلفي: جيمس مورهيد / بلاكستون

طبع في الولايات المتحدة الأمريكية

رهينة بقبضة الخميني

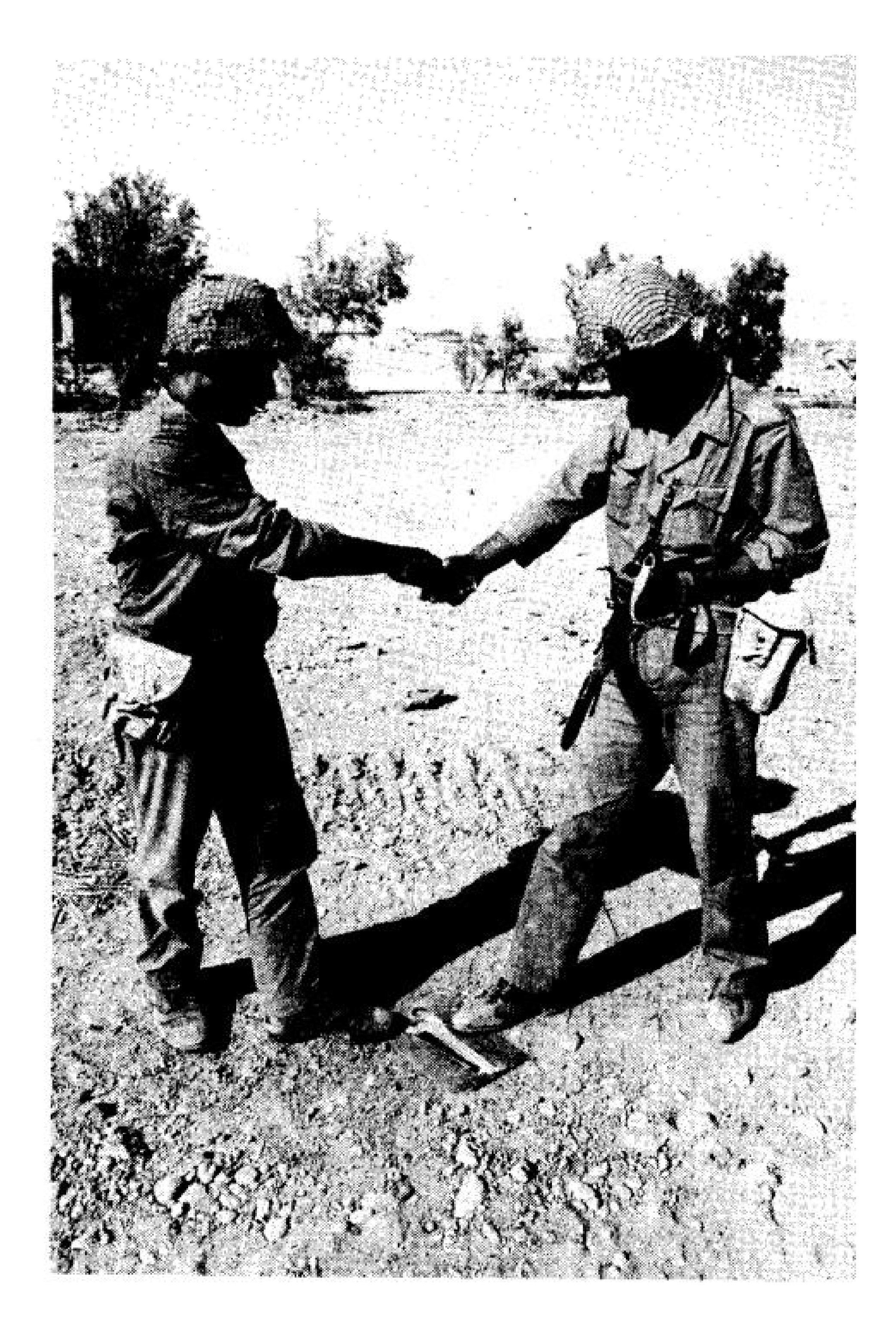
بقلم المؤلف روبرت دريفس

بالاشتراك مع ثيري لومارك

دار "نيو بنجامين فرانلكين هاوس" للنشر

شركة نشر

نيويورك



جنود عراقيون في إيران — ١٩٨٠

إلى الشعب الأمريكي: كيف تقرأ هذا الكتاب

أُريدَ لكتاب "*Hostage to Khomeini*" أو "رهينة بقبضة الخميني" لدى إعداده في صيف عام ١٩٨٠ أن يكون إدانة صريحة للدور الذي لعبه الرئيس كارتر مساهمًا في سقوط الشاه واستيلاء الخميني على مقاليد السلطة ... وبذلك كان الكتاب — ولا يزال — قصّة تستبد بالشعب الأمريكي الضرورة لمعرفتها.

واليوم، أي في العام ١٩٨١، يجب على حكومة رونالد ريغان الوافدة إلى السلطة الاستفادة من هذا الكتاب أيّما استفادة، علمًا بأن الشعب الأمريكي يتحمل المسؤولية السياسية — بمجرد علمه ببواطن الأمور— إزاء تضافر جهود أبنائه لمنع الإدارة الأمريكية المقبلة من تكرار أخطاء الإدارة السابقة عليها. وثمة فرصة قائمة لزوال نظام الخميني عن بكرة أبيه خلال عام ١٩٨١ واستبداله بحكومة رشيدة.

بيد أن هذا الزوال مرهون بإرادة مجموع المواطنين الأمريكيين، ومن هنا عليك عزيزي المواطن بشراء نسختين من هذا الكتاب: واحدة لتقتنيها والأخرى لترسلها إلى نائبك في الكونجرس. كذلك عليك أن تطلب من بائع الكتب المحلي الاحتفاظ بنسخ من الكتاب كمخزون للبيع، ومن الصحيفة المحلية إخضاع الكتاب للمراجعة والتحليل.

لنعرّف المسؤولين في واشنطن أن الشعب الأمريكي لن يتهاون مع حكومته إن هي تعاملت مع نظام الخميني بأي اعتبار مخالف للواقع الذي ينطق بأنه دكتاتورية خارجة على كل قانون.

١ يناير ١٩٨١

المحتويات

تصدير المؤلف

وجّهني إلى كتابة هذا الكتاب ليندون إتش لاروش – محرر ومؤسس مؤسسة "*Executive Intelligence Review*"، ومرشح الحزب الديمقراطي لكرسي الرئاسة – باعتباره إضافة لا غنى عنها لمسار التثقيف السياسي للشعب الأمريكي قاطبة.

ربما حقق لاروش نجاحًا لا يشق له غبار في استجلاء وترسيخ حقيقة بسيطة مفادها أن آية الله الخميني إنما يمثل شرًا مستطيرًا في أصله وأخلاقه؛ إذ ساعة كان المبعوث الأمريكي إلى الأمم المتحدة ينعت الخميني بـ"القديس" ويصف الرئيس كارتر نفسه عصابة سفاحي الخميني بأنهم "أصدقاؤنا"، أقدم لاروش على نزع سمت الأخلاق عن الخميني ووصمه بالعجوز المنتقم الذي رفع ألويةً مشوّهٍ للإسلام لا صلة لها بصحيح الدين.

لكن أصول الخميني تبدو لغزًا في حد ذاتها، فأنّى لُملا مهووس يتقد حقدًا وتعصّبًا أن يطيح بشاه إيران القوي العتيد؟

إن الصحف وغيرها من وسائل الإعلام لم تهتم مطلقًا بأصول الخميني، فبدا للكثيرين أنه جاء من اللامكان! وقد ساعدت هذه الحالة من التعمية حتى بين أرفع المسؤولين في النظام البائد ممن أبعدوا إلى المنفى دون فهم صريح لكيفية إطاحة الثورة الإيرانية بعرش الطاووس. بل إن الأقاويل تتطاير بأن شاه إيران المقبور نفسه لم يدرك عظم ما أصابه – حتى قرأ إصدار مؤسسة "*Executive Intelligence Review*".

والحق أنه لا ألغاز في الطريقة التي اعتمدتها المؤسسة في استجلاء "السر" الكامن وراء الخميني إنما كان المدخل إلى حل اللغز الظاهر في ثورة الخميني هو تعريف لاروش للحرب العالمية بين ممثلي ما يعرف بفصيل "عصور الظلام الحديثة" من جانب، والقوى الساعية إلى إطلاق عصر جديد من النمو والتصنيع بلا حدود في ربوع العالم من جانب آخر. ومن فضلة القول أن وجود عصور الظلام بمعناها المذكور لم يعد سرًا حسب ما يفيد به لاروش: فلقرون عديدة بشّر حكم الأقلية البريطانية بنهجه المعارض للتقدم والإذكاء المتعمّد لروح التخلف والتمذهب الديني. وليس أدل على ذلك من أن الاقتصاديين وعلماء الاجتماع البريطانيين – الذين حذوا حذو بارسون مالثوس في إطلاق اسم "العلم الكئيب" على علوم الاقتصاد – قد جادلوا في أدبيات يعود تاريخها حتى القرن السابع عشر قائلين إن العلوم والتقنية ما هي إلا شر محض؛ ذلك بأنهم رأوا النموذج "المستقر" الوحيد للنظام الاجتماعي ماثلاً في النموذج الصيني المنضوي على جموع غفيرة من الفلاحين البدائيين الرازحين تحت وطأة أنظمة زراعية شبه إقطاعية.

بيد أن البريطانيين أنفسهم –ومن والاهم– يرون في الصين النموذج الأمثل للدول النامية في العالم الثالث، كما أن البريطانيين أنفسهم هم من رعوا هجوم آية الله الخميني على معطيات القرن العشرين في إيران.

إن فهم هذه الفكرة البسيطة يفضي إلى استجلاء يسير لوابل التفاصيل الشارحة لكيفية قيام الثورة الإيرانية شرحًا دقيقًا. وعلى ذلك، فإن الخميني لم يقم بثورة، بل جيء به إلى سدة الحكم من خارج الدولة باعتباره رجل الواجهة والمرحلة لتحول إيران صور عصور الظلام الحديثة. وعلى شاكلة "ساحر أوز" في الرواية الأسطورية، ما الخميني إلا ساحر مفخّم معمّم أفلح في إغواء جموع لا تحصى من فلاحي إيران التعساء وشبابها البائس— غير أنه نُصّب كنبراس لهؤلاء التعساء وفق عملية شديدة الدقة قامت بها المخابرات الحربية البريطانية.

هذا الكتاب يقص عليكم قصة تلك العملية، كما يروي الدور العلقمي الذي بذلته إدارة كارتر في التواطؤ مع البريطانيين لتنصيب الخميني حاكمًا. ومن ثمّ، يُراد من الكتاب أن يكون دليل إدانة لطابور خامس على أعلى مستوى داخل الولايات المتحدة، وهو طابور قدم العون والتأييد لآيات الله المستذئبين وكيانهم السري: الإخوان المسلمون — وهو عون لم ينقطع حتى بعد الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران!

ولن يُؤتي هذا الكتاب أُكُله إلا بسجن جيمي كارتر وبريجينيسكي وكيسنجر ورامزي كلارك وسايروس فانس.

ولن تأمن دول المسلمين على نفسها من داء الخميني إلا بعد تعقّب تنظيم الإخوان المسلمين وتقويضه تقويضًا تامًا في أنحاء العالم، بدءاً من خلاياه الإرهابية المستترة في الشرق الأوسط، مرورًا بمقارها في المنفى في لندن وجنيف ومالطا، ووصولاً إلى مسانديها في جامعات مرموقة مثل جورجتاون في العاصمة واشنطن دي سي.

وختامًا، أود تقديم خالص شكري وامتناني للتعاون المثمر الذي وجدته من أصدقائي وزملائي في مؤسسة "*Executive Intelligence Review*". وبصفتي مدير الشؤون الاستخبارية للشرق الأوسط لدى المؤسسة، فقد فزت بفرصة الاستمتاع بمساعدة المحللين الخبراء مارك بردمان، وجوديث واير، ونانسي كوكر. علاوة على ذلك، أحب أن أعلن عن خالص تقديري وشكري للمساعدة الجمّة التي وجدتها من زميلي المؤلف تيري لو مارك، رئيس مكتب الشرق الأوسط لدى فرع المؤسسة في أوروبا. وايت، المديرين للشؤون الاستخبارية السياسية لدى المؤسسة، وكذلك لمحرري لدى دار فرانكلين هاوس — السيدة ليندا دو هويوس، لما قدموه لي من عون وبصيرة.

كما أتوجّه بالشكر الخاص والعميق لكرايتون زوكوس وكريستوفر آر.

روبرت كارمن دريفس

٧ نوفمبر ١٩٨٠

مدينة نيويورك

(١)

ثورة بيد "أصدقائنا"

خرجت الجموع الغاضبة الجارفة إلى شوارع طهران مفاخرة بأسلحتها الآلية التي حازتها حديثًا، وشرعت في نهب المباني العامة وتحطيم بقايا نظام الشاه المخلوع؛ فبدأ عصر سلطان الرعب. وفي لمح البصر وسكون الفضاء، أُعدِم كبار ضباط الجيش والمخابرات ممن رفضوا التعاون مع الحكومة الجديدة، وكان ذلك على يد فرق اغتيالات غير رسمية. ولم يختلف حال المدائن والقرى عن حواضر الدولة، إذ قُتل المئات والمئات على يد الحشود المهتاجة. كل ذلك حدث يوم ١٢ من شهر فبراير لسنة ١٩٧٩ بعد سويعات من إعلان آية الله الخميني قيام جمهورية إيران الإسلامية.

أما في واشنطن فقد عقد الرئيس كارتر مؤتمرًا صحفيًا على عجل ليقول للعالم أجمع "إنني أعتقد بأن إيران – حكومةً وشعبًا – سيظلون أصدقاء لنا".

صُدم الكثيرون لرغبة كارتر في مصادقة النظام الدموي الوليد، لكن تصريحات الرئيس لم تلق الاهتمام الواسع في خضم الأزمة العالمية التي أحاطت بالثورة الحاصلة في إيران. وما هي إلا أيام حتى استولت مجموعة من السفاحين على السفارة الأمريكية في طهران ونهبت محتوياتها؛ فبدا تصريح كارتر تعقيبًا محل سخرية في خضم عاصفة الكراهية والتعصّب الجائحة التي أرسلها آية الله ومجلسه الثوري. بيد أن الواقع عرض ترحيب الرئيس الرسمي بدكتاتورية الخميني على أنه مؤشر لحقيقة أكثر عمقًا وخفية؛ ذلك بأن كارتر كان لديه سبب قوي ليعتقد بأن نظام الملالي في إيران سيكون في دائرة "أصدقائنا": أي أن تصريحه وأفعال إدارته كرّست موقع الخميني في السلطة.

لا أعزو الأمر للتقاعس، بل إن إدارة كارتر –بتعمّد مقصود وتفكّر ماكر– ساعدت الحركة التي نظّمت الإطاحة بشاه إيران؛ فتلك الإدارة كان متورّطة في كل خطوة على تلك الطريق –بدءًا من الاستعدادات الدعائية وانتهاءً بتوريد الأسلحة والذخيرة؛ ومن الصفقات المريبة المبرمة وراء الستار مع الخونة في عسكر الشاه وصولاً إلى الإنذار الأخير للزعيم المنهار بترك إيران في شهر يناير من العام ١٩٧٩. وربما كان هذا الفصل من التاريخ الأمريكي طافحًا بالخيانة –بمقدار لا يضاهيه فيه أي حدث آخر– للمُثل والقيم التي قامت عليها الأمة.

إن القصة الحقيقية للثورة الإيرانية ما هي إلا أقصوصة تتصاغر إلى جانبها أفظع قصص الجاسوسية مثل "*The Crash of '٧٩*" لصاحبها بول إردمان. ومن اللازم استقصاء ما خلف الأبواب المغلقة بخصوص أقوى وأهم المصارف وشركات النفط والمؤسسات الصناعية العالمية، وما كان يدور في أروقة الهيئات والمجالس في نوادي النخبة مثل "مجلس نيويورك للعلاقات الخارجية" و"المعهد الملكي للشؤون الخارجية في لندن". إن إيران

هي ميدان المعركة الظاهر لحرب دارت رحاها وراء الأستار وما زالت تتقد في الأوساط المالية العالمية وأصدقاء أربابها في مختلف أجهزة المخابرات التابعة لدول حلف الناتو وإسرائيل والشرق الأوسط.

أما في أروقة الحكومة الأمريكية فثمة مجموعة صغيرة من المديرين المسؤولين عن سقوط الشاه، وعلى رأسهم بريجينسكي من مجلس الأمن القومي، ووزير الخارجية السابق سايروس فانس، ومنسق مجموعة العمل المختصة بالشأن الإيراني لدى مجلس الأمن القومي جورج بال. لكن ثمة أياد أخرى متورطة منها ديفيد نيوسم وهنري بركت من وزارة الخارجية، بالإضافة إلى السفير الأمريكي ويليام إتش سوليفان في طهران؛ وهارولد براون وتشارلز دنكان في وزارة الدفاع (البنتاجون)، والجنرال ألجزاندر هيج والجنرال روبرت هيوزر من قيادة حلف الناتو؛ والأدميرال ستانسفيلد ترونر وروبرت بوري من وكالة المخابرات المركزية.

عمل تحت إمرة تلك الزمرة الإدارية النخبوية مجموعة من المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط وإيران، وكانوا ذوي باع طويل في هذا الصدد. وفي السياق نفسه يمكننا تسمية أشخاص بعينهم منهم ريتشارد كوتام من جامعة بيترسبرغ، ومارفين زوينز من جامعة شيكاغو، وجيمس بيل من جانب تكساس في أوستين، وريتشارد فولك وبرنارد لويس من جامعة برينستون، وتوماس ريكس من جامعة جورجتاون. ويضاف إلى هؤلاء مجموعة منتقاة من عملاء المخابرات البريطانية وممثلي الجماعة السرية المعروفة باسم "الإخوان المسلمون" التي عملت – بين عامي ١٩٧٧ و١٩٧٩ كحلقة وصل بين المنظمين الميدانيين لثورة الخميني من جانب، والبيت الأبيض حيث كارتر من جانب ثان، ومجلس الأمن القومي من جانب ثالث؛ أما منسق العملية برمّتها فكان النائب الأمريكي العام السابق رامزي كلارك.

بينما كان الرئيس كارتر – في العام ١٩٧٨ – يناصر الشاه ويمتدح إيران بوصفها "جزيرة الاستقرار" في الشرق الأوسط المضطرب، كان مساعدوه عاكفين على قذف الحليف الإيراني في أتون الثورة اللافح.

لمّا كان مطلع العام ١٩٧٧، كان عدد من مسؤولي إدارة كارتر على دراية بإقدام الولايات المتحدة على تقديم الدعم خفيةً للقوى المعارضة للشاه، وهي القوى التي كانت ما تزال في طور الالتفاف وقتئذٍ حول آية الله الخميني. قلة هم من علموا بالاستراتيجية الكامنة وراء اتصالات المخابرات الأمريكية المستمرة بمستشاري الخميني؛ إذ كانت المعلومات سرية للغاية وما كانت تُقدم إلا على أساس "المعرفة على قدر الحاجة". وعلى ذلك، أدى العشرات من الموظفين في درجات عادية لدى وزارة الخارجية والبنتاجون والمخابرات المركزية عملهم في إطار من السرية الجزئية أو التامة، وبدا لهم بجلاء أن التحالف المتشكل بين البيت الأبيض والإخوان المسلمين ما هو إلا جزء من الاستراتيجية الجيوسياسية الموجّهة ضد الاتحاد السوفييتي.

قدمت الإدارة توضيحات سطحية لمداراة السذج، ففي عام ١٩٧٩ مثلاً سرت شائعات في الأوساط الاستخبارية في واشنطن مفادها أن الوكالة المركزية علمت بإصابة الشاه بالسرطان وأن أجله قد اقترب رغم

ما يخضع له من علاج. يُستفاد من هذا التوضيح أن موت الشاه سيخلف من ورائه فجوة على مستوى القيادة في إيران لن يتسنى رأبُها وفق عملية سلسلة لخلافته. ونُقل عن الوكالة المركزية أنها تتوقع أن تعم الفوضى عقب موته، وتعتقد أن الاتحاد السوفييتي قد يستغل أزمة إيران عندئذٍ للتدخل فيها. كما قيل إنه يجب على الولايات المتحدة الشروع في اتصالات مع المعارضين للشاه – الذين اتخذوا الدين منطلقًا بالأساس – للإعداد لحكومة بديلة. من الوارد أن يرضي هذا التبرير صغار المسؤولين في الإدارات الحكومية لا سيما الذين لاحظوا – شيئًا فشيئًا – الاتجاه المتنامي لإيجاد صلات أمريكية في الخفاء والعلن مع القوى الراديكالية المناوئة للشاه.

أما الشعب الأمريكي فلم تكترث الحكومة بإطلاعه على أي مبررات.

كان بريجينيسكي – كبير مستشاري الأمن القومي – العقل المدبر في إدارة كارتر لاستخدام "البطاقة الإسلامية" في لعبة التنافس مع الاتحاد السوفييتي، فمنذ العام ١٩٧٧ أفصح الرجل عن رؤيته على الملأ أنه يرى في "الأصولية الإسلامية" "حصنًا في مواجهة الشيوعية". وفي مقابلة له مع صحيفة "نيويورك تايمز" بعد الثورة الإيرانية، أعلن بريجينيسكي أن واشنطن سترحب بقوى الصحوة الإسلامية في الشرق الأوسط لأن القوة الإسلامية – كفكرة عامة (أيدلوجية) – معارضة بطبيعتها للقوى السائدة في المنطقة، وهي القوى التي افتُرض فيها أن تكون متكئات محتملة للاتحاد السوفييتي. ثم حان دور جودي باول –السكرتير الصحفي لكارتر– لتأكيد هذا التوجّه بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩٧٩؛ أي بعد ثلاثة أيام من احتجاز ثلاثة وخمسين أمريكيًا كرهائن في إيران.

ورغم ذيوع فكرة صائبة مفادها عدم دراية بريجينيسكي على الإطلاق بالأوضاع السياسية في الشرق الأوسط، إلا أنه كان مشغولاً بفكرة ثابتة هي توظيف الأديان والطوائف الدينية كسلاح في الحرب السياسية. ولّما كان تدريب الرجل على يد اليسوعيين في جامعة ماكغيل، فقد صرح بأنه يرى نفسه قريبًا أيّما قرب من اليسوعيين في طريقة التفكير، الأمر الذي جعل منه عضوًا فخريًا في جمعية اليسوعيين المذكورة؛ ولأنه مهووس بمسألة تحرير أوروبا الشرقية كونه منتميًا للأرستقراطية الرجعية في بولندا الإقطاعية، فقد نظر في إمكانية إحداث انتفاضة تقودها شبكات يسوعية. وانطلاقًا من هذه المزيّة، كان من الصعب على بريجينيسكي المسارعة إلى استنتاج مفاده أن سلسلة من الحكومات التي يسيطر عليها تنظيم الإخوان المسلمين في منطقة الشرق الأوسط من شأنه أن يخدم الغاية نفسها.

وبتضافر الجهود مع ثمار الشبكات اليسوعية ومختلف المنفيين من أوروبا الشرقية، واستحداث اللعب "بالبطاقة الصينية" الرابحة في آسيا، فإن التعاون مع تنظيم الإخوان المسلمين من شأنه استكمال المساعي الرامية إلى تطويق الاتحاد السوفييتي بجيوش ثابتة العداء له على المستوى الفكري.

ورغم أن هذه الاستراتيجية – حسب رؤية بريجينيسكي – تنضوي على مزايا عظيمة من الناحية التكتيكية، إلا أنها لم تكن لتؤتي أكلها بالضرورة إلا بعد مرور ما يقارب عقد أو عقدين من الزمن؛ وهي الفترة التي

يتوقع فيها رئيس مجلس الأمن القومي وهن الاتحاد السوفييتي جرّاء الانخراط في سباق تسلح آخر والحرص على الرفاه الاقتصادي، وهو ما سيفضي إلى تفكك الاتحاد السوفييتي في نهاية المطاف! لقد شهد عام ١٩٧٩ نشر استطلاع استراتيجي رسمي أجرته الحكومة الأمريكية جاء فيه أن اتجاه ولاءات المواطنين السوفييت من المسلمين إلى تنظيمات خارج الاتحاد السوفييتي على طول ضفته الجنوبية قد يكون عاملاً مساعدًا في تمزيق الاتحاد السوفييتي عقب حرب نووية حرارية شاملة.

ولّما كان بريجينيسكي مهووسًا بتلك الخيالات المرتبطة بنهاية العالم، أجرى مجلس الأمن القومي – الذي يرأسه بريجينسكي – دراسات لصالح لجنته المختصة بالتنسيق الخاص للنظر في الآثار المحتملة لقيام تمرّد إسلامي على الشعوب الإسلامية داخل نطاق الاتحاد السوفييتي. الجدير بالذكر في هذا المقام أن قرابة ٥٠ مليون سوفييتي – أو نحو ربع سكان الاتحاد السوفييتي – هم من المسلمين، ومن هنا أشارت نتائج الدراسات التي أجريت في لندن إلى أن المكوّن الإسلامي في الدولة هو المكوّن الأسرع نموًا بين مكوناتها السكانية المتباينة. وكما جاء في صحيفة "لندن تايمز" – التي نشرت تلك الاستطلاعات والدراسات – فإن الكثير من السوفييت المسلمين ينتمون لشبكة سرية خفية من التنظيمات الصوفية الغامضة وتنظيمات الإخوان المسلمين. وقد رفضت أكثرية المحليين المتزنين هذا الطرح.

غير أنه في شهر ديسمبر من العام ١٩٧٩ – ومع تسارع المد الثوري ضد الشاه، قررت اللجنة سالفة الذكر التوسع سريعًا في عمليات البث من المحطات الإذاعية التابعة لوكالة المخابرات المركزية باللغات المتحدثة في المناطق الإسلامية داخل الاتحاد السوفييتي. وفي الشهر التالي أطلع مسؤولو إدارة كارتر لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ على أن بريجينيسكي طالب بإجراء "دراسة عالمية" على الأصولية الإسلامية نظرًا لما لها من "أثر سياسي متعاظم ... في أنحاء كثيرة من العالم". ووفقًا لما نشرته صحيفة "واشنطن بوست"، فإن بريجينيسكي "وجّه الأوساط الاستخبارية رسميًا لعمل دراسة متعمقة على هذه الظاهرة".

شيئًا فشيئًا ... صارت "البطاقة الإسلامية" لعرّابها بريجينيسكي حاكمة لسياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط برمّته. وفي ذروة الثورة ضد نظام الشاه، أصدر بريجينيسكي تصريحه الشهير الذي وصف فيه المنطقة بأنها "قوس للأزمات" يمتد من شمال وشرق أفريقيا في الشرق الأوسط مرورًا بتركيا وإيران وباكستان. وأطلق الرجل اتهاماته للاتحاد السوفييتي بممارسة لعبة القوى في تلك المنطقة من العالم بغية السيطرة على موارد النفط في الخليج، وهي الموارد التي تقوم عليها الصناعات في الغرب. ورغم أن أحدًا لم يصدق أن موسكو كانت تدعم الخميني في مواجهة الشاه –حتى إن جُل المحللين اعتقدوا أن موسكو أرادت بقاء الشاه في السلطة– فقد استغل بريجينيسكي الصورة الذهنية للدب السوفييتي الزاحف إلى المحيط الهندي لاقتراح إنشاء "منظمة حلف الشرق الأوسط" أو "ميتو (METO)".

لم تأت الفكرة بجديد، ففي يوليو من العام ١٩٧٨ طالب إدغار برونفمان –الصهيوني رئيس مؤسسة سيغرام للدعاية والإعلان– في عمود للرأي خالف الأعراف المتبعة لدى صحيفة "نيويورك تايمز" بالنظر في تلك الفكرة مجددًا، كاشفًا عن مناقشته الفكرة مع جاكوب جافيتس – عضو مجلس الشيوخ عن نيويورك – وولتر مونديل نائب الرئيس الذي اقترح بدوره على بريجينيسكي لاحقًا مضي الإدارة قُدُمًا في تنفيذ الفكرة. وبعد قبول المقترح في صورة ورقة عمل مقدمة من البيت الأبيض، أدى ذلك إلى التئام قمة "كامب ديفيد" في شهر سبتمبر من العام ١٩٧٨.

كان يُنتظر من مصر وإسرائيل النهوض بدور المبادر لتوسعة حلف الناتو في الشرق الأوسط، وكان من المفترض أن يحين دور إيران بعدهما.

كان يُراد لحلف "ميتو" في مراحله الأولى أن يكون بروتوكولاً غير صارم التنظيم بل وغير رسمي، أي أن يرتكز في المقام الأول على التعاون بين الفروع الوطنية للتنظيم العالمي للإخوان المسلمين والمخابرات الإسرائيلية. وفي ذلك اعتبر بريجينيسكي الإخوان المسلمين العامل المشترك القادر على ربط الأنظمة المتباينة في إطار واحد لمد "قوس الأزمة".

تجلى أوج استراتيجية بريجينيسكي الإسلامية في الدعم الخفي الأمريكي والدعم الصيني العلني للعصابات الأفغانية خارج باكستان وإيران. ومع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، انهمرت المساعدات الأمريكية على العصابات الأصولية المقاومة للاتحاد السوفييتي بعد أن تدفقت التقارير على مجلس الأمن القومي برئاسة بريجينيسكي مبشرةً بانتصارات عسكرية مزعومة لمتمردي الإخوان المسلمين. ولما سيطرت رؤى الانتصار الإسلامي الساحق ضد النظام الأفغاني بقيادة رئيس الوزراء أمين، مارس بريجينيسكي وحلفاؤه في بكين ضغوطهم دعمًا للجهاد (الحرب المقدسة) في أفغانستان، وذلك بالرغم من ظهور مؤشرات باستعداد الاتحاد السوفييتي للتدخل العسكري في أواخر عام ١٩٧٩.

ولما وقعت الواقعة، أصاب الاجتياح السوفييتي لأفغانستان بريجينيسكي ومجلس الأمن القومي بالصدمة، لكن هذا لا يمنع إمكانية الترحيب به سرًا؛ إذ حانت الفرصة عندئذٍ لواشنطن لتعبئة الجهد الإيراني وبقية العالم الإسلامي ضد الاتحاد السوفييتي الذي صورته التصريحات الرسمية الخارجة من واشنطن على أنه العدو الأول للإسلام.

وما كان من اكتراث لإقدام "حلفاء" بريجينيسكي المسلمين على الاستيلاء على السفارة الأمريكية واحتجاز الدبلوماسيين كرهائن وتحريق السفارة الأمريكية في كل من باكستان وليبيا.

لا ينتهي سر ثورة الخميني عند الاحتمالات الاستراتيجية لوجود "راسبوتين" أمريكي هو بريجينيسكي. ومع انتظار الانتفاضة الأصولية الإسلامية مرور ما تبقى من أيام في عمر نظام الشاه، أنحى الشاه باللائمة لا على

مجلس الأمن القومي الأمريكي، بل على شركة "بريتيش بتروليوم" وهيئة الإذاعة البريطانية باعتبارهما مسعري التمرد. والحق أن بريجينيسكي كان يلعب بالبطاقة الإسلامية التي وضعها البريطانيون بين يديه.

ونحن إذ نسمي البريطانيين فإننا لا نعني بهم حكومة المملكة المتحدة – بل العائلات الحاكمة من الأقلية البريطانية التي حكمت بريطانيا منذ العام ١٦٦٠ دون منازع لتصبح مركز القيادة لطبقة النبلاء الإقطاعيين في أوروبا، إضافة إلى المرتبطين بها بأوجه انتفاع مالية؛ فكانت سياسة تلك الأقلية تُملى عليها وتصل إليها من خلال مؤسسات مثل المعهد الملكي للعلاقات الدولية، والمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، وفي الولايات المتحدة من خلال مؤسسات رفيعة المستوى مثل مجلس نيويورك للعلاقات الخارجية ومعهد أسبن وغيرها.

منذ عصر شارلمان – عندما شرعت الإنسانية في إعتاق نفسها من براثن عصور الظلام التي أعقبت انهيار الإمبراطورية الرومانية – كان الخطر الأعظم على عائلات النبلاء الأوروبية هو قيام دولة وطنية بقيادة ملتزمة بتنمية مواطنيها وازدهار اقتصادها. وكما أثبتت الثورة الأمريكية، فإن أي شعب واع لن يتهاون مطلقًا مع حكم الأقلية ونظامها الداعي – قسرًا – إلى التخلف.

إن سليلي أسر الأقليات الحاكمة في بريطانيا لا تعتمد في تفكيرها حساب الشهور والسنين، بل حساب العقود بل والقرون أحيانًا. ومن ثمّ، كان تأسيس جمهورية إيران الإسلامية بالنسبة لهم إيذانًا بقدوم عصر ستسود فيه الأصولية الدينية ونظرة عالمية مناهضة للعلوم. ولّما كان العقل الأرستقراطي البريطاني حاضرًا من جيل إلى جيل – تمامًا كما هي الحال مع العقل الإيطالي والهولندي والهابسبورغي ومن على شاكلتهم – فإن هذا العقل تشكّل استنادًا إلى الإيمان بالفوقية السامية التي كانت حاضرة في أيام مزارع اللوردات والإقطاعيات عندما اقتصرت الحياة على طبقة النبلاء ورجال الدين والعبيد وفق طبقات هرمية بيّنة الحدود.

ومن المفيد في هذا المقام اقتباس كلمات اللورد برتراند راسيل الذي قدمت "مؤسسة برتراند راسيل للسلام" التابعة له الكثير لتقليد الخميني مقاليد السلطة، ففي الاقتباس كفاية لتبصير القارئ بطبيعة العقل الذي أتحدث عنه؛ إذ لّما كتب راسيل كتابه "*Impact of Science on Society*" (أثر العلوم في المجتمع) عام ١٩٥١ قال:

"يتزايد سكان العالم حاليًا بمقدار ٥٨ ألف نسمة في اليوم الواحد. ولم يكن للحرب –حتى الآن– أثر عظيم على هذه الزيادة، فقد استمرت طوال فترات الحروب العالمية ... لقد ثبت أن الحرب ... مخيّبة للآمال في هذا الخصوص حتى الآن ... لكن ربما تثبت الحرب البكتيرية البيولوجية فعاليةً أكبر من الحرب العادية. وإذا أمكن انتشار "الموت الأسود" في عموم العالم مرة واحدة في كل جيل، فمن الممكن للناجين التناسل بحرية دون التسبب في اكتظاظ العالم بالسكان ... قد تكون الأوضاع غير سارة، لكن ماذا في ذلك؟ إن ذوي العقول الراجحة لا يبالون بالسعادة، لا سيما سعادة الآخرين ... وستصبح المراكز الحضارية والصناعية حينئذٍ مهجورة، أما سكانها – إن ظلوا على قيد الحياة – فسيعودون إلى الانسياق في قطعان الفلاحين التي خبرها أجدادهم في العصور الوسطى".

وعلى ذلك، فإن الأقلية الحاكمة ترى في نظام الخميني – الذي خرّب الاقتصاد الإيراني وأحال مواطنيه إلى جموع هائجة – "نموذج الأحداث التي ستتوالى". ومن هنا كان امتداح ممثلي الطبقة البريطانية الحاكمة لتدمير الخميني المدن الإيرانية والعودة الجبرية إلى الحياة الزراعية بدلاً من بناء دولة صناعية نامية والإتيان على البرنامج النووي الإيراني، فتلك رؤيتهم لا كنموذج للقطاع المتخلف من العالم وإنما للأمم الصناعية الغربية أيضًا.

ومن ثمّ، ينعدم التخطيط والاستراتيجية الجيوسياسية لدى الأقلية الحاكمة في بريطانيا، حتى إنه في نهاية النظر والتقصي لا يخضع لذلك الهدف المنشود على المدى البعيد.

لكن هذا المشروع يظل حلمًا مجافيًا للتطور الزمني في حقيقة الأمر، ولا يراود إلى طبقة من رجال بلغوا من العمر أرذله فلا يستطيعون فائدة ولا إفادة لولا الواقع الذي يشهد بأن سياسة العصور الوسطى البريطانية قد سيطرت على معظم دوائر صنع القرار في الولايات المتحدة؛ ومن بينها حكومة الولايات المتحدة. إنها سياسة تستتر وراء شعارات من قبيل "المجتمع ما بعد الصناعي" و"تصفير النمو" و"رعاية البيئة" و"التخصصية": أي أنها ردّة أخلاقية تستهدف تدمير العقول بثقافة مضادة لها أثر المخدرات في الإتيان على العقل.

شهد عام ١٩٧٥ الأخذ رسميًا بسياسة العصور المظلمة البريطانية في إدارة جيمي كارتر المقبلة، وتجسّد ذلك في "مشروع مجلس العلاقات الخارجية لحقبة الثمانينيات"، وهو استقراء جاء في ثلاثين مجلدًا للعقد المقبل. وقد انتقل المشاركون في المشروع – وهم سايروس فانس وأنطوني سلومون وهارولد براون وبريجينيسكي وليزلي غيلب وغيرهم – إلى واشنطن لشغل مناصبهم في إدارة كارتر في عام ١٩٧٧.

يرتكز الموضوع العام لمشروع حقبة الثمانينات على "التفكيك المنضبط" لاقتصاد العالم؛ غير أن التقرير لا ينضوي على محاولة إخفاء المجاعة والفوضى الاجتماعية والوفاة التي ستتمخض عن هذه السياسة لتنزل بمعظم شعوب العالم.

لم يخرج المشروع إلى العلن حتى عام ١٩٧٩، لكن مجلداته بيّنت أن النظام المالي والاقتصادي العالمي يحتاج إلى إصلاح كامل بما يضمن وقوع قطاعات دواليبه الرئيسة – مثل الطاقة وتخصيص الأموال والطعام – تحت إدارة عالمية واحدة، على أن يتولى الإشراف على تلك الآلية المستحدثة – وفق اقتراح المجلس – فريق من المديرين التجاريين المستقدمين من شركات النفط متعددة الجنسيات والبنوك الأنجلو أمريكية.

تهدف إعادة التنظيم على الوجه المذكور إلى استبدال مفهوم الدولة – الأمة والإشراف العالمي الكائن بيد الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي، وهو ما يتأتى أولاً بتقسيم العالم إلى مناطق أو تكتلات منفصلة ذات عملات إقليمية، على أن توجد منطقة يسيطر عليه الجنيه الإسترليني البريطاني المتهاوي، وأخرى يسيطر عليها الفرنك الفرنسي وثالثة للدولار الأمريكي ورابعة للين الياباني وخامسة للدينار العربي؛ وعلى ذلك فقس. ويتولى صندوق النقد الدولي مهام التوسّط بين تلك المناطق، وتكون له سيطرة شبه مطلقة على تدفق العملة

والتجارة الدولية. وبذلك ينتهي الاعتماد على الدولار الأمريكي باعتباره العملية المركزية للاحتياطات المالية على المستوى العالمي.

ويواكب ذلك وقف تام لتدفق منتجات القطاع التقني المتطور إلى الأمم النامية.

ولن يسمح للعالم النامي إلا بما يسميه البنك الدولي "التقنيات المناسبة"، أي "التقنية" المستوجبة للعمل الشاق! وينفرد صندوق النقد الدولي في هذا السياق بتحديد ما إذا كانت أي دولة نامية "مستحقة للتمويل" بدرجة كافية ليتسنى لها الحصول على المساعدة المالية الأجنبية والقروض طويلة الأجل.

تتوقع دراسات البنك الدولي ووثائق صندوق النقد الدولي الرسمية أن الأثر المترتب على هذا البرنامج سيتمثل في انخفاض حاد ومفاجئ في أعداد السكان بدول العالم الثالث. وفي هذا الإطار، يتوقع "التقرير العالمي ٢٠٠٠" الصادر برعاية وزارة الخارجية الأمريكية – بل ويقر – أن هذه السياسة ستؤدي إلى انخفاض بنحو ٣ مليار نسمة من تعداد السكان العالمي بحلول عام ٢٠٠٠.

إن إيران هي أفضل أنبوب اختبار لإثبات إمكانية إجبار شعوب العالم الثالث على فرض هذه السياسة على أنفسها.

سيكون من الخطأ أخذ تصريحات بريجينيسكي على علاّتها بخصوص الهدف الرئيس من تحالف إدارة كارتر مع الأصولية الإسلامية: ألا وهو استهداف الاتحاد السوفييتي؛ ذلك بأن الهدف الرئيس هو اقتصادات حلفاء الولايات المتحدة في أوروبا الغربية، أما السلاح الرئيس في ذلك فهو النفط.

تولت حكومتا فرنسا وألمانيا الغربية قياد المجتمع الأوروبي في عام ١٩٧٨ – باستثناء وحيد هو بريطانيا العظمى– إزاء تشكيل النظام المالي الأوروبي الذي ينظر إليه – وفق رؤية أحد المسؤولين في ألمانيا الغربية – على أنه "البذرة المفضية إلى خلافة صندوق النقد الدولي". وقد جسّد النظام المالي الأوروبي وصندوق النقد الأوروبي في "مرحلته الثانية" برنامجًا واجه به سيناريو "التفكيك المنضبط" الذي تطرحه إدارة كارتر في كل مناسبة، ودعيا إلى تعزيز الدولار الأمريكي والعودة إلى الذهب كاحتياطي معياري والتوسع في إنتاج الطاقة النووية حول العالم بالإضافة إلى إحياء صناعات القطاع المتقدم من خلال برنامج طموح لتصدير التقنيات الفائقة بغية إكساب القطاعات المتخلفة طابع التصنيع الحديث.

يتوقف نجاح النظام المالي الجديد على بناء تحالف من أجل التنمية مع الدول الأعضاء في منظمة أوبك؛ فقد شرعت فرنسا وألمانيا الغربية – منذ العام ١٩٧٧ – في استقصاء إمكانية إبرام صفقة مع الدول المنتجة للنفط، وهي الدول التي ستورّد إليها أوروبا الغربية صادرات فائقة التقنية في مقابل عقود طويلة الأجل لتوريد النفط بسعر مستقر. وفي المقابل، تودع دول أوبك فوائضها المالية الضخمة في بنوك أوروبا الغربية وبذلك تؤول في

نهاية المطاف إلى مؤسسات النظام المالي الأوروبي الذي سيعيد إقراضها إلى دول أخرى في العالم الثالث. وبناءً على تلك الأموال، ستتمكن الدول المتخلفة من الحصول على الصادرات الأوروبية فائقة التقنية.

لما اكتشفت لندن أنها عجزت عن إثناء الرئيس جيسكار ديستان ومستشار ألمانيا الغربية هيلموت شميدت عن مشروع النظام المالي الأوروبي في عام ١٩٧٨ – مستعينين في ذلك بعوامل ردع اعتيادية – صدر الضوء الأخضر لتنظيم الإخوان المسلمين للإسراع بوتيرة تقويض الاستقرار في إيران.

إن أهم دول أوروبا الغربية –بالإضافة إلى اليابان– تعتمد اعتمادًا كليًا تقريبًا في وارداتها النفطية على منطقة الخليج الفارسي. وخلال العام ١٩٧٨ جاءت واردات النفط من خمس دول هي: إيران والسعودية والعراق والكويت والإمارات العربية المتحدة. وبإسقاط الشاه وإشاعة الفوضى في عموم الشرق الأوسط، اعتقد الأنجلو أمريكيون أنهم بمقدورهم تغييب أوروبا مستغلين التهديد بقطع واردات النفط أو وقوع الانقطاع فعلاً.

وفي أكتوبر من العام ١٩٧٩، أي قبل أقل من شهر من احتجاز الرهائن الأمريكيين في طهران، قدمت صحيفة "بيزنس ويك" ذلك التهديد في عبارات صريحة:

"قد يوجد نظام مصرفي عربي يضخ عائدات النفط في النظام المالي الأوروبي ليحل محل السيطرة الحالية للنظام المالي العالمي الذي تفرضه بنوك الولايات المتحدة وصندوق النقط الدولي. غير أن هذا يتوقف بالطبع على رغبة أوبك في لعب دور "وسيط القوة"؛ فإذا رفضت دول المنظمة ذلك الدول، فثمة سيناريو آخر ما زال الكثيرون يرونه غير مطروح للتفكير أصلاً: ألا وهو الحرب المفتوحة يتخلى فيه الغرب الصناعي (كوحدة واحدة) أو الولايات المتحدة بمفردها عن محاولة التعاون مع أوبك، واللجوء إلى اجتياح حقول النفط عوضًا عن ذلك التعاون".

لن يهدف الاجتياح بطبيعة الحال إلى الاستيلاء على إمدادات النفط وتوجيهها إلى الولايات المتحدة – بل إلى حرمان أوروبا الغربية واليابان منه، وستؤدي هذه الضربة الموجّهة إلى قلب اقتصادات أوروبا الغربية إلى تقويض النظام المالي الأوروبي. ومنذ احتجاز الرهائن الأمريكيين، ظل هذا السيف مسلطًا على رقبة النظام المالي الأوروبي كما السيف المسلط على رقبة ديموكليز في الأسطورة الشهيرة.

أفضت بطاقة بريجينيسكي الإسلامية إلى أبشع نهاية للسياسة التي وفدت بها إدارة كارتر إلى البيت الأبيض، فمن أوائل الإجراءات التي اتخذها كارتر بعد وصوله إلى سدة الحكم في يناير ١٩٧٧ أن أرسل نائب الرئيس والتر مونديل إلى فرنسا وألمانيا الغربية لإخبار قادة الدولتين بأن الولايات المتحدة ستعارض من الآن فصاعدًا بيع تقنية الطاقة النووية إلى دول العالم الثالث، وبذلك تعرض اتفاق ألمانيا النووي مع البرازيل ووعد فرنسا ببيع التقنية النووية إلى باكستان لهجوم ضارٍ. وفي إيران – التي تعهد شاهها بإدخال إيران ضمن أكبر ٢٠ دولة صناعية على مستوى العالم بحلول العام ٢٠٠٠ – كان هناك برنامج شامل للتنمية النووية قيد التنفيذ بدعم من فرنسا وألمانيا الغربية بالأساس.

واليوم، تستخدم أبراج التبريد النووية التي استحدثها الشاه كصوامع لحفظ الحبوب، وبات مفهوم "التأرين" (التعويل على الطاقات الإيرانية) عامل ابتزاز يستخدم ضد أي حكومة في العالم الثالث تسعى إلى دخول عالم التصنيع.

التهديد لا يكون تافهًا أبدًا. وإمكانية تحقق ثورة الخميني قد أرسى أصولها البريطانيون ببرود حس وبلادة على امتداد سنوات عدة – لتصبح بذلك جاهزة لتتصدر المشهد متى اتخذ ذلك القرار الذي به يكتب الدمار على إيران.

وإذا كان لنا أن نحدد التاريخ الذي شرعت فيه الثورة الخمينية، فإنه شهر نوفمبر من عام ١٩٧٦. فقد صدر في هذا الشهر تقرير منظمة العفو الدولية وتقرير منظمة حقوق الإنسان ليوجه اتهامات إلى شاه إيران باضطهاد وتعذيب السجناء السياسيين.

وفي حقيقة الأمر إن معهد أسبن للدراسات الإنسانية الواقع في كولورادو كان الأساس الذي مهد لقيام الثورة الإيرانية قبل ذلك بسنين عدة. ذلك أن مشروع تقويض نظام الشاه كان قد تأصل وتجذر طيلة قرن أو أكثر، وهي المدة التي تعاهد فيها متخصصو المخابرات البريطانية رجال الدين الإيرانيين والجمعيات السرية وأفراد جماعة الإخوان المسلمين الدينية بالرعاية والعناية كأصول نافعة للإمبراطورية البريطانية. غير أن تقرير منظمة العفو الدولية كان هو الطلقة التي قذفت لتسعر نيران الحرب، ليعلن بذلك عن استنفاذ قوة أحد الحلفاء الأقوياء لواشنطن.

وفي أواخر الستينيات وبدايات السبعينيات، وبتوجيه من وكيل وزارة الخارجية أولاً، يوجين روستو، ثم من هنري كيسنجر عضو مجلس الأمن القومي، سلك الشاه ببلده مسلك التسلح الواسع، وإعداد العدة اللازمة لحماية المصالح البريطانية والأنجلو أمريكية في منطقة الخليج الفارسي. وكانت لندن وواشنطن تنويان منع إيران من التورط في سياسات من شأنها أن تهدد بشكل أو بآخر السيطرة الحصرية على النفط الأنجلو أمريكي والمصالح المالية. وأثناء فترة الخمسينيات والستينيات مثلاً ورط الشاه نفسه في صفقات نفطية خارج إطار اتحاد النفط الأنجلو أمريكي الذي كانت ترأسه شركة "بريتيش بتروليوم". وإلى جانب ذلك عقد الشاه في أواخر الخمسينيات حلفًا مع الإيطالي إنريكو ماتي، رئيس شركة ENI للطاقة المملوكة للدولة، ليثير غضب لندن. وهو إلى ذلك تقرب إلى الاتحاد السوفيتي لإبرام اتفاقيات اقتصادية.

وقد نالت سياسة روستو –كيسنجر التعاون الكامل من جهاز المخابرات الأجنبية الإسرائيلية، المعروف بالموساد.

وضم الفريق الذي رسم خطط توسيع التواجد العسكري الأنجلو أمريكي في إيران روبرت كومر، الذي يعمل حاليًا كوكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسية تحت قيادة الرئيس كارتر. وفي ذلك الوقت، كان كومر،

الذي كان متخصصًا في شؤون المحيط الهندي منذ إدارة كينيدي، يعمل ضمن قوة المهام المشتركة مع الحكومة البريطانية لتخطيط الإستراتيجية الأنجلو أمريكية في أعقاب الانسحاب العسكري البريطاني من دول الخليج العربي بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧١. واليوم يعتبر كومر الرجل الذي يقف خلف قوة الانتشار السريع، وهي قوة ضاربة خاصة تتألف من ١١٠,٠٠٠ مقاتل مهمتها الأولى السيطرة على مناطق في الخليج.

وباستغلال الملف النفسي للشاه الذي رسمته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) والمخابرات البريطانية، أقنعت وزارة خارجية كيسنجر الشاه أنه في حاجة ماسة إلى كميات كبيرة من المعدات العسكرية. وقد جاء بصحبة تلك المعدات عدد غير محدود من رجال المخابرات الأمريكية والبريطانية، في حين ذهبت فرق كبيرة من الضباط الإيرانيين إلى الولايات المتحدة وبريطانيا بل وإسرائيل للتدريب.

وبعد عام ١٩٧٣، رغم ذلك، وبعد الصعود المفاجئ لأسعار النفط، بدأ الشاه في تحين الفرصة لاتخاذ إجراء مستقل. وقد كانت خدعة النفط في عامي ١٩٧٣ - ١٩٧٤ من صنيع هنري كيسنجر. وأثناء اجتماع دول الأوبك في ديسمبر ١٩٧٣ في طهران، أخبر وزير الخارجية الشاه بأن يطلب حصول زيادة كبيرة في الأسعار. وكان كيسنجر حينذاك يتصرف بالنيابة عن اتحاد شركات "الأخوات السبع النفطية" وبنوك مدينة لندن، الذين كانوا يرغبون في توقيع أسعار مرتفعة، غير أن الشاه نظر إلى الزيادات في الأسعار على أنها وسيلة يمكنها أن تبتعد ببلده عن طريق التخلف. وبعد الغضب الشديد الذي أصاب الرعاة، بدأ مالك شركة Peacock Throne في الحديث عن جعل إيران "القوة الصناعية السادسة في العالم" في غضون فترة جيل واحد.

وقد شهد عام ١٩٧٥ أول تحدٍ صريح من الشاه لكيسنجر. وبوساطة الرئيس الجزائري، هواري بومدين، والملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، وقعت إيران معاهدة دولية مع جارتها دولة العراق لتنتهي بذلك حرب منهكة أحمى وطيسها الأقلية الكردية في العراق. وقد كان التمرد الكردي مشروعًا ثمينًا للمخابرات المركزية الأمريكية -والذي كان مديرها السابق، ريتشارد هيلمس، سفيرًا في إيران- وجهاز المخابرات السرية البريطانية والموساد. وطبقًا لمصادر عربية، كان آية الله الخميني في عام ١٩٧٥ معتقلاً بالعراق، وكان لذلك يدعم التمرد الكردي ضد حابسيه العراقيين. وحين أغلق الشاه الباب أمام الأكراد، اشتاط كيسنجر غضبًا. ذلك أن ملايين الدولارات المنفقة على الدعم اللوجيستي والأسلحة قد ضاعت هباءً في كردستان، نظرًا لأن القوات العراقية المسلحة لم تستغرق أي وقت يذكر للتخلص من بقايا التمرد. وفي أعقاب قتل واعتقال القادة الإقطاعيين الأكراد الذين تزعموا التمرد، تحركت الحكومة العراقية باتجاه كردستان وفي جعبتها مشروعات للتنمية الاقتصادية، لتصير كردستان اليوم واحدة من بين المناطق الأكثر نموًا في القطاع النامي. وعليه كانت المعاهدة التي أبرمت بين العراق وإيران صفعة مهينة على جبين البريطانيين والمخابرات المركزية الأمريكية.

وفي عام ١٩٧٧، اتخذت الأمور شكلاً أكثر حدة. فقد بدأ الشاه تدريجيًا في قطع أواصر الارتباط الوثيق بين إيران وإسرائيل، وكذا التحلل من العلاقات القائمة بينها وبين أجهزة المخابرات السرية الإسرائيلية. وفي

الوقت ذاته عمد إلى أن يسلك بدولته سبيل الشراكة القريبة مع العرب، وبخاصة العراق والمملكة العربية السعودية، وهي العلاقة التي تأصلت أركانها في اجتماعات دول الأوبك في عام ١٩٧٧ و١٩٧٨. وإلى ذلك قامت إيران بفعل مذهل مغاير تمامًا لموقفها السابق في منظمة الأوبك حين أسقطت طلبها الذي طالما سعت إليه ألا وهو رفع الأسعار. وفي مؤتمر صحفي في عام ١٩٧٧، أدهش الشاه العالم بإفصاحه عن نيته العمل على استقرار سعر النفط. وقد كانت المملكة العربية السعودية وإيران آنئذٍ تنتجان ما يقرب من نصف إنتاج منظمة الأوبك الكلي، وعلى ذلك إذا حصل الاتفاق بينهما على منظور معين للسياسات، فإنه سيعم المجالس التابعة لمنظمة الأوبك رغم الاعتراضات التي قد تبديها بعض الدول الراديكالية مثل ليبيا.

وفي الوقت نفسه، أعلن الشاه – الذي ظل يقول طيلة سنين أنه يحبذ خفض سعر الدولار الأمريكي لمصلحة "سلة من العملات" – أن إيران من الآن فصاعدًا سوف تدعم الاستخدام المستمر للدولار كوسيلة للدفع والتسعير الخاص بصادرات النفط في منظمة الأوبك.

وقد ظل كيسنجر والبريطانيون لسنوات عديدة يحاولون إقناع منظمة الأوبك بالتحول إلى حقوق السحب الخاصة لصندوق النقد الدولي أو وحدة مشابهة في الحساب. وقد قاومت المملكة العربية السعودية تلك السياسة، غير أن إيران كانت تدعم تلك السياسة، حتى تلك الآونة. وهنا قام الملك خالد، ملك المملكة العربية السعودية، بإجراء زيارة غير مسبوقة إلى طهران، حيث رتب هناك للدعم المالي السعودي للإيرانيين.

ولا يقتصر مدلول التحول في سياسة الشاه على بيان رغبته في أن يسلك ببلاده سبيلاً مستقلاً، ذلك أن الشاه كان قد وضع إستراتيجية لإيران تعتمد على التعاون اللصيق مع فرنسا وألمانيا الغربية، وذلك قبيل تأسيس النظام النقدي الأوروبي. وعلى ذلك، وفي حال أن يقيم المحور الإيراني العراقي السعودي علاقة عمل دائمة مع الصندوق النقدي الأوروبي، فإن ذلك يعني تأسيس اتحاد جامع لا يتوقف عن أن يكون جبهة مناوئة للندن. وكانت قد بزغت علامات كثيرة تبرهن على وجود رغبة إيرانية في الاتحاد مع ألمانيا الغربية وفرنسا اقتصاديًا. ولذلك فإن تنظيم برنامج التطور النووي الإيراني الكبير الذي تكلف بلايين عديدة من الدولارات إنما كان أساسًا في مدينتي باريس وبون، في الوقت الذي كانت ترفض فيه الولايات المتحدة الأمريكية بيع أي تكنولوجيا نووية متقدمة إلى إيران بأي حال من الأحوال.

غير أن صفقة واحدة بالأخص هي التي أثارت غضب الحلف الأنجلو أمريكي على نحو بالغ ألا وهي الصفقة الثلاثية الأركان، والتي وافقت إيران بمقتضاها على إمداد الاتحاد السوفيتي بكميات ضخمة من الغاز الطبيعي، على أن يزود اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (U.S.S.R) ألمانيا الغربية بكميات مكافئة من حقول الغاز المملوكة له. وفي ذلك الصدد زار الشاه العاصمة موسكو لمناقشة توسيع نطاق التعاون الاقتصادي الإيراني السوفيتي.

غير أن واشنطن ولندن كانتا تنظران إلى الشاه وقتئذٍ على أنه قد مات بالفعل.

لقد كانت الثورة الإيرانية بحق مشروعًا للحرب النفسية أكثر من كونها حرب شوارع، وهي كذلك لم تخرج من مساجد الملالي المتمردين ولكنها كانت بالأحرى موجهة من مقر خدمة المخابرات السرية البريطانية الكائن في معهد تافيستوك للعلاقات الإنسانية في جامعة ساسيكس.

بدأت فرق من الأخصائيين النفسيين الاجتماعيين من معهد تافيستوك في تحديد خصائص "الثورة" معتمدين في ذلك على أجهزة الكمبيوتر وعدد كبير من الملفات المتعلقة بتجارب سابقة تخص عملية الغسل الشامل للأدمغة في إيران. كيف سيستجيب الإيرانيون إلى دعوى تصدر من ملا عاجز طاعن في السن تحركهم للثورة؟ كيف سيستجيب لذلك أهل الريف، أو العمال المهرة أو الطبقة الوسطى، أو المفكرون؟ وأي أسلوب أنفع للطلاب للزج بهم في الثورة؟ وما هي نقاط الضعف لدى الشرطة والقوات المسلحة؟ كل ذلك كان لا بد من تحليله ووضعه في الاعتبار.

وقد كان الفريق الذي أسندت إليه تلك القضية رجالاً مخضرمين في أساليب الحرب النفسية المتقدمة نظرًا لأن خدمة المخابرات السرية البريطانية تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية ومسح القصف الإستراتيجي. وخذ لذلك مثلاً الخبير "مارفن زونيس"، الأستاذ بجامعة شيكاغو الذي ألف كتاب The Political Elite of Iran (النخبة السياسية في إيران)، فقد استقدم أمثال هذا الخبير لوضع تقارير إيضاحية لطريقة التصرف التي يمكن أن تسلكها الطبقات الإيرانية ومجموعات معينة من الشعب.

لقد كان الشاه في الغالب ضحية خالصة. ووفق ما جاء عن كثير من الإيرانيين الذين وصلوا إلى الدوائر الداخلية لبلاط الشاه، فإن النخبة الإيرانية كانت غارقة في الفساد والرشوة. وكانت أسرة الشاه سيئة السمعة بسبب عدم اهتمامها بالدولة بقدر ما كان حرصها على الفرص التي تستجلبها من ورائها من صفقات تجارية مشبوهة وتهريب للبضائع والمقامرة في السوق العقارية والبهرجة بالذهب الذي لا تناله إلا أيدي فئة قليلة "فاحشة في الثراء" على مستوى الدول. وزد على ذلك أن معظم أفراد الأسرة الملكية وأصدقائهم في إيران كانوا يقيمون في مدينة أكابولكو المكسيكية، أو ريفيرا الفرنسية، أو سويسرا أكثر من شغلهم لوظائفهم في طهران. وبدلاً من أن يجمع إلى نفسه من يستشيره ويستنصحه في الأمور السياسية والاقتصادية والعسكرية، جنح الشاه إلى عصبة شيمتها التزلف والتملق ليس لها من صنيع إلا صب الإطراء والمديح عليه لنيل كبير نصيب من الثروة والسلطة.

لقد رفض الشاه مرة بعد مرة تطهير الحاشية المحيطة به. وقد كان لإحساسه الذاتي بعدم الأهلية والدونية، وهي التي عمق الشعور بها ما كان يستدعيه من ذكريات أليمة تعود في سببها إلى القهر الذي تعرض له والده، رضا شاه، على أيدي البريطانيين في عام ١٩٤١، وكذا تتويجه من بعد أبيه تتويج الدمية، كل ذلك

دفعه إلى الإفراط في تعويض هذا النقص من خلال الذات المتكبرة والسلوك المغرور. وهو على ذلك كان عاجزًا سواء عن السماح بنهوض أنداد سياسيين محتملين أو أن يسلك سبيل الشدة والمحاسبة مع حاشيته من حوله. وكان من عادة الشاه التنازع مع المستشارين والقادة العسكريين الذين يستحثونه على اتخاذ الخطوات اللازمة لتقوية إيران، ومن هنا كان من المعتاد لهؤلاء المستشارين الإقالة العاجلة من مناصبهم. وكثيرًا ما كان السبيل إلى أن يصبح الرجل من علية القوم هو أن يطري الشاه إطراء منافق لا أقل ولا أكثر.

ولهذا السبب، فقد كثير من قادة إيران الأكفاء، وبخاصة هؤلاء الذين قادتهم البصيرة إلى استشراف مصيبة قريبة الوقوع، مناصبهم في السنوات الخمس أو العشر الأخيرة قبل بدء الثورة الخمينية، ولم يتبقَ إلا أعداء النصح والخونة.

ثم كان أن وضع تقرير منظمة العفو الدولية في عام ١٩٧٦ الشاه، المثارة حوله الأقاويل أصلاً، موضع الدفاع عن نفسه.

ومن المشهور والمعلوم أن منظمة العفو الدولية إنما هي في الحقيقة جبهة للمخابرات البريطانية؛ إذ يأتي علي قمة المنظمة هؤلاء الذين على علم أكيد بالأخيرة، وهم رامزي كلارك، وسين ماكبرايد، وكونر كروز أوبريان. وقد كتب مستشار منظمة العفو الدولية، ريتشارد فالك، الأستاذ بجامعة برنستون، القسم الخاص بمشروع الثمانينيات المعني بحقوق الإنسان.

وقد زعم تقرير منظمة العفو الدولية لعام ١٩٧٦ أن البوليس السري الخاص بالشاه متهم بتعذيب وقتل المنشقين السياسيين، إذ كان الغرض من هذا التقرير هو الترويج لفكرة تسود العالم مفادها أن النظام الإيراني إنما يقوم على الوحشية وانتهاك آدمية الإنسان. وقد عملت جريدتا "لندن تايمز" و"واشنطن بوست" وغيرهما من الصحافة المرموقة على الترويج لتقارير جروسوم التي أفادت بوقوع أعمال تعذيب باستخدام الصدمات الكهربائية والبتر. ومن ثم أصبح الدفاع عن المعتقلين السياسيين الإيرانيين قضية رائجة مثيرة للجدل الواسع في أوساط الراديكاليين واليساريين.

وهكذا اضطر الشاه إلى الدفاع عن كيان ليس له من دفاع أصلاً. ومنذ تأسيس جهاز السافاك السري عام ١٩٥٥، وهو موضوع تحت إشراف المخابرات البريطانية والإسرائيلية. وكان المقصد منه هو العمل بمعزل عن حكومة الشاه. غير أن الواقع يقول إن السافاك كان في بعض الأوقات تحت إشراف الشاه وليس العكس. كذلك وإن خبراء التعذيب في تلك الوكالة كانوا قد تلقوا تدريبهم على يد الموساد الإسرائيلي. وقد تزايدت قوة هذا الجهاز شيئًا فشيئًا بعد وقوع أعمال إرهابية من جانب اليسار، وهو ما أدى به إلى اتخاذ إجراءات قمعية بالغة القسوة. ويزعم الآن كثير من المراقبين الإيرانيين أن السافاك يستعمل عملاء محرضين بهدف إحكام قبضته على الأمر بالتعاون مع الشاه.

وقد وجدت منظمة العفو الدولية من قريب أن لديها أصدقاء أقوياء. فبعد شهور قليلة من تقلده منصبه، أطلق الرئيس جيمي كارتر حملته الخاصة "بحقوق الإنسان". ورغم أن الهدف الظاهر من الحملة هو توجيه الأنظار إلى انتهاكات حقوق الإنسان في الدول الشيوعية – باستثناء جمهورية الصين الشعبية – فإن الحملة اعتادت في أحوال كثيرة على الاحتفاظ بالحلفاء، مثل إيران، في صفها الآمن. ذلك أن مسؤولي المخابرات الأمريكية حذروا من أن تطبيق معايير حقوق الإنسان على الموقف في إيران سوف يؤدي، في زعمهم، إلى كارثة واضطراب المصالح الشرعية للولايات المتحدة في الخليج الفارسي اضطرابًا كبيرًا. غير أن تلك التحذيرات لم تثنِ زبينغيو بريجينيسكي أو وزير الخارجية سيروس فانس عن موقفهما. وأصبح قسم حقوق الإنسان بالوزارة تحت قيادة باتريكيا ديريان في وقت قصير واحدًا من أنشط الإدارات الموجودة في "فوجي بوتوم".

وقد أصدر التوجيهات بالمضي في العملية صديق فانس القديم، نائب وزير الخارجية وارين كريستوفر. وكان كريستوفر قد عمل أولاً في إدارة جونسون بوصفه الرجل الثاني في وزارة العدل التي كان يتولاها رامزي كلارك.

وبعد أن أعلنت الحرب من جانب منظمة العفو الدولية، شرعت لاهثة مجموعات من منظمات راديكالية ويسارية في اتخاذ الإجراءات ضد الشاه. وفي هذا الشأن أنتج البرنامج الأسبوعي "٦٠ دقيقة" التابع لتلفزيون CBS نشرة إذاعية للتأكيد على أن عناصر البوليس السري التابعة للشاه كانت قد دبرت لقتل العديد من الشخصيات الإيرانية المعارضة، بمن فيهم هذا الرجل الذي أصبح الآن وزير الخارجية الإيراني، صادق قطب زاده، وأحد الناشرين الذين أصدروا كتابات معادية للشاه في ولاية فرجينيا. وقد شاركت في هذه التعبئة الكاملة منظمات مثل مؤسسة برتراند راسل للسلام، ومؤسسة ليليو باسو في إيطاليا، ومعهد الدراسات السياسية في واشنطن، والمعهد عبر الوطني في أمستردام، والجهاز الاشتراكي الدولي في أوروبا، ولجنة خدمة الأصدقاء الأمريكيين، ومؤتمر شعوب البحر المتوسط المدعوم من ليبيا، وكثير غير تلك من منظمات حقوق الإنسان مثل الجمعية الدولية للحقوقيين الديمقراطيين. ومن خلال تلك المنظمات، أصبحت طهران مقصدًا يتزاحم عليه الأساتذة الراديكاليون في حركة مطردة تغذيها العواصم الغربية بهدف الاتصال بالمعارضة.

وفي إيران، كانت هناك منظمة واحدة فحسب لها أهمية كبيرة بما يبرر الاتصال بها، ألا وهي جماعة الإخوان المسلمين.

وكانت الملالي بقيادة آية الله خلخالي وآية الله الخميني، الذي اعتبر العقل المدبر للثورة، تنظم نفسها تحت جماعة تسمى "فدائيو الإسلام". وفي جميع أرجاء الدولة، تركز ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ من الملالي في جميع البلدات والقرى، على أهبة الاستعداد لتنفيذ الأوامر التي يمليها عليهم بعض المتعصبين على رأسهم جماعة الإخوان المسلمين. وكان تحت طاعة عشرات من هؤلاء الملالي وآيات الله أعداد ضخمة من الموالين والتابعين.

وكانت الذراع الأخرى للثورة الخمينية هي الزمرة صاحبة الخبرة التي تلقت تدريبها في الدول الغربية من عناصر المخابرات التي تحوط رجال الدين وتتفرع حولهم. وهؤلاء الباقون أصبحوا الآن الحائزين على المناصب المدنية، ومنهم صادق قطب زاده، وإبراهيم يازدي، وأبو الحسن بني صدر.

عندئذٍ صدرت التوجيهات اللازمة من واشنطن ولندن عبر "الأساتذة"، وكانوا من أمثال البروفيسور ريتشارد كوتام من جامعة بتسبرج.

التقى كوتام مع يازدي في إيران في بدايات الخمسينيات، عندما كان كوتام ضابطًا ميدانيًا تابعًا للمخابرات المركزية الأمريكية وملحقًا بسفارة الولايات المتحدة بطهران. والتقى كوتام كذلك مع أحد الأعضاء المنتظر لهم أن يكونوا من بين قادة الثورة الإيرانية، ألا وهو قطب زاده، وأمده بما يحتاج إليه من توجيهات. وخلال العشرين عامًا التالية، عقد الأستاذ بجامعة بتسبرج مع يازدي وقطب زاده جلسات إستراتيجية في الولايات المتحدة وأوروبا وإيران. وكان القرب متأصل بين زاده وكوتام إلى حد أن وصفت زوجة زاده ذات مرة كوتام على أنه "صديق مقرب جدًا من زوجي، وهو الشخص الوحيد الذي يعرف عنه أكثر مما أعرفه أنا عنه."

وفي عام ١٩٧٠، زار كوتام إيران مرة أخرى. "لقد أجرى بي قطب زاده كثيرًا من الاتصالات حينما كنت هناك"، قالها مستغرقًا في الذكريات. "ولكنه قام بعمل تعوزه الحصافة. لقد أفصحت تقريبًا عن بعض الأشخاص."وفي عام ١٩٧٧، أجرى اتصالاً مع محمد درخشش، وهو أحد الراديكاليين الإيرانيين الذي كان قبل سنوات كثيرة أحد القادة الداعمين للانتفاضة ضد الثورة البيضاء للشاه في عام ١٩٦٣.

وفي عام ١٩٧٧، سافر درخشش إلى واشنطن عبر فرنسا. وبعد اتصاله بالمعارضة المناوأة للشاه التقى درخشش بكوتام في الولايات المتحدة، وعندها طلب إلى أستاذ جامعة بيتسبرج أن يتوسط بالنيابة عنه مع إدارة كارتر الجديدة. وحينها ذهب كوتام إلى واشنطن حيث ناقش هناك مسألة دعم الخميني مع مجلس الأمن القومي الأمريكي.

وفي نفس الوقت تقريبًا، كان يازدي وقطب زاده يترددان، باحثين عن تمويلات، بين الولايات المتحدة وفرنسا، وكذا إلى العراق حيثما كان الخميني يعيش في منفاه. وقد جاءت أولى دفعات الأموال من حكومة الرئيس الليبي معمر القذافي. لقد كانت الحاجة آنذاك تستدعي القيام بحمل من الأعمال عظيم. وكانت هناك مجموعات كبيرة من الطلاب الإيرانيين وغيرهم من الجماعات المعارضة التي تنضوي تحت مراكز غير منظمة ومشتتة في جميع أرجاء العالم. وفي الغالب ستأتي قيادات إيران الخمينية بأكملها من تلك الجماعات، نظرًا لما سيكون من استبعاد للإيرانيين الموجودين بالداخل لمحاربة الثورة.

وكان يازدي النموذج الأمثل لهؤلاء "الثوريين". فقد كان دومًا إلى جانب الخميني أثناء إقامة آية الله خارج البلاد في باريس في نوفل لوشاتو، بالإضافة إلى قطب زاده وبني صدر – وهم كانوا البطانة الداخلية التي

كانت قوام "المستشارية الخمينية في باريس". وبعد فبراير ١٩٧٩، عين يازدي "نائبَ رئيس الوزراء لشؤون الثورة"، وهو المنصب الذي ساعده على تأسيس البوليس السري التابع للخميني (Savama). وبعد ذلك صار وزير الخارجية، ثم استقال في نوفمبر ١٩٧٩، في أعقاب حادثة الاستيلاء على سفارة الولايات المتحدة، ليعود بعدها إلى وظيفة الرجل المكنون خلف المشاهد ضمن عصبة الخميني الداخلية.

وكانت الرحلة الأولى ليازدي إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٥٩. وقد حصل على درجة الدكتوراه من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ثم التحق بعدها بجامعة فيرلي ديكنسون. ورغم تورطه في قضية تضمنت اتهامات بالاغتصاب وغيرها من الجرائم الجنسية، حصل يازدي بكل سهولة على الإقامة الأمريكية الدائمة، ثم في النهاية حصل على الجنسية الأمريكية بمساعدة سيناتور نيوجيرسي، هاريسون ويليامز.

وفي عام ١٩٦٤، ارتحل من الولايات المتحدة إلى أوروبا ليقضي حوالي ٣ سنوات في فرنسا وألمانيا الغربية والجامعة الأمريكية في بيروت، حيث معقل المخابرات الأنجلو أمريكية في الشرق الأوسط.

وأثناء مدة إقامته لثلاث سنين في فرنسا، عمل يازدي مع قطب زاده ومجموعة حرة من الفرنسيين المحبين للإنجليز والوجوديين والمعنيين بالبيئة وعلماء الأنثروبولوجيا، وهم الذين يساندون الآن الحركة الخمينية.

وبعد عودته إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٦٧، قصد يازدي مدينة هوستن بولاية تكساس، حيث شغل منصبًا مرتبطًا بالبحث والتدريب في كلية بايلور للطب. "أنا على شك من أنه اشتغل بالتدريس لمدة طويلة"، هكذا علق توماس ريكس من جامعة جورج تاون، الذي كان يشغل منصب المنسق الوطني للجنة الشعبية المعنية بإيران. "وكان قد اعتاد على القدوم إلى واشنطن كل ستة أشهر أو ما يقارب ذلك ليقابل الناس من جميع الأصناف، وليسهم في ترسيخ أصول المنظمات الخاصة بالشبان المسلمين وغير ذلك. وحين يتعلق الأمر بلقاءاته فإنك تتلمس فيه سمتين أصيلتين لا تنفكان عنه أبدًا هما الحرص الشديد والحكمة البالغة".

غير أنه أثناء السنوات التي ابتعد خلالها عن إيران أيما ابتعاد، سنحت له فرصة الاتصال بأهم شخص عرفه ألا وهو البروفيسور علي شريعتي، هذا المفكر الإيراني المتعصب الذي عدت نظرياته عن "الاشتراكية الإسلامية" الأساس التركيبي الذي ألف بين مختلف الحركات الخمينية، وبخاصة في أوساط الطلاب الإيرانيين. ولم يكن شريعتي يعمل وحده، حيث كانت تموله مؤسسة برتراند راسل للسلام. وقد استطاع من خلال منصبه في جامعة مشهد أن يجمع حوله أتباعًا من الثوريين ذوي الحماسة من بين صفوف طلاب المدارس الثانوية الإيرانية والكليات. وفي باريس عام ١٩٦٤، ناقش يازدي وشريعتي معا مسألة العودة إلى إيران. وقررا فيما بينهما أن يعود شريعتي أولاً، ليليه يازدي بعدها. غير أنه حصل أن قبض على المرشد على الحدود المؤدية إلى إيران، ومن ثم وجه يازدي على إثر ذلك إلى عدم العودة.

وقد استغرق الأمر حوالي خمس عشرة سنة ليستطيع بعدها يازدي العودة إلى إيران – ليصير على رأس بطانة آية الله الخميني.

(٢)

كيف أطاح البريطانيون بالشاه؟

نحن الآن في عام ١٩٧٨. الاضطراب يختمر في إيران طيلة عام تقريبًا، وقد جعلت بعض الاحتجاجات تفسق وتبزغ في يناير ١٩٧٨ بعد ثناء الرئيس كارتر خلال كلمة العام الجديد على إيران ووصفها بأنها "جزيرة الاستقرار".

وقد أخذ الموقف يزداد سوءًا بعد سوء قبل عام حين عمد الشاه إلى تغيير كبار الوزراء، كما كان الحال مع رئيس الوزراء عباس أمير هويدا الذي عين بدلاً منه جمشيد أموزيغار. وكان أبرز الآثار السيئة التي ترتبت على تعيين أموزيغار هو الإبطاء من زخم التطور وتحويل الاستثمارات إلى الزراعة بعيدًا عن الصناعة والقطاعات التي تعتمد على التكنولوجيا المتطورة. وفوق ذلك كله اتخذ أموزيغار موقفًا معاديًا متبجحًا تجاه رجال الدين، إذ كان يرتكب أفعالاً تبدو في ظاهرها الزائف مناوئة للملالي، غير أنها في الحقيقة كانت تغرض إلى تصعيد الحملة المجابهة للحكومة فيما يبدو. ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل إن أموزيغار أوقف الأموال التي كان يدفعها النظام إلى رجال الدين دون الرجوع إلى أحد في ذلك، وبذلك بدت العلامات الأولى للاضطرابات والقلاقل في المساجد. وكان التوقيت غير المناسب للاستفزازات، وما كان من خطابات مهينة وجهت إلى رجال الدين ونشرت في الصحافة الإيرانية بأمر من مسؤولين في وزارة المعلومات، وكذلك ما كان من أمر إغارة الشرطة في عام ١٩٧٨ على منزل الزعيم الديني "آية الله شريعتمداري"، كل ذلك كان مدعاة لتفجر السخط العارم.

وقد بدا الشاه مع ذلك وكأنه غير مبال بالبركان الذي ينشط على مقربة منه شيئًا فشيئًا، وظل على حاله تلك يثق ثقة كاملة في جهاز السافاك والأجهزة الأمنية.

لقد كان ذلك حقًا أكبر أخطائه جميعًا.

وكان الرجل المسؤول إذ ذاك عن الشؤون اليومية لجهاز السافاك هو الجنرال "حسين فردوست"، وكان صديقًا للشاه في الطفولة، التحقا معًا بمدرسة "Le Rosey" في سويسرا في الثلاثينيات. ووفقًا للمعلومات الموجودة بين أيدينا الآن، فإن فردوست كان على الأرجح زعيم الفتنة القابع في "الحلبة الداخلية" للثورة، ذلك أنه ظل يبحث، طيلة ما لا يقل عن عام قبل حلول فبراير ١٩٧٩، عن حلفاء من بين صفوف قادة القوات المسلحة وأجهزة المخابرات. وعلى ذلك أظهر فردوست المدى الذي قد يصل إليه أحد الضباط- ربما بفعل الأحقاد المتوارية في قلبه تجاه الشاه- في تأييده للانضمام إلى الثورة الإسلامية. "لقد قرر الأمريكان التخلص من الشاه"، ربما كان هذا قول فردوست. "علينا أن ننجو بأنفسنا. أتراك تلحق بنا؟" هكذا فعل كثير من الناس.

على أن الشاه وأخته الأميرة "أشرف" كانوا على ظن بأن الجنرال فردوست هو في الحقيقة خائن للنظام. وفي الكتاب الذي ألفته "Faces in a Miror" (وجوه في مرآة)، ذكرت الأميرة أشرف أنه في عقب تعليق الإعانات المالية التي كانت توهب لرجال الدين، أصبحت المساجد المسرب الذي تخرج منه المظاهرات المناوئة للشاه.

ثم استدركت قائلة: "الغريب أن السافاك، وهو البوليس السري الذي يعمل لمصلحة الشاه – والمفترض أن يكون المصدر المخابراتي الذي على دراية ومعرفة بكل شيء — لم يعد أي تقارير عن المدى والأسلوب الذي اتبعه الملالي في استغلال قدسية المنابر لتقويض العرش..... وكان فردوست القناة التي تصل من خلالها المعلومات الحيوية العليا إلى أخي.... وإنني على قناعة بأن فردوست لا بد وأنه كان يخفي معلومات حيوية على الشاه، وأنه إلى ذلك كان يجري مداولات مكثفة مع الخميني خلال السنوات الأخيرة للنظام."

واليوم يقال إن فردوست هو واحد من بين قادة البوليس السري التابع للخميني (السافاما)، وتردد ذكره بين المتورطين في حادثة مقتل الأمير شفيق في باريس عام ١٩٧٩. وبخصوص ذلك الاتهام، أخبر الشاه أحد الصحفيين بعد الحادثة قائلاً: "في قرارة نفسي لا أتمنى أن يكون هذا حقيقيًا، لئلا يكون ذلك كذلك ... أعني أنه شخص دنس قد بلغ من النذالة والوقاحة أشدهما." غير أن فردوست نال واستمتع بالثقة القلبية الخالصة من الإمبراطور خلال الشهور السابقة لفبراير ١٩٧٩.

وفي بداية أغسطس ١٩٧٨، انصدعت إيران بأسوأ عمل إرهابي في التاريخ. فبعد أسبوع من العنف المتناثر، مات ٤٠٠ شخص في ١٩ أغسطس عندما شب حريق في أرجاء سينما" ريكس" في عبادان. لقد أشعلت النار عن عمد وقصد دونما شك، وأغلقت الأبواب من الخارج لمنع أي محاولة للهرب من ذلك الجحيم. ووسط هذا العنف المتصاعد في إيران واتهام السافاك بالتدبير لإشعال تلك النار عن عمد، شرعت وكالة أنباء فارس في حملتها الخاصة.

"إن وراء تلك القلاقل الحادثة قوتين لا ثالثة لهما – مجموعة من العوام السذج خضعوا لغسيل دماغي ممنهج من قبل أهل التطرف الديني والأفراد المنتمين للطبقة الإقطاعية على حد سواء"، ذلك بحسب ما قالته وكالة أنباء فارس في ١٨ أغسطس. على أن هؤلاء المشاغبين والإرهابيين يفعلون ذلك "بتحريض من عناصر أجنبية معينه تعادي التنمية في إيران"، هكذا كان اتهام الخدمة الإخبارية.

بالفعل تزايدت حدة الصحافة الإيرانية طوال عدة أسابيع تجاه البريطانيين، واعترف الإيرانيون في مناقشات الشوارع بأن الحركة التي يتزعمها الخميني والملالي إنما ينظم أمرها لندن.

ونالت هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) قسطًا خاصًا من الهجمات، لما كان من أمر برامجها الإذاعية الناطقة باللغة الفارسية التي أججت من نيران تلك القلاقل. وفي أواخر يوليو، أصدرت منظمة العمال الإيرانية

ما اعتبر هجومًا على الهيئة نال التصديق الرسمي، جاء فيه: "لقد دأبت هيئة الإذاعة البريطانية على إهانة وتجريح الدولة الإيرانية ضمن خدماتها الإذاعية الناطقة باللغة الفارسية..... ذلك لأن تنمية وتقدم دولة إيران هو في الحقيقة كالشوكة في عين أصحاب الإمبريالية البريطانية."

لقد انتشرت الهجمات في إيران على البريطانيين إلى حد أن الصحافة اللندنية اضطرت إلى النظر في شأنها. وفي ٢١ أغسطس أشار اللورد كالفونت، ضابط المخابرات البريطانية السابق في تصريح خافت بصحيفة "London Times" يقول فيه:" تدور في طهران العديد من التفسيرات حول الاضطراب الحالي هناك. أحد المذاهب التي يتبناها بعض أصحاب الرأي هو ذلك الافتراض الغريب الذي يدعي وجود مؤامرة بريطانية، ولكن عند تحري هذا الأمر عن قريب، يصح لنا أن نقول إن أحدًا لا يستطيع أن يقدم دليلاً واحدًا أو حتى مبررًا منطقيًا لتلك النظرية الشاذة." وتابع اللورد كالفونت قائلاً: "لقد أعادت الحكومة الإيرانية بعض الأموال إلى حسابات رقمية بنكية في سويسرا. وهنا يتبين لنا من طريق التنبؤ عدم وجود دليل صحيح على ذلك الاتهام."

كذلك ساعد على حدوث تلك الثورة الشيعية التي كان يتزعمها رجال الدين ذلك التدفق اليومي لمئات الألوف من أهل القرى المدفوعين باليأس والتشريد إلى المدن الإيرانية الرئيسية. وكانت الهجرة من الريف نتاج السياسات الاقتصادية لحكومة أموزيغار التي أدت، بتعطيل العديد من المشروعات الإنشائية والتنموية، إلى البطالة العاجلة بين العمالة المتوسطة المهارة وغير الماهرة. وما أن يصل هؤلاء القرويون إلى المدن، حتى يزجوا بأنفسهم في هذا العنف الطاحن الذي تزداد ضراوته شيئًا فشيئًا بما يستجد من أحداث.

وكان المحرضون على تلك الثورة هم الملالي العاكفة في المساجد، وهم من تولوا كبرها. وصارت المساجد على ذلك هي المجمع الذي يلم الشمل لما له من صفة القداسة التي يحرم انتهاكها في نظر الشرطة والسلطات التنفيذية. كذلك كان للخطب التي ألقاها كبار آيات الله، بين مئات من الخطب التي وسعت طول البلاد وعرضها، أكبر الأثر في إلهاب حماسة أنصاف المتعلمين لتحيلهم بذلك كأمثال المصابين بنوبة جعلتهم يتغنون باسم المنفي آية الله الخميني ويمطرونه بالمدائح، وهم الذين خرجوا في النهاية واحتشدوا في الشوارع احتشادًا كبيرًا.

إنها لم تكن ثورة سياسية بقدر ما كانت عملية من البناء الطائفي الديني، وتكييف عواطف الخوف واليأس التي سيطرت على المتخلفين من أهل القرى الإيرانية للزج بهم في مطحنة سياسية لا تعرف إلا القسوة المنكلة بالذات. لقد كانت انتحارًا جماعيًا على مستوى الأمة بأسرها على غرار ما حدث في "معبد الشعوب" الذي كان يقوم عليه رجل الدين "جيم جونز". فعندما يدفع بمجموعة من المتظاهرين المتعصبين – الذين يتعاطون الأفيون في العادة ويخبرون من الملالي أنهم إن ماتوا فإن الخلاص لهم (إذ كان الاستشهاد من التقاليد المعروفة من قرون بعيدة في المذهب الشيعي) – تجاه منافذ بنادق الشرطة السيئة التدريب، فإن موت هؤلاء لا ينجم من ورائه إلا تكاثر هؤلاء المتظاهرين. وهكذا تعقد، بحسب ما يقضي به العرف بين الشيعة، في اليوم الأربعين من

بعد موت أي شخص، مسيرات حاشدة في ذكرى وفاته. وهو ما يعني حدوث إصابات جديدة. وكانت تلك الدورة الأربعينية، التي بدأت في ربيع عام ١٩٧٨، تتكرر بكثافة سريعة على مدار السنة.

وفي نهاية المطاف، وفي الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٧٨، وبعد عدة أيام من المظاهرات التي دفعت بالملايين من الإيرانيين إلى الشارع، انصاع الشاه للضغط الواقع عليه من جنرالاته وأعلن الأحكام العرفية. ويعزى السبب في عدم الإعلان عن تلك الأحكام العرفية قبل ذلك بعدة شهور إلى عامل واحد فقط، ألا وهو الضغط البالغ الذي ترتب على حملة "حقوق الإنسان" التي تبنتها منظمة العفو الدولية. ولم يكن السبب الوحيد الذي أقض مضجع الشاه هو موقف تلك المنظمة وحلفائها، بل قد زاد من قلقه ذلك التحذير الذي أصدره السفير الأمريكي ونظيره البريطاني في طهران بأنه إن أعلن الأحكام العرفية فإن ذلك من شأنه أن يسيء إلى مكانته إساءة بالغة في منظور الرأي العالمي. وبتردد الشاه طويلاً في اتخاذ موقف صارم تجاه المجاذيب من رجال الدين الشيعة، أعطى الشاه لهم بذلك فرصة كافية جعلتهم يتمادون في غيهم ليشرعوا على إثر ذلك في سلسلة من المظاهرات ومسيرات الموت. والآن وبإعلان الأحكام العرفية، لم يعد الشاه يقتصر على مواجهة أفراد شعبه بل تعدى ذلك إلى مواجهة الإدارة الأمريكية والبريطانيين. لقد بدأ حينئذٍ نزاع الحسم.

وفي يوم الجمعة ٨ سبتمبر، عين الشاه الجنرال غلام علي أوفيسي حاكمًا عسكريًا. وكان لأوفيسي، قائد الحرس الإمبراطوري سابقًا والقوة العليا الحالية للشاه، سمعة أسبغت عليه لقب "الصقر". هذا على أن إعلان الأحكام العرفية لم يسمع به كثير من الناس لسبب ما رغم إذاعته في الراديو. وفي آخر هذا اليوم تطور صدام بين الشرطة والمتظاهرين الذين لم يخبرهم قادتهم بأن الأحكام العرفية تمنع من أي مظاهرات. وعلى ذلك قتل أكثر من ٥٠٠ شخص فيما عرف وقتئذ باسم "الجمعة السوداء".

وهاهنا ألقى الشاه عن نفسه لباس التنعم، ولم يعد بإمكانه العودة إلى أيام ولت مدبرة. ورغم أنه كان لا يزال ينشد التسوية، فإنها ضنت عليه بأن تظل موضع الاختيار، وأصبح الشاه مذعورًا يترقب خسارة فادحة من جراء تردده في الأمر.

وبعد اليوم الذي وقعت فيه المذبحة، كان البيت الأبيض قد حسم القضية وقرر التخلص من الشاه. ونقل أيامها الصحفي الفرنسي كاتب العمود "بول ماري دي لا غورس" الخبر قائلاً:" لقد كان الأمر واضحًا خلال الأيام الأخيرة بخصوص الفشل المرتقب لحسابات الشاه التي كان يأمل من ورائها في التصالح مع العناصر المعتدلة من رجال الدين الشيعة.

وتضافرت الأدلة على أن لم يعد يحتمل الانتظار أكثر من ذلك لفرض الأحكام العرفية. لقد كان يعرف جيدًا أن خلعه من العرش كان يطرح علانية على مائدة النقاش، التي جلس عليها كذلك حلفاؤه الأقدمون، ألا وهم الأمريكيون ... لقد أخذت دوائر أمريكية أخرى في الإعداد لحلول مغايرة."

ومن خارج إيران شاركت مؤسستان على وجه الخصوص في شن حرب على الأرض ضد الشاه، أولاهما كانت شركة "بريتيش بتروليوم" بينما كانت الثانية "هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي).

لقد كان غائبًا عن الأذهان أنه طيلة عام ١٩٧٨ كانت المفاوضات تسير بين الحكومة الإيرانية واتحاد شركات البترول الذي مثلته شركة بريتيش بتروليوم. وقد انطلقت المحادثات بخصوص تجديد العقد البالغ أجله ٢٥ عامًا، الذي بدأ في ١٩٥٣ بعد قيام المخابرات الأنجلو أمريكية بانقلاب أعاد الشاه إلى العرش مرة أخرى، في يناير ١٩٧٨ ثم استكملت خلال بقية العام، لتنهار في النهاية بحلول شهر أكتوبر.

وقال الإيرانيون المشاركون في المفاوضات إن البريطانيين كانوا يبتزون إيران خلال السنوات التي سبقت نهاية العقد برفضهم التعهد بإبرام اتفاق يقضي بشراء معظم إنتاج إيران من النفط. ورغم تمتع شركة بريتيش بتروليوم وحلفائها بالصلاحية التي تجيز لهم شراء ما يزيد على ٨ ملايين برميل من النفط يوميًا من إيران بحلول عام ١٩٧٨، واتفاقهم فعلاً على شراء ٥ ملايين برميل كحد أدنى، فإنهم كانوا يتفاوضون على شراء ٣-٤ ملايين برميل فحسب. وهذا اضطر إيران لتعديل توقعاتها الخاصة بالدخل ومحاولة تسويق النفط على نحو مستقل، وهو ما نجحت إيران في فعله.

والآن في أكتوبر ١٩٧٨، وفي عنفوان المظاهرات، كان الشاه والشركة الوطنية الإيرانية للنفط يتبادلون الحديث بشأن المستقبل الاقتصادي لإيران. وفي ذلك الحين رفضت شركة بتروليوم بريتيش طلبات الشركة الوطنية الإيرانية للنفط قولاً واحدًا، وامتنعت عن التعهد ببيع النفط الإيراني ولكنها طلبت أن تمنح الحق الحصري لشراء هذا النفط إذا رغبت في ذلك في المستقبل! وقد رفض الشاه والشركة الوطنية هذا العرض النهائي المقدم من شركة بريتيش بتروليوم، وبدا حينها أن الشاه لو تمكن من التغلب على الانتفاضة الجارية، فإن إيران ستكون بذلك كاملة الحرية في تحديد سياسة المبيعات النفطية الخاصة بها في عام ١٩٧٩، وبهذا تستطيع تسويق نفطها إلى الشركات الدولية في فرنسا وأسبانيا والبرازيل وكثير من البلدان الأخرى على أساس مبدأ "الدولة إزاء الدولة".

"إذا لم يكن اتحاد الشركات (بتروليوم بريتيش) يرغب في إظهار مزيد من المرونة في تعاملاته، ربما يكون قد حان الوقت لإيران لإعادة النظر في علاقتها الشاملة مع تلك الشركات"، هكذا أعلنت افتتاحية صحيفة "كيهان إنترناشونال" في سبتمبر. وعند استدعاء الماضي، فإن الشراكة التي امتدت لخمسة وعشرين سنة مع اتحاد الشركات وكذا تلك الشراكة السابقة عليها التي امتدت لخمسين سنة مع شركة بريتيش بتروليوم لم تكونا بموضع رضًا من إيران..... وعند استشراف المستقبل، يقتضي الوضع أن تتحمل الشركة الوطنية الإيرانية للنفط مهمة التخطيط للتعامل مع جميع العمليات بنفسها.... وبينما قد يغير ذلك كليًا من الالتزامات الاستثمارية للشركة الوطنية، فإن فيه بالتصاحب عاملاً جاذبًا يكمن في وضع التسويق المربح لجميع منتجات

الدولة النفطية في يد الشركة المملوكة لها. وهنا يتبادر إلى عقول المسؤولين التنفيذيين لصناعة النفط سؤال يقول: هل آن وقت التغيير حقًا؟"

وقد بدأت غالبًا في آن واحد العلامات الأولى لاضطراب العمال في حقول النفط الإيرانية، فقد تباطأ الناتج الإيراني من النفط، عدة مرات في عام ١٩٧٨، إلى أن وصل حد التنقيط. وفي وسط المفاوضات التي دارت بين إيران وشركة بتروليوم بريتيش، فقدت إيران فجأة أصلها الرئيسي المتمثل في ثروتها الهائلة من النفط كورقة نافعة في التفاوض.

وكان القائم الرئيسي على تنظيم عمال النفط في إيران، بحسب تقارير في هذا الشأن، هو فريق من الراديكاليين الذين أرسلوا إلى خوزستان بتوجيه من مؤسسة برتراند راسيل للسلام.

وفي الصحافة الأمريكية، لم ينشر سطر واحد عن التنازع بين إيران وشركة بريتيش بتروليوم طيلة مدة الثورة.

وفي إثر ذلك بدأت رؤوس الأموال في الرحيل عن الدولة ـ ونظمت عملية سحب لرؤوس الأموال من بين صفوف النخبة المالية في إيران من خلال قنوات شركة بريتيش بتروليوم. وكانت تلك النخبة، المتمثلة أساسًا في طائفة البهائيين واليهود وغيرهم من المصرفيين والتجار، على روابط عائلية بالتجار البريطانيين وشركة بريتيش بتروليوم تعود إلى القرن التاسع عشر.

وعلى المستويات الدنيا، اعتمد هذا التحالف على الاتفاقيات التاريخية الموقعة بين القيادة الشيعية والعالم المغمور من تجار البازارات. ومن خلال اعتمادها على التمويل بأسعار فائدة عالية، عقد أصحاب البازارات صفقات سياسية واقتصادية ملائمة مع البنوك التجارية.

وكان أصحاب البازارات بطبيعة الحال على ارتباط بالتدفقات المالية غير المنتظمة وتهريب البضائع في حدود الدول العربية الساحلية الواقعة على الخليج الفارسي. ومارس عدد من العائلات اليهودية الشهيرة القوية ماليًا نفوذًا هائلاً على تلك الرابطة المالية البعيدة عن السيطرة والمراقبة. وقد عرف هؤلاء التجار باسم "تجار السجاد اليهود"، حيث كان لتلك المؤسسات المالية القدرة على إحداث تأثير في الاقتصاد الإيراني من خلال السحب الواسع لرؤوس الأموال التي تبلغ عشرات الملايين من الدولارات في بضع ساعات. وقد نشرت مجلة "New York Post" آنئذٍ تقريرًا في أكتوبر ١٩٧٨ أفادت فيه بأنه قد غادر إيران في هذا الشهر وحده ما يربو على ٧٠٠ مليون دولار أمريكي من خلال القنوات التي يتحكم فيها المجتمع الإيراني اليهودي.

على أن شيئًا من ذلك لم يكن ليحدث دون إعطاء الضوء الأخضر من البريطانيين، حيث كان جهاز مخابراتهم يراقب عن كثب مجريات الأمور في أسواق الخليج الفارسي. وقد ظل للبريطانيين على مدار قرنين اليد العليا المهيمنة على تهريب البضائع والاتجار بالمخدرات في منطقة الخليج كمحطة وسيطة بين المثلث الذهبي

الأقصى لآسيا والغرب. ومن خلال تلك القنوات، جرى تهريب كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة إلى إيران لتغذية الثورة ـ في حين تم تهريب الأموال إلى خارج الدولة.

لقد شهدت تلك الفترة، بين أواخر شهر سبتمبر وبداية شهر نوفمبر، فقدان الشاه لآخر فرصة حقيقية لإيقاف هذا المد الجارف.

وبحلول شهر أكتوبر، أصبحت الأمة الإيرانية على وعي تام بأن رجال الدين المدعومين من بريطانيا قد عزموا على تقويض النظام من أركانه. لقد كان ذلك حديث الساعة في طهران. وأما لو اتخذ الشاه القرار بمواجهة البريطانيين بصراحة دون مواراة، فكان بإمكانه حينئذٍ إيقاع الهزيمة بهم. وكان من الممكن كذلك أن تتركز تلك الإستراتيجية على إطلاق الشاه لثورته الخاصة، بأن يعلن بأن أمن إيران كان مهددًا بمؤامرة بريطانية استعمارية جنبًا إلى جنب مع شركة بريتيش بتروليوم. لقد كان باستطاعته أن يسم رجال الدين باسم "الرجعيين السود" الخادمين للندن، وبذا يستدرج معظم النخبة السياسية الإيرانية إلى صفه. غير أن الذي حدث هو أن الإدارة السياسية غير الرشيدة جعلت كثيرًا من أفراد الطبقة الوسطى والمفكرين ينضمون إلى جانب الخميني المتطرف رغبةً في إدراك حظوظهم المرهونة بثورة الملالي.

وفي المجال الدولي، كانت الظروف مواتية للشاه لإحداث انقلاب سياسي على البريطانيين، وذلك إذ قرر فجأة تأميم شركة بتروليوم بريتيش وبقية الشركات المنضمة إلى الاتحاد وكذا تسويق جميع النفط الإيراني على نحو مستقل وفسخ الاتفاقية المنتهية الأجل، حيث كانت تبدو علامات تدل على أن فرنسا وألمانيا الغربية واليابان كانوا سيتجاهلون أي نداءات بريطانية بالمقاطعة (كما حدث من قبل في عام ١٩٥١، تحت حكم "مصدق") إلى جانب التوصل إلى صفقات مع إيران على أساس مبدأ "الدولة إزاء الدولة".

وكذلك كان الاتحاد السوفيتي وحلفائه على استعداد لدعم الشاه في مجابهة الخميني. وفي أواخر أكتوبر، تلقى الشاه تلغرافات بمناسبة عيد ميلاده من "ليونيد إيليتيش بريجينيف" زعيم الاتحاد السوفيتي وغيره من القادة الأوروبيين. ودعا بريجينيف في رسالته إلى توسيع العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وجيرانه اقتصاديًا وسياسيًا. وفي عام ١٩٧٨، أطلقت وكالة أنباء الاتحاد السوفيتي (TASS) بيانًا عاجلاً تنكر فيه تقارير صدرت عن مصادر أنجلو أمريكية تدعي أن موسكو هي التي تقف وراء الاضطراب الجاري في إيران، وصرح هذا البيان قائلاً: "من أجل الكشف عن أسباب الاضطرابات الحالية في إيران، كان على مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن ينظر بخاصة إلى السياسة التي تنتهجها دولته." ووصفت وكالة أنباء الاتحاد السوفيتي اتهامات مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بأنها "غطاء دعائي كاذب لأجهزة المخابرات السرية الأمريكية في طهران."

وفي ٢٧ سبتمبر اتخذت دولة العراق المجاورة، التي شهدت معارضة الخميني للشاه على حذر واحتراس، إجراءً عمليًا حين وضعت آية الله الخميني رهن الاعتقال في مدينة النجف، وهي المدينة المقدسة العراقية. ولم

يقتصر الأمر على العراق وحدها، بل إن كثيرًا من الدول العربية كانت على استعداد لدعم الشاه في مواجهة رجال الدين، ذلك أنهم كانوا يخشون أمر وقوع تلك الثورة التي ربما تطول وتنتشر في العالم العربي في ظنهم.

غير أن الشاه كان كالماء الراكد.

على أنه لو لم تكن هيئة الإذاعة البريطانية وما فعلته، لم يكن قد وجد الخميني وما جناه. وخلال عام ١٩٧٨ بأسره عمدت هيئة الإذاعة البريطانية إلى تثبيت عشرات المراسلين في جميع أرجاء الدولة وجميع بلداتها وقراها النائية. وقد عمل هؤلاء المراسلون – الذين كانوا في الغالب مراسلين يعملون لوقت جزئي لمصلحة الخميني، وفي أحيان أخرى كانوا مواطنين بريطانيين يعملون لوقت كامل في خدمة جهاز المخابرات السرية البريطانية — كجهاز استخباراتي خادم للثورة.

وما إن يقع حدث تافه في بعض القرى، حتى يرسل الخبر مراسل هيئة الإذاعة البريطانية القريب من المشهد إلى مقر الهيئة في طهران. وفي غضون ساعات، كانت النشرات الإذاعية للهيئة البريطانية الناطقة بالفارسية تبث البيانات المشحونة عن تلك الحادثة إلى جميع أرجاء إيران! ولما بدت هيئة الإذاعة البريطانية وكأنها المتحدث الجهوري الوطني للملالي والمتعاطفين معهم، دأبت الهيئة على إشاعة الأنباء المثيرة التي تزعم ارتكاب الشرطة الإيرانية لأعمال عدائية في نواحي إيران كلها، دون التحقق من صحة التقرير. ولم تعطَ الحكومة الإيرانية أبدًا فرصة دحض تلك التقارير بالحجج. على حين أن أرباب الدعاية المغرضة مثل إبراهيم يازدي كانوا يمنحون ساعات على الهواء مباشرة يصبون فيها جام غضبهم الحانق على الشاه، ليستمع إليهم بتلهف بالغ أعداء الشاه في إيران.

وقرب نهاية السقوط، جعلت هيئة الإذاعة البريطانية تذيع الخطب الهائجة لرجل الدين المتطرف آية الله الخميني بأكملها. وقد صرح الشاه عدة مرات في شهري نوفمبر وديسمبر أنه سوف يتخذ خطوات انتقامية من لندن إذا لم تتوقف هيئة الإذاعة البريطانية عن إشاعة الدمار، بل إنه هدد ذات مرة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى، لكن الحكومة البريطانية أقسمت قسمًا مقدسًا بأنها ليس لها من نفوذ على هيئة الإذاعة البريطانية نظرًا لأنها "شركة خاصة" على حسب ادعائهم. وهذا دفع الشاه إلى استدعاء السفير البريطاني في طهران مرتين على الأقل للاحتجاج على أفعال هيئة الإذاعة البريطانية، ولكن دون طائل. وكانت الحكومة من وقت لآخر تطرد واحدًا من مراسلي الهيئة ولكنها توقفت عن ذلك بعدها.

وظل الوضع على حاله هذا حتى كان يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٧٨، حيث خرج أحد نواب البرلمان الإيراني، وهو حسين دانيشي من دائرة عبادان، يتسائل عن سبب السماح لهيئة الإذاعة البريطانية بأن تلعب دور المحرض قائلاً: "إن الناظر في الأحداث وتطوراتها في كل مكان من العالم خلال السنة الماضية ليستطيع أن يتبين من وجود خطة شيطانية تهدف إلى تمزيق دولة إيران .... ليس لك أن تندهش إذا رأيت هيئة الإذاعة البريطانية

وهي تعد برامج، وفي أثناء برامجها الثلاثة المذاعة بالفارسية لا تراها تفكر في شيء إلا بث التحريض وإثارة القلاقل والفوضى. حقًا إن هذا الثعلب البريطاني الطاعن في السن يبحث عن فريسة بعدما أصبح غير قادر على تأمين الخير لنفسه.

وتابع دانيشي قائلاً، "إن سؤالي الذي أوجهه للحكومة هو "لماذا لا توضح الحكومة الحقائق السياسية الراهنة ولا تخبر الشعب بالتطورات السياسية في العالم التي اتخذت ضد إيران؟ ولماذا لا يفصح عن مخطط بريطانيا رغم استمرار معاناة الحكومة من مرارة ما تقوم به من عمليات نهب؟

ما السبب الحقيقي وراء ذلك؟ لقد صارت هيئة الإذاعة البريطانية، إلى جانب الغضب العاصف الذي أخذ يجمع الناس إلى بعضهم، المنسق الحقيقي للثورة. وقد بلغ الأمر بالملالي إلى أنهم كانوا يستطيعون تنظيم مظاهرات متزامنة في المدن الإيرانية المنفصلة عن بعضها بآلاف الأميال بمجرد إرسال إخطار لم يكد يمضِ عليه ٢٤ ساعة، وذلك كله بمساعدة هيئة الإذاعة البريطانية. وفي باريس سجل الخميني أشرطة يأمر فيها أتباعه من طائفته الدينية بالخروج إلى الشوارع ثائرين. وفي غضون ساعات من ذلك، كانت تذاع تعليماته الدقيقة بصوته ولسانه الناطق بالفارسية في كل أنحاء إيران من مقر هيئة الإذاعة البريطانية بلندن.

وعلى نقيض الأسس التي قامت عليها هيئة الإذاعة البريطانية كذراع لوحدة العمليات الخاصة البريطانية، بدأت الهيئة في نشر إشاعات الحرب النفسية في ديسمبر، مثل التقارير التي تدعي أن الشاه قد فر هاربًا إلى خارج البلاد، أو أنه قد تنازل لابنه عن العرش، أو أنه قد فقد عقله. وفي ديسمبر اتهم طهراني، وزير المعلومات الإيراني الهيئة بأنها تحرض عمال النفط الإيرانيين على الإضراب. وإلى ذلك طرد أحد مراسلي وكالة أنباء "يونايتيد برس إنترناشونال" التابعة لهيئة الإذاعة البريطانية لنقله خبرًا يدعي فيه اغتيال الشاه. وبعد وقت قصير من هذا الشهر، وحسبما أوردت صحيفة "واشنطن بوست" أن هيئة الإذاعة البريطانية اعتبرت حينها "العدو العام رقم ١"، أوقفت الحكومة العسكرية التابعة لرئيس الوزراء الجنرال غلام رضا أزهري النشرات الإذاعية للهيئة، ولكن ذلك كان متأخرًا جدًا.

ذلك ولم يكن أعداء الشاه من رجال الدين كارهين لشن حرب نفسيه صغيرة على طريقتهم الخاصة. وذات مرة، وأثناء مظاهرة مرتبة في طهران في ٢ ديسمبر ١٩٧٨، وعندما لم يجدِ نفعًا العنف الذي أمل فيه المتطرفون المعادون للحكومة، قصد رجال الدين الشيعة إلى إجراء تسجيلات صوتية باحترافية عالية تحوي صرخات وأصوات أعيرة نارية تقذف وأصوات أخرى عنيفة، ثم ألقيت تلك التسجيلات على المسامع من خلال مكبرات الصوت من مآذن المساجد! وفي غضون بضع ساعات، طفق مراسلو هيئة الإذاعة البريطانية، المفترض أنهم في قلب المشاهد، يذيعون في النشرات الإخبارية إلى كل أنحاء إيران بيانات عن مظاهرات ٢ ديسمبر، وذلك على وقع ما يقوم به الملالي من استخدام المعدات الإلكترونية في إحداث الضوضاء الخلفية. وفي اليوم

التالي، وجد الناس بعد خروجهم من منازلهم الأرصفة وقد لطخت ببقع حمراء حيثما جرت المسيرة، فقد صب الملالي الصبغة الحمراء في الشوارع للإيهام بأنها دماء المتظاهرين.

على أن مثل تلك الأساليب، التي كانت فعالة للغاية مع الشعب الإيراني، لم يكن للملالي الأميين التوصل إليها، وهذا أمر معروف لدى الجميع.

وفي هذا الوقت، صدر الأمر النهائي في واشنطن بالمضي قدمًا في طريق تنحية الشاه وإحلال آية الله مكانه. وفي نوفمبر، أعلنت إدارة كارتر أنها عينت جورج بول عضو اللجنة الثلاثية وجمعية بيلدربيرج (Bilderberg Society) على رأس فرقة عمل خاصة تابعة لمجلس الأمن الدولي في إيران والمحيط الفارسي. وحينئذٍ سلم بول- المعروف منذ طويل بأنه من المناهضين للشاه والمؤيدين لآراء مافيا حقوق الإنسان- النعي المقدم للنظام البهلوي، موضحًا أن الولايات المتحدة جعلت تتوقف عن دعمها للشاه وتجري اتصالات مع المعارضة.

وفي بدايات يناير ١٩٧٩، وأثناء اجتماع زعماء دول الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا الغربية في جواديلوب، أعلنت الولايات المتحدة إلى حلفائها رسميًا أنها لم تعد تعمل على بقاء الشاه في السلطة، فبوجود "الخيار الإسلامي" في قلب الأحداث، صار الأمر مسألة وقت فحسب لإقصاء الشاه.

وحين أخذ شاه إيران يتأمل في سلسلة الأحداث التي أتت على نظامه كتب في مذكراته "إجابة للتاريخ" (Answer to History) يقول: "لم أكن أعرف ذلك حينئذٍ، ربما لم أكن أريد أن أعرف، ولكن الأمر أصبح واضحًا لي الآن، لقد أراد لي الأمريكيون حقًا أن أزاح بعيدًا عن السلطة. وهذا بالتأكيد ما كان يريده مناصرو حقوق الإنسان في وزارة الخارجية، وقد سبقهم إلى ذلك بوضوح السكرتير فانس. وأقول "بوضوح" لأنني لم أكن أخبر بأي شيء على الإطلاق، فلم يبلغ علمي أي شيء مثلاً عن الشقاق الحاصل في إدارة كارتر بسبب السياسة الإيرانية، ولا أي شيء عن آمال بعض المسؤولين الأمريكيين التي علقوها رهينة بوقوع "الجمهورية الإسلامية" لتكون لهم حصنًا منيعًا أمام الغزوات الشيوعية.

"خبروني بما كان لي أن أفعله مثلاً حيال القرار المفاجئ لتلك الإدارة باستدعاء وكيل وزارة الخارجية السابق "جورج بول" إلى البيت الأبيض كمستشار في الشؤون الإيرانية؟ لقد كنت أعرف أن بول ليس بصديق لنا، وكنت أدرك كذلك أنه يعمل وفق تقرير خاص حول إيران. ولم يخبرني أحد أبدًا بالمناطق التي من المقرر أن يغطيها التقرير، فضلاً عن نتائجه. لقد قرأتها بعد عدة شهور في المنفى وحينها تأكد لي أسوأ ما كنت أخشاه. لقد كان بول من بين هؤلاء الأمريكيين الراغبين في إقصائي عن بلدي نهائيًا."ا.هـ.

ولما بلغ الأمر ذلك المبلغ، أصبح الدور الفرنسي حاسمًا. لقد كانت فرنسا وألمانيا الغربية على دراية تامة بأن نظام الخميني سوف يثير أشد القلاقل في الخليج الفارسي ويهدد الإمدادات النفطية الخاصة بهم. وكذلك هم

أدركوا أن جيش الولايات المتحدة، متخذًا الخميني في ذلك ذريعة، سوف يبدأ في الضغط بهدف التوسيع من تواجده في منطقة المحيط الهندي، وهو ما قد يخل بميزان القوات الإستراتيجية العالمية، وذلك من شأنه، في رأي باريس وبون، أن يؤدي إلى نشوب حرب عالمية ثالثة. لقد كان الخميني في نظر فرنسا أداة بالغة التقلب يصعب اللعب بها، وهو بذلك قد يصير السبب الرئيس في تفسخ الشرق الأوسط بأكمله.

لقد ارتكبت فرنسا بالفعل خطأً فاحشًا كان لا بد لرئيسها جيسكارد ديستان أن يندم عليه. ذلك أنه حينما وضعت العراق الخميني المجنون رهن الاعتقال في النجف، منحته فرنسا حق اللجوء إليها دون مسوغ لذلك. وجاءت التقارير بعد ذلك لتقول إن هذا القرار الفرنسي إنما كان بتوجيه من الشاه نفسه الذي أخبر جيسكارد أن باريس ربما تكون أفضل لما توفره من قدرة على السيطرة على أفعال الخميني إن هو عاش بالقرب منها بالنظر إلى ما يمكن أن يحدث إن هو أوى إلى أحد الأقطار العربية مثل ليبيا. ومهما يكن من سبب، سمحت الحكومة الفرنسية للخميني، من أجل مصلحة ذاتية باعتبار ما، بأن يتجه إليها ليقيم في نوفل لوشاتو بالقرب من باريس.

وهناك أصبح آية الله أحد مشاهير العالم بين عشية وضحاها حيث كان يدلي بأحاديث يومية مع الصحافة العالمية، وكان ذلك في أكتوبر ١٩٧٨. ولم تضع فرنسا في الحسبان ذلك الأثر البالغ لوسائل الإعلام الإلكترونية.

وعندئذٍ أخذ الأمريكيون والبريطانيون يترددون في أفواج لا تتوقف على قصر الخميني لوضع الترتيبات الأخيرة لنقل السلطة إليه. وكان من بين نزلاء الخميني "رامزي كلارك"، وزير العدل الأمريكي الأسبق، و"جوزيف مالون"، الرئيس الأسبق لوحدة تابعة للمخابرات المركزية الأمريكية في بيروت والذي كان يتمتع بعلاقات وطيدة مع المخابرات البريطانية، و"زيجمونت ناجورسكي"، عضو مجلس العلاقات الخارجية بنيويورك، وكثير غير هؤلاء.

وبدا أن السيناريو الأنجلو أمريكي لتمزيق الشرق الأوسط عصي على الإيقاف. ولكن فرنسا وحلفائها سعوا لإدراك الفرصة الأخيرة. وفي ٦ يناير عين الشاه "شهبور بختيار"، الذي كان عضوًا مرموقًا في الجبهة الوطنية، كرئيس للوزراء.

واعتبرت حكومة بختيار الأمل الأخير لتفادي الفوضى في إيران. وقد كان للدكتور بختيار نفسه علاقات طيبة مع فرنسا، فضلاً عن المكانة السامقة التي كان يتمتع بها بين المواطنين الإيرانيين. وكان قد سجن في عهد الشاه لدوره في المعارضة الديمقراطية، ولكن لم تكن له أي ارتباطات مع رجال الدين الرجعيين. وأثناء الحرب العالمية الثانية، قاتل في صفوف القوات المسلحة الفرنسية الحرة ضد النازيين، وابنه اليوم عضو عامل في جهاز المخابرات الفرنسية. لقد أصبحت الآن مسؤولية بختيار أن ينظم أمره لتحقيق إجماع وطني يحمي صحة العقل

العام ورجاحته من ملالي القرون المظلمة ويحول دون انزلاق السلطة إلى أيديهم. ونظرًا لأنه لم يكن في وجهة نظر أحد دمية في يد الشاه يلعب بها، فإنه إن استطاع أن يصلح من شأن الحكومة، ربما يصح حينئذٍ إيقاف الخميني عن بلوغ مقصده.

لقد كانت فرنسا وحلفاؤها في أوروبا الغربية على رغبة بتقديم المساعدة.

عندما قفز تشارليز ديغول، في عام ١٩٤٠، في طائرته المتواضعة للذهاب إلى لندن، فإنه لم يكن مقتنعًا على الإطلاق بأنه سيدرك النجاح"، هكذا صرح بختيار في لقاء صحفي عقيب تشكيله لمجلس الوزراء مباشرة.

وقبل عدة أسابيع كان بختيار قد انضم إلى قوى "داريوش فروهر"، وهو عضو آخر في الجبهة الوطنية، وهي مجموعة المعارضة من غير رجال الدين التي أسسها "محمد مصدق" في فترة الأربعينيات. وكان فروهر قد استدعي لدعم جهود رئيس الوزراء صديقي في تشكيل مجلس للوزراء في أواخر يناير، ولكن هذا الجهد باء بالفشل، ومن ثم أحيل الأمر إلى بختيار. وفي ٣ يناير في الولايات المتحدة، حث "ليندون لاروش" حكومات العالم على توجيه جميع دعمها إلى جهود بختيار لتشكيل حكومة مؤسسات.

وقد أظهر بختيار خلال الأسابيع الخمسة التي خدم خلالها كرئيس للوزراء شجاعة كبيرةً وتصميمًا على منع إيران من أن تسقط في هاوية الخميني. ونتيجة للجهود التي قام بها في هذا الشأن، فصله رئيس الجبهة الوطنية منها، وكان يدعى "كريم سنجابي"، وهو رجل أخرق انتهازي قرر مبكرًا أن بختيار لن يكون له من نصيب في النجاح، ومن ثم سافر إلى باريس ليوقع على معاهدة مع الخميني (وقد عين سنجابي لمدة وجيزة فيما بعد، كنوع من المكافئة له، وزيرًا لخارجية الخميني إلى أن أقيل من منصبه هذا ليحل مكانه يازدي). لقد سخر بختيار من أخطاء سنجابي وناشده العودة إلى الجماعة السياسية المشتركة وإنهاء العلاقة مع الخميني. "إذا قبل كريم سنجابي، الذي فصلني من مدة وجيزة من الجبهة الوطنية بأسلوب يدعو إلى السخرية، منصب رئيس مجلس الوصاية على العرش، فإن الوظيفة في انتظاره"، ولكن سنجابي لم يكن ليوافق على ذلك.

وسعى بختيار كذلك إلى إبرام اتفاق مع الشاه بشأن تولي مقاليد القوات المسلحة. ولكن الشاه كان يكره أن يمنح بختيار التحكم الكلي في الجيش، ولذا طلب الشاه إليه أن يحتفظ بالمنصب الصوري كرئيس للأركان. ولتقوية موقفه من ناحية القوات المسلحة، طلب بختيار إلى الجنرال "فيريدون جم"، رئيس هيئة الأركان المشتركة السابق الذي كان على شقاق مع الشاه منذ سنوات، أن يعود إلى إيران ليتولى وزارة الدفاع، نظرًا لما كان يحظى به من احترام بالغ في صفوف القوات المسلحة من شأنه أن يساعد بختيار في كسب تأييدهم له.

وما إن جرى التصديق على حكومة بختيار من البرلمان حتى شرع في تنفيذ سلسلة من الإجراءات الإصلاحية. وكان من بين تلك الإصلاحات التأميم الكلي لجميع المصالح والامتيازات النفطية التي تتمتع بها بريطانيا في إيران، وإيقاف العمل بالأحكام العرفية، وإلغاء البوليس السري والسافاك، وانسحاب إيران من

منظمة الحلف المركزي (حلف بغداد)، وإعلان أنها لم تعد "الدرك الخليجي"، وكذلك إقالة "أردشير زاهدي" من منصبه كسفير لإيران في الولايات المتحدة.

وقصة زاهدي هذا هي حقًا قصة غريبة. فرغم تعيين زاهدي كمبعوث للشاه لدى واشنطن، وبعدما عاد إلى طهران، ظل طيلة الشهور الأخيرة السابقة على الثورة ملازمًا للشاه. وقد ألمح حينها كثير من المعنيين، بمن فيهم سفير إيران السابق لدى الأمم المتحدة "فريدون هويدا"، إلى أن زاهدي جزء أصيل من مؤامرة الخميني، حيث كان يستغل منصبه في تضليل الشاه بالمعلومات الزائفة. وأما إن كان الشاه يثق فيه فهذا أمر غير واضح، غير أن المؤكد أن زاهدي كان يهاتف يوميًا، وأحيانًا مرتين في اليوم، زبيغنيو بريجينسكي في واشنطن. ومن خلال زاهدي وردت أوامر الفصل من بريجينسكي بخصوص الشاه المحاصر.

وجعل ديفيد آرون، أقرب مساعدي بريجينسكي، في تلك الأثناء يسعى إلى تكوين فرقة عمل معنية بإيران تتضمن إجراء مشاورات عن قرب مع "الخبراء الإيرانيين" المؤيدين للخميني، وكان من بينهم مارفن زونس، وريتشارد كوتام، وجيمس بيل، وغيرهم. وقد عمل آرون أيضًا كموظف اتصال مع وزير الخارجية الأسبق "وارن كريستوفر" وكذلك مع "رامزي كلارك"، الرئيس الأسبق لكريستوفر.

وقد واجه بختيار نوعين من المعارضة. فمن ناحية، كان رجال الدين ومناصرو قوات الخميني من اليساريين الراديكاليين يشغبون ويحرضون دائمًا على بختيار، ومن ناحية أخرى كان الجيش المحافظ الموالي للشاه موالاة تامة يهدد بالقيام بانقلاب عسكري على بختيار لمصلحة الشاه. وكان الجنرالات- الذين كانوا يعانون من سذاجة في السياسة وقصور عن تصديق أن حكومة الولايات المتحدة تدعم الخميني فعلاً- ينتظرون بثبات وإخلاص صدور أوامر من الشاه و"الأمريكيين" لإحداث انقلاب، وهي الأوامر التي لم تحصل أبدًا. وفي الحين نفسه كان هناك من ينتظر التحرك في صف الخميني.

كان بختيار يجري مفاوضات دؤوبة لا تتوقف أملاً في تشكيل ائتلاف فاعل يستطيع به دعم نظامه، وحتى اللحظة الأخيرة كانت هناك فرص محتملة لنجاحه. وقد أظهر آية الله الجليل "شريعتمداري" علامات تدل على أنه ومعه الملايين من أتباعه على استعداد لدعم بختيار كرئيس للحكومة الانتقالية، وكذلك وافق بعض أعضاء الجبهة الديمقراطية على ذلك، فضلاً عن تزايد عدد رجال الجيش المؤيدين لهذا التوجه.

"إذا استولى الكهنة على إيران، فإنها ستعود بذلك إلى عهد العصور المظلمة"، هذا ما قاله بختيار.

"إنني لن أقبل بحال تمزيق هذه البلد. ولأكونن شديد القسوة مع أي شخص يهدد وحدة إيران. وإذا أعطيت مهلة لبضعة أسابيع، ولتكن شهرين مثلاً، من الهدوء النسبي فإنني أستطيع أن أدير عجلة الإنتاج الصناعي وإبرام صفقة جديدة مع جميع المضربين"، وبهذا صرح وقتها.

"إذا طلب إلي الخميني أن أستقيل، عساه بذلك يريدني أن أقول له "حظًا سعيدًا!"، قال ذلك متحديًا.

ولكن الائتلاف الذي كونه كان قد بدأ في الانهيار بالفعل، فقد رفض وزير دفاعه، الجنرال جم، المنصب وعاد إلى لندن معتقدًا أن الجهد الذي يبذله بختيار محكوم عليه بالفشل. وأما من سواه من الوزراء، بمن فيهم وزير العدل، فقد قدموا استقالتهم.

وفي باريس رفض الخميني أي تعاون مع حكومة بختيار، ودعا إلى تنظيم مظاهرات حاشدة في الشوارع ضده، وهكذا أخذت الفوضى تسود وتنتشر. وفي خطوة معارضة لما نصحه به كل من معه، عاد الخميني إلى إيران في ١ فبراير وسط ترحيب صاخب من أتباعه في مذهبه. وفي غضون ساعات معدودة، صرح الخميني بأن حكومة بختيار غير شرعية، لينادي بعدها إلى تشكيل حكومته الخاصة من الملالي المجانين ومستشاريه من أمثال يازدي وقطب زاده وغيرهم.

وقبل عودة الخميني إلى إيران مباشرة، وصل أحد المستشارين إلى طهران للمشاركة في المظاهرات المناهضة لأمريكا، إنه رامزي كلارك. لقد أقبل يسير تحت لافتات مكتوب عليها "الموت لأمريكا!"، ليصرح بعدها كلارك، وهو المبعوث الخاص لإدارة كارتر، بدعمه الكامل للخميني.

ومن طهران اتجه كلارك إلى باريس لمقابلة آية الله. وبعد الحديث الذي دار بينهما، خرج كلارك ليدلي بتصريح مدهش في التاريخ الأمريكي: "يأمل آية الله الخميني وأنا معه أن يحترم الشعب الأمريكي والرئيس كارتر إرادتنا، وألا تتدخل الولايات المتحدة في الأمر سواء من خلال الجيش أو المستشارين الأمريكيين أو جهاز المخابرات المركزية الأمريكية أو دعم بختيار، وأن تدع الأمة لتقرر مصيرها كيفما تشاء."

وفي ٩ فبراير، وفي غضون ما يزيد على أسبوع بقليل بعد قدوم الخميني إلى طهران، نجح بختيار تقريبًا في إبرام اتفاق مع "مهدي بازركان"، رئيس حكومة الخميني الانتقالية. وقد كان رجلاً معتدلاً بعض الشيء يتمتع بعلاقات قوية مع جماعة الإخوان المسلمين رغم ذلك، ولذا توصل بازركان إلى اتفاق مؤقت مع بختيار لإيقاف الثورة وإيجاد نوع من حكومة الوحدة الوطنية.

ومع ذلك، وفي نفس هذا اليوم، بدأ أول عصيان مسلح منظم في إيران في قاعدة جوية خارج طهران. وفجأة سيطر عصبة من فنيي القوات الجوية على مستودع كبير للأسلحة. لقد وضعت بأيدي الحشود الهائجة عشرات الآلاف من الأسلحة الآلية.

وخوفًا من أن ينتشر العصيان، أمر بختيار القوات الجوية بقصف مستودع ضخم آخر يحوي ٢٠٠,٠٠٠ بندقية عادية وآلية، ولكن القوات الجوية رفضت تنفيذ الأمر. وهنا أمر بختيار الجيش الموجود بالشوارع بإخماد الثورة، ولكن الجيش لم يتحرك. لقد شلت حركة طهران، فالحشود المسلحة تحارب قوات الجيش في أرجاء المدينة والدولة كلها، ومع ذلك لم يخرج أي قائد من الجيش ليوجه القوات بأوامره!

عندئذٍ اجتمعت هيئة الأركان العامة المشتركة والقيادة الكلية لأفرع القوات المسلحة الإيرانية لمناقشة الأزمة. وبعد ذلك، وفي صدمة بالغة للعالم، خرج القادة ليعلنوا أن القوات المسلحة الإمبراطورية سوف تظل على "الحياد" بالنسبة لجميع أطراف الأزمة! وقد جاء الإعلان مذيلاً بتوقيع رئيس الأركان، الجنرال "غاراباغي".

لقد فرض القرار بقوة ضارية. وكان يعني إصدار هذا القرار في الحقيقة أن القوات المسلحة قد انسحبت من المعركة، وأمرت بالعودة إلى ثكناتها. وعلى ذلك أُسلمت طهران وغيرها من المدن الإيرانية لتصبح أسيرة في أيدي الحشود "العابدة" للخميني. وزد على ذلك أن أي ممانعة لقرار الجيش كانت عقوبتها الإعدام العاجل، ذلك أن مجموعة من الأفراد التابعة للجنرال عبد العلي بدري ورفاقه كانت قد عارضت مرسوم غاراباغي وشرعت في وضع خطط لإحداث انقلاب ضد قوات الخميني لحفظ النظام، فما لبث غاراباغي بعدها أن أمر ضباطه برميهم ومن تحالف معهم بالنيران دون ذرة من شفقة!

وفي جميع أرجاء طهران، لقي عشرات من الضباط مصرعهم على يد فرق الاغتيالات التي كانت في قبضة غاراباغي والجنرال فردوست.

وكان قائد القوات الجوية الجنرال حسين ربيع من بين العوامل التي كان لها نصيب سوء في الأحداث، فرغم ما كان يذاع عنه من أنه أحد الموالين المتعصبين للشاه، فقد جاء في الساعات الحاسمة من ٩-١١ فبراير ليعلن فجأة أنه قد فارق صفوف الجيش "لينضم إلى الثورة." وبحسب ما ذكر حينها أن الجنرال ربيع نال وعدًا بنجاته ومساعدته على مغادرة البلاد في مقابل تعاونه في تأمين المطارات والمجالات الجوية للخميني؛ غير أنه لم يكد ينسرب وقت قليل بعدها حتى ذاق وبال أمره وكانت عاقبته أن رمي بقاذف آلي حتى الموت بعد دقائق من المحاكمة الصورية.

وفي غضون ٤٨ ساعة من بعد ذلك، قتل ما يزيد على ٣٥٠ ضابطًا من ذوي الرتب العالية بأيدي فرق الاغتيال المحترفة. لقد كانت أسماؤهم مطبوعة على نحو ظاهر جدًا في أحد أجهزة الكمبيوتر الموجودة بمقر الجيش، وهو الجهاز الذي كان يكشف أي فرد في رتبة قيادية سواء في التحكم اللوجيستي أو الاتصالات أو الوحدات المتحركة. لقد أبيد جميع من رفضوا التعاون مع "الثورة".

واندهش خبراء المجال العسكري لما قد رأوه من سهولة تمزيق وشل حركة القوات المسلحة التي كان قوامها ٣٥٠,٠٠٠ فرد. وقد ظهر في تلك الأثناء اسم تكرر كثيرًا، ألا وهو الجنرال "روبرت إي هويسر"، التابع للقوات الجوية الأمريكية.

وكان هويسر الرجل الثاني في قيادة حلف الناتو الذي يقع مقره في بروكسل تحت قيادة أليكساندر هيج. وقد أرسل هويسر إلى إيران في بداية يناير، قبل أيام قليلة من اجتماع جوديلوب الذي أخبر فيه كارتر ألمانيا

الغربية وفرنسا أن الولايات المتحدة قد قررت التخلص من الشاه. وكان مقررًا للزيارة أن تستمر لثلاثة أيام فقط، ولكن هويسر ظل في إيران حتى بداية شهر فبراير، أي ما يزيد على شهر من بعد وصوله.

وفي الفترة ما بين ٣ يناير حتى ٤ فبراير، اعتاد هويسر على الالتقاء بكبار الجنرالات في قيادة القوات المسلحة يوميًا. لقد كان الضغط يتنامى في إيران. وفي ١٦ يناير غادر الشاه إيران في "إجازة" عازمًا على عدم العودة. وكان الجيش قد وقع في ضيق وحيرة من أمره بسبب وجود رئيس الأركان في خارج البلاد. وذهب الشاه إلى مصر ثم المغرب، وفي كلا المكانين، وبحسب ما ورد من تقارير، طلبت قيادة الجيش من الشاه وألحت عليه أن يصدر أوامر بالتحرك ضد الخميني، ولكن الشاه رفض إعطاء تلك الأوامر (وقال الشاه فيما بعد إنه كان ينتظر أخذ الإذن من واشنطن لمواجهة الخميني مباشرة، وهو ما أثار حفيظة الإيرانيين الذين فهموا الأمر على أن الشاه يعترف صراحة في النهاية على أنه كان دمية تلعب بها واشنطن).

وأخبر الجنرال هويسر، الذي كان على اتصال دائم مع بريجينيسكي، الجنرالات بأنهم لا بد أن يمنعوا إغارة الجيش على الخميني بصرف النظر عما يحدث. وأما إذا فعلوا فإن الجيش الأمريكي، كما قال هويسر، سوف يتنكر لشرعيتهم ويمنع عنهم جميع إمدادات الأسلحة وقطع الغيار، بل "وستقطَّع أرجلهم"، بحسب ما قيل لهم.

وبذلك لم يحبط هويسر انقلابًا واحدًا، وإنما أحبط العديد من الانقلابات التي كانت تراد. وكانت وظيفته الرئيسية أن يؤكد للجنرالات أنه عندما تحين اللحظة التي تكون فيها الحكومة المدنية عاجزة عن الصمود أمام قوى الثورة، فإن الولايات المتحدة سوف تدعم الجيش عندئذٍ ليتولي مقاليد إيران. وعندما قنع الجنرالات بهذا العهد، أوى كثير منهم إلى جانب العزلة والانتظار؛ ولذلك عندما خرجت الحشود المسلحة إلى الشوارع فإنهم لم يفعلوا أي شيء حيالهم.

"لقد فعل فيهم هويسر فعلته"، هذا ما قالته صحيفة "واشنطن بوست" نقلاً عن مصدر، في إشارة إلى قيادة الجيش الإيراني. "لقد استخدم معهم مجموعة من الحيل الماكرة." وكذلك مما قاله أحد الجنرالات الإيرانيين التابعين للجنرال "خسروداد"، الذي قيل إنه كان من بين المخططين لإحداث انقلاب، "لقد رأيت ذلك على وجه خسروداد حينما خرج من أحد الاجتماعات. لقد بدا وكأنه جندي دني الرتبة." وقد أعدم خسروداد فيما بعد على يد إحدى العصابات التابعة للخميني.

وظن بعض الجنرالات على ضوء ما ذكره هويسر أن الولايات المتحدة لم تكن تعتقد أن الشاه يمكن أن يعود مرة أخرى، وأن إدارة كارتر كانت تسعى إلى إقامة علاقة بين رجال الدين والجيش. ومن المحتمل أن الجنرال غاراباغي قد شجع على ذلك الاعتقاد بتأييده لعقد مفاوضات مع معسكر الخميني.

غير أن المؤكد شيء واحد، وهو أنه إن لم تكن المهمة التي قام بها الجنرال هويسر، ما كان للخميني أن ينتزع السلطة دون أدنى مجهود كما حدث. وإذن لكانت الأمة الإيرانية على أعتاب حمام من الدماء جراء تلك

المظاهرات شديدة الضراوة، واحتمال نشوب حرب أهلية. وفي نهاية المطاف، وبحسب ما يعتقده كثير من الإيرانيين وغيرهم من المحللين، أنه لو تم ذلك لكانت قد هزمت القوات الأكثر تعصبًا في معسكر الخميني، ومن ثم تجبر المعتدلة منها على التسوية، ربما من خلال الاتفاق بين بختيار وبازارجان. ووفقًا لآراء ضباط إيرانيين كبار سابقين، لكان من الممكن حينئذٍ اغتيال الخميني على الفور من قبل قسم المخابرات العسكرية، ومن ثم يدب التفرق بين أتباعه.

ولكن ذلك لم يحدث أبدًا. وبدلاً من ذلك، رمي بالنيران– من بين ما يقارب تسعة عشر إلى عشرين جنرالاً وقعوا إعلان الحيادية في ٩ فبراير– على الأقل عشرة جنرالات على يد قوات السافاما والحرس الثوري التابع للخميني خلال الأسابيع التي أعقبت الثورة، بينما يقبع كثير غير هؤلاء في السجن في إيران. ولم ينجُ إلا قليل منهم، وهم فردوست الذي قيل إنه عين رئيسًا لجهاز السافاما تحت حكم الخميني، وغاراباغي الذي ظل يلعب حتى صيف ١٩٨٠ دورًا مهمًا داخل إيران مع القوات المسلحة التابعة للخميني، والأدميرال كمال حبيب الله الذي فر إلى خارج إيران بعد بضعة أشهر من الثورة، ولكن نقل أنه ظل على اتصال مع جيش الخميني من الولايات المتحدة، وكذا الجنرال طوفانيان، الذي يعيش الآن متخفيًا في الولايات المتحدة؛ وأما الآخرون فقد قتلوا.

هذا ولم يفصح الجنرال هويسر، الذي أعيد تعيينه في قاعدة سكوت الجوية بولاية إلينوي قائدًا للجسر الجوي العسكري، عن تفاصيل المهمة التي أداها لأي أحد.

لقد أحسن رئيس الوزراء بختيار وصف نظام الخميني بعد عدة أيام من خلع الحشود الثائرة له حين قال " الخميني رجل جهول حقود هدام ساعٍ في الخراب. وحاشيته مرتع حقيقي للحيوانات يضم أناسًا الأصل فيهم الشبهة والريبة. وإن شطر الناس الذين يصيحون ضدي في الخارج أجهل من الدواب، وبدلاً من أن يرتادوا دور العبادة، يلزمهم أن يذهبوا إلى المدارس أولاً. وما فعله الخميني في أسابيع قليلة قد فاق في الدمار ما فعله نظام الشاه في خمس وعشرين سنة."

ولكن ما سيفعله الخميني في الأشهر القليلة القادمة سوف يصيب العالم بنكبة تذهل من هولها العقول حقًا.

(٣)

خيانة في واشنطن

في الفترة ما بين شهري نوفمبر ١٩٧٩ وأبريل ١٩٨٠، صار الحديث الذي يشغل العالم كله في أيامه ولياليه هو قضية اختطاف ثلاثة وخمسين مواطنًا أمريكيًا كرهائن على يد إحدى العصابات الإجرامية الإيرانية في طهران. ولم تتخذ أي حكومة في العالم أي قرار مهم أثناء تلك الشهور الخمسة دون النظر بعناية إلى التقارير الأخيرة المعنية بالأوضاع في طهران – ابتداءً من الاتحاد السوفيتي وأوربا الغربية وحتى العالم العربي واليابان والدول النامية الرائدة. وعندما أخذ الموقف يزداد سوءًا، أصيب العديد من القادة السياسيين في مختلف أنحاء العالم بالشلل التام وشرعوا في إعداد العدة للمواجهة وربما لحرب عالمية ثالثة؛ وعندما تحسنت الأمور شيئًا قليلاً، جعلوا ينظرون على وجل إلى المبادرات الممكنة في المجالات الأخرى التي ظلت عالقة لمدة طويلة. لقد كان كل شيء مرهونًا بالأزمة القائمة بين الولايات المتحدة وإيران. لقد كانت حقًا تمرينًا متكاملاً في إدارة الأزمات العالمية.

حكومة واحدة من بين حكومات العالم على الأقل أصيبت بدهشة بالغة جراء اختطاف الرهائن، إنها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها. لقد حدث الاستيلاء على سفارة الولايات المتحدة بعلم تام ودعم كامل من إدارة الرئيس كارتر. لقد كان من المحتمل أن تتزايد عدوانية الخميني إلى أن تصل إلى حد الحسم الذي يمنح الفرصة للتحالف الأنجلو أمريكي لأن ينقض على أوروبا الغربية واليابان فينزل بهما هزيمة نكراء. ولم ينته التحالف الذي نشأ بين إدارة كارتر وجماعة الأخوان المسلمين باكتمال نجاح مهمة الجنرال هويسر، ولا هي ستتوقف باختطاف الهيئة الدبلوماسية الأمريكية.

وبعد استيلاء الخميني على السلطة، لم توقف الولايات المتحدة البرنامج المستمر للمساعدات العسكرية والتدريب ومبيعات الأسلحة إلى إيران. وبينما كان الخميني يصب اللعنات صبًا على الولايات المتحدة، ناعتًا إياها "بالشيطان الأكبر"، كانت الولايات المتحدة تشحن كميات كبيرة من الأسلحة إلى الحرس الخميني. لقد كانت طائرات هيركوليز وبوينج ٧٤٧ للنقل الجوي تتردد ذهابًا وإيابًا بين نيويورك وإيران، بعد أن تتوقف في مدريد بإسبانيا وجزر الأزور، حاملة قطع الغيار للمروحيات والطائرات الحربية الإيرانية الأمريكية الصنع. لقد كانت هناك حاجة ماسة لتلك المعدات في معركة إخماد القبائل الكردية المتمردة في المقاطعات الإيرانية الغربية. وقد حصل الاعتراف الرسمي بتلك الإمدادات من قبل وزارة الخارجية ونشرت أخبارها في مجلة "إجزيكاتيف إنتيليجنس ريفيو"، وجريدة "وول ستريت"، وجريدة "الفاينانشال تايمز اللندنية" وغيرها من الصحف.

ومع بدايات صيف عام ١٩٧٩ جعل أفراد المخابرات الأمريكية يتوجهون إلى إيران لتقلد المناصب الاستشارية في جهاز البوليس السري الإيراني، المعروف بالسافاما. وبحسب مصادر من وكالة المخابرات

المركزية الأمريكية، فإن مَجمَع المخابرات الأمريكية كان يشارك في التدريبات العسكرية لأنصار الخميني حتى قبل اندلاع الثورة، وقد استمرت العلاقة قائمة على ذلك بعد نجاحها فعلاً.

لقد شكل ديفيد آرون، عضو مجلس الأمن القومي، بالتعاون مع وارين كريستوفر ورامزي كلارك، فريقًا يتألف من ٦٠ عميلاً للمخابرات المركزية الأمريكية دخلوا إيران في يناير ١٩٧٩، بالتزامن مع قدوم الجنرال روبرت هويسر، للمساعدة في تمهيد السبل الموصلة إلى انتقال السلطة إلى قبضة الخميني.

وعلى الجانب الإيراني، كانت الشخصية المبهمة التي تولت مهمة الإشراف على تأسيس الحرس الثوري الإيراني وتفكيك القوات المسلحة الضخمة هو "مصطفى شمران"، وهو أحد المستشارين الذي تلقوا تدريبهم في الولايات المتحدة تمامًا مثل يازدي.

إن الاستشارات العسكرية وتوفير الإمدادات شيء واحد، وأما الاشتراك في اختطاف الدبلوماسيين الأمريكيين فشيء مختلف عن ذلك تمامًا. ومن الصعب تصديق أن مسؤولي الولايات المتحدة ذوي المناصب القيادية ربما كانوا يخاطرون بحياة الأمريكيين، بل والسلام العالمي، على هذا النحو البالغ الخطورة من أجل القيام بخديعة سياسية!

ولكن علينا وضع هذا الأمر في الحسبان: فبحلول سبتمبر ١٩٧٩ أصبح من الواضح أن فرنسا وألمانيا الغربية وحلفائهم لا ينوون الإذعان للضغط الأنجلو أمريكي، بل كانوا عازمين على المضي قدمًا وسع طاقتهم تجاه تحقيق النظام النقدي الأوروبي. ورغم التهديدات الخفية والابتزاز من قبل لندن وواشنطن، أصدرت أوروبا الغربية إعلانها الخاص بالاستقلال وانكبت على تشكيل تحالف يضم العالم العربي وسائر دول الأوبك والهند والمكسيك والاتحاد السوفيتي للتوافق حول إستراتيجية يكون شعارها في الواقع: السلام من خلال التنمية.

وباصطناع أزمة زائفة في إيران، اعتقدت إدارة كارتر أنها تستطيع استغلال الصدمة العالمية المتخلفة عن تلك الأزمة في الذهاب إلى حلفائها وطلب إخضاع إرادتهم المستقلة للمخاوف الواسعة التي يهتم لها "حلف الناتو". وكيف يكون الحال إذن والأمر أن القطع البحرية للولايات المتحدة قد طفقت تتجه إلى المحيط الهندي بالتزامن مع الاستعداد التام لصفوة القوات الجوية الأمريكية، وتهديد الولايات المتحدة بشن حرب عالمية ثالثة بإرسال جنود إلى إيران، واضطراب الوضع في الخليج الفارسي وتأثير ذلك في ثلثي إنتاج العالم من النفط الذي أصبح الآن على شفير الدمار، فكيف، والحال هذه، يستطيع الأوربيون رفض الإذعان لشريك الناتو الأكبر، واشنطن صانعة العلل. وقد دأبت إدارة كارتر منذ أن تولت مقاليد السلطة في ١٩٧٧ على السعي إلى اختلاق مبرر لإرسال قوات المارينز بغية السيطرة على حقول النفط في المملكة العربية السعودية والخليج. وفي نهاية المطاف، وباحتجاز الرهائن الأمريكيين، أصبح بمقدور الولايات المتحدة إشعال "حريق الرايخستاج" مرة أخرى.

ومن المحتمل أن خطة الاستيلاء على سفارة الولايات المتحدة قد نالت الموافقة النهائية، بعد وضع الخطط الطارئة ذات الصلة موضع التنفيذ، في أواخر سبتمبر ١٩٧٩. وما لبث بعدها أن عين مصطفى شمران، رئيس جهاز البوليس السري الإيراني المتدرب أصلاً في جامعة بيركلي، وزيرًا للدفاع في إيران.

وفي الشهر ذاته، جرى تطهير الشخصيات الإيرانية المعتدلة، مثل حسن نزيه، رئيس الشركة الوطنية للبترول، وإخراجها مما صار بعدئذٍ النظام المرشَّد الذي أصبح الآن تحت السيطرة الكلية للمجالس الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين السرية.

وفي ذاك الوقت كان زميل شمران وشريكه، وزير الخارجية إبراهيم يازدي، في نيويورك لحضور جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة. وكان يازدي، الذي تقمص مظهرًا مدروسًا لصاحب الأيديولوجية الثورية المسلم، يتيه بين جنبات قاعات الأمم المتحدة متباهيًا بسمعته الزائفة التي يدعيها لنفسه متشبعًا كذبًا بروح المتطرف المحموم والعدو اللدود "للشيطان الأكبر"، أمريكا.

ورغم ذلك، وفي أثناء خطبه الثورية التي ألقاها في الأمم المتحدة، فقد وجد يازدي الوقت المناسب في ٣ أكتوبر للقيام بزيارة ودية حارة لمجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، حيث ألقى كلمة ليلتقي بعدها بمسؤولي المجلس لساعات عدة.

وفي اليوم التالي، عقد يازدي اجتماعًا مغلقًا مع وزير الخارجية "سيروس فانس". وقد نقلت مجلة "فايننشال تايمز" اللندنية تقارير بعد ذلك في ٥ أكتوبر مفادها أن هذا الاجتماع قد تمخض عنه أن واشنطن أعطت أوامرها "باستئناف مد جسور جوية من الأسلحة إلى إيران على نطاق واسع"، بالإضافة إلى بحث مسألة إرسال "عدد محدود من الفنيين المعنيين" إلى إيران. وفي إيران، أوضح وزير الدفاع شمران أن إيران تسعى لاستقدام "مستشارين أجانب" للمساعدة في تدريب الجيش والحرس الثوري.

وهكذا بدأت الولايات المتحدة فيما بين ٣-٥ أكتوبر في تقوية تواجدها العسكري في الخليج الفارسي والمحيط الهندي. وقد أعلن البنتاجون في ٣ أكتوبر أنه يعمل على زيادة نشر قواته في المحيط الهندي. وفي اليوم نفسه، أعرب السلطان قابوس سلطان عمان، وهو الدمية التي أشرف البريطانيون على تدريبها، عن رغبة بلاده في وجود قواعد أمريكية على أراضيها "لحماية" الممرات البحرية المطلة على الخليج. وعلى الفور، وفي مقابلة صحفية غير معتادة، ألمح يازدي إلى أن إيران قد تدرس بعناية أمر تشكيل تحالف مع عمان لحماية المضايق! وقال يازدي إنه "لم يكن على علم" بوجود أي خطط من جانب عمان في هذا الشأن، ولكنه أردف على استحياء قائلاً بأن "رغبة إيران في التعاون" مع عمان في منطقة الخليج سوف "تعتمد على الظروف الجارية"، رافضاً التعليق بأكثر من ذلك.

لقد كانت واشنطن تحكم شيئًا فشيئًا من أواصر التعاون مع الثورة الإيرانية.

وفي غضون تلك الأيام، وفي مستهل أكتوبر، أجرى يازدي اتصالاً بصديقه القديم، رامزي كلارك. وبعد أيام قليلة، وفي ١٢ أكتوبر، أرسل وزير العدل السابق خطابًا وسم بأنه بالغ الأهمية إلى وزير الخارجية الإيراني. وكان هذا الخطاب بخصوص الجهود الجارية المبذولة من جانب ديفيد روكفيلر والدكتور هنري كيسنجر للحصول على موافقة لدخول الشاه إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج.

وقد نصح كلارك يازدي قائلاً: "من المهم جدًا ألا يهرب المستبدون ليحيوا في ثراء ورغد من العيش بينما تظل شعوبهم تتقلب بين ألوان من المعاناة. (إنني أحث) الحكومة الجديدة لإيران على السعي لتحصيل التعويضات نظير الأفعال الإجرامية والجائرة التي ارتكبها الشاه السابق، واسترداد الممتلكات التي سلبها الشاه وأسرته وشركاؤه بغير وجه حق من الشعب الإيراني".

ولم يسرب خطاب كلارك هذا إلى الصحافة إلى ما بعد الاستيلاء على السفارة الأمريكية في ٤ نوفمبر. وقد استخلص الدليل من ذلك على أن كلارك، وهو المبعوث الخاص، قد حرض الإيرانيين للاستيلاء على السفارة والإصرار على عودة الشاه إلى إيران.

وبعد أسبوع تقريبًا، أعلنت وزارة الخارجية أنها سوف تسمح للشاه المعزول بالقدوم إلى نيويورك لتلقي العلاج الذي يحتاجه.

وما كان لوزارة الخارجية أن تتخذ هذا القرار إلا تحت ضغط بالغ من كيسنجر وعائلة روكفيلر وأصحاب المصالح المرتبطين بهم. وبذلك سمح للشاه بالقدوم إلى نيويورك رغم التوجيه الرسمي من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والسفارة الأمريكية في طهران وغيرها من المصادر التي قالت إن دخوله إلى الولايات المتحدة سوف يتسبب في احتجاز الرهائن الأمريكيين.

وقد تواترت الأنباء المأخوذة من البرقيات الرسمية لوزارة الخارجية التي أطلقها نائب الكونجرس السيد جورج هانسن (ر-إيداهو)، والمؤرخة ابتداءً من أغسطس ١٩٧٩ حتى أواخر أكتوبر، بأن من المحتمل أن يحاول الإيرانيون الانقضاض على السفارة الأمريكية إذا سمح للشاه بالدخول إلى الولايات المتحدة.

وقد وردت حكاية في صحيفة "نيويورك تايمز" بتاريخ ١٨ نوفمبر نصها كالتالي: "لقد اتخذ القرار رغم الحقيقة التي تقول إن السيد كارتر وكبار مستشاريه السياسيين قد عرفوا منذ شهور أن السماح بدخول الشاه سوف يعرض الأمريكيين الموجودين بالسفارة الأمريكية في طهران لمخاطر شديدة. وقد أفاد أحد المعاونين بأن السيد كارتر تساءل في أحد الاجتماعات قائلاً:"عندما يضع الإيرانيون أيديهم على مواطنينا في طهران كرهائن، فبم تشيرون عليّ أن أفعله حينئذٍ؟"

وتابعت الصحيفة قائلة: "لقد تلقت الإدارة مرارًا وتكرارًا تحذيرات من وكالة المخابرات المركزية مفادها أن حضور الشاه إلى أمريكا قد يشكل ذريعة لاتخاذ أفعال شديدة العداء للأمريكيين، فضلاً عن اتخاذ إجراءٍ محتمل ضد السفارة الأمريكية هناك، وهو ما يذكرنا بما كان من أمر الانقضاض على السفارة في ١٤ فبراير".

وعقب وصول الشاه مباشرة إلى نيويورك في ٢٢ أكتوبر، بدأت إيران في التلويح بتهديدات بالغة الحدة ضد إدارة كارتر، بدأتها بالاحتجاجات التي نظمها عمال النفط لتصل إلى أشدها بالخطبة التي ألقاها آية الله الخميني بنفسه لعدة ساعات في ٢٩ أكتوبر. لقد صرح الخميني آنئذٍ بأن الواجب على إيران "أن توصد أبوابها في وجه الغرب"، ثم تابع في اهتياج قائلاً، "يجب علينا أن نطهر بلادنا من تلك العقول المغرمة بالأمريكيين". وأخيرًا، وفي ١ نوفمبر، نادى الخميني على الطلاب الإيرانيين قائلاً لهم "فلتجعلوها بكل ما أوتيتم من قوة هجمات واسعة تنالون بها من الولايات المتحدة وإسرائيل، عساها تجبر الولايات المتحدة هذه على إعادة الشاه الجائر المخلوع".

ورغم تلك الدلائل المتضافرة، لم يتخذ تدبير احتياطي واحد لحماية السفارة!

لقد سيطرت جموع الطلاب الإيرانيين على السفارة الأمريكية في إيران في ٤ نوفمبر. وقبلها بثلاثة أيام، عقد زبيغنيو بريجينيسكي اجتماعًا مريبًا في الجزائر مع وزير الخارجية الإيراني إبراهيم يازدي. ووفقًا لمصادر مخابراتية، وضعت في هذا الاجتماع الثنائي التفاصيل النهائية المتعلقة بعملية الاستيلاء على السفارة.

وبعد عودته إلى إيران، عمد يازدي مباشرة إلى الاجتماع مع القائم بأعمال السفارة الأمريكية "بروس لاينجين". وأثناء الساعات التي استغرقها الاستيلاء على السفارة، كان يازدي ولاينجين مجتمعين داخل مكاتب وزارة الخارجية الإيرانية. والآن، ورغم كونه رهينة بالاسم، كان بروس لاينجين لا يزال في اجتماع مع يازدي في المكاتب القديمة لوزارة الخارجية، حيث يستطيع استخدام آلة التلكس وغيرها من وسائل الاتصال الأخرى. هذا وقد أذيعت تقارير تفيد بأن لاينجين كان من المقربين لجماعة الإخوان المسلمين، من وقت أن كان سفيرًا للولايات المتحدة في دولة مالطا، وهي إحدى مقرات جماعة الإخوان المسلمين في المنطقة، وبخاصة تلك الموجودة في ليبيا.

وفي الأيام التالية، عين الرئيس كارتر "رامزي كلارك" مبعوثًا مطلق الصلاحية للبيت الأبيض إلى إيران، وهو نفسه رامزي كلارك الذي كان يسير، منذ أشهر قليلة ماضية، تحت لافتات مكتوب عليها "الموت لأمريكا" في طهران.

وباتخاذ الأمريكيين كرهائن، شرعت إدارة كارتر، بحسب المخطط الذي وضعته سلفًا، في تنفيذ سيناريو إدارة الأزمة العالمية.

وكانت الخطوة الأولى في إطار هذا المخطط هي إعلان كارتر تجميد جميع الأصول المالية الإيرانية في الولايات المتحدة وبنوكها، بما في ذلك فروع تلك البنوك في الخارج. وفي الحال، غرقت الأسواق المالية العالمية في بحار من الذعر، وهو ما جعل كبار المودعين المتعاملين بالدولار في أوروبا الغربية والولايات المتحدة– وبخاصة البنوك المركزية لدول الأوبك – تهرع إلى التراجع عن أي تعهدات إضافية.

وقد أعلنت إدارة كارتر أنها تسعى لاستصدار قانون "الصلاحيات الاقتصادية في الحالات الدولية الطارئة"، وهو القرار الذي علم اتخاذه بالفعل قبل أسبوعين من أحداث الاستيلاء على السفارة.

وقد ذكر راندي كو، مسؤول الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ (فيما) والمعين لدى وزارة الخزانة لمجلة "إجزيكاتيف إنتيليجنس ريفيو" ما يلي: "إن الوكالة تشارك في التخطيط العام... لقد أعدت الوكالة ما يلزم هذه الخطة الرامية إلى تجميد الأصول الإيرانية قبل أسبوعين من وضعها بالفعل، على أني قد قضيت الأسبوعين الماضيين منكبًا على الهاتف في محاولة للتعتيم على الشائعات التي تقول بأننا قد أعددناها بالفعل".

ويدل هذا الاعتراف على أن النخبة المالية الأنجلو أمريكية كانت على سابق علم بأن الأزمة الأمريكية الإيرانية سوف تندلع في نوفمبر، وهي لذلك قد اتخذت من قبل الإجراءات التي تضمن لها الحماية. وكان من بين هؤلاء المصرفيين "ديفيد روكفيلر"، وهو الذي كان مطلبه الدائم بالسماح للشاه بالقدوم إلى الولايات المتحدة السبب الرئيس في حدوث الأزمة في المقام الأول.

(وفيما بعد، كشف الأطباء المكسيكيون الذين تولوا علاج الشاه في المكسيك، وهم في حالة من الغضب، عدم وجود أي علة طبية على الإطلاق تستدعي منع الشاه من تلقي الرعاية الطبية المناسبة دون السفر إلى الولايات المتحدة).

ذلك على أن الاستيلاء على ٦ بلايين دولار أو ما يزيد عليها من الأصول الإيرانية في الولايات المتحدة كان له أثر بالغ في تقويض الثقة في الدولار وإنقاص قيمته كعملة عالمية للاحتياط النقدي. لقد أصيب سوق "اليورو دولار" بالشلل، وتوقفت معظم الإقراضات العالمية في انتظار إيجاد حلول لتلك المسائل القانونية المعقدة. وقد كان قرار وزارة الخزانة في إدارة كارتر بخصوص بعض الأمور غير قانوني بالمرة، نظرًا لما ترتب على ذلك من سوء أصاب فروع بنوك الولايات المتحدة الخارجية، وهي التي تقع في ظل القانون العالمي الاعتيادي تحت سلطة الدول المضيفة لها.

غير أن أسوأ نتيجة على الإطلاق كانت هي ذلك الأثر السيئ للإجراء الذي اتخذته وزارة الخزانة وما ترتب عليه من تخويف حكومات دول الأوبك من إجراء عمليات إقراضية طويلة المدى، في الوقت الذي كانت تسعى فيه ألمانيا الغربية وفرنسا إلى جذب تلك الودائع إلى الجهاز المالي المرتبط بالنظام النقدي الأوروبي. وقبل اندلاع الأزمة الإيرانية بشهر واحد، أعلن وزير الخارجية الفرنسي "جين فرانسوا بونسيه" في مؤتمر صحفي بالأمم المتحدة بأن "رؤيته" كانت هي أن يحل النظام النقدي الأوروبي محل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي كمركز للمعاملات المالية العالمية.

لقد بدت المطالبات الدائمة من جانب إدارة كارتر إلى أوروبا الغربية واليابان لحثها على فرض عقوبات اقتصادية على إيران وكأنها مطلب إلى حلفائها بقطع أعناقهم بأيديهم. غير أن هذا المطلب نجح في رفع حدة التوترات بين الأوروبيين والبلدان المنتجة للنفط، بما فيها المملكة العربية السعودية، وهي التي بدا لها احتمال حصول مواجهة اقتصادية بين دول أوروبا المتقدمة ودول الأوبك بما يشكل تهديدًا خطيرًا لمصالحها الذاتية.

ثانيًا، أعطت المواجهة الأمريكية الإيرانية لإدارة كارتر الذريعة التي كان ينشدها لتوسيع التواجد العسكري في منطقة الشرق الأوسط والمحيط الهندي. وفي غضون أيام من اختطاف الرهائن، كان قد أرسل أسطولاً من حاملات الطائرات الحربية الأمريكية ونحو ثلاثين قطعة بحرية إلى الخليج؛ وبهذا تحقق ترسيخ التواجد البحري الأمريكي في المياه القريبة منه؛ وزد على ذلك بدء المفاوضات بخصوص إنشاء قواعد عسكرية أمريكية في الدول الساحلية المطلة على المحيط الهندي مثل عمان والصومال وكينيا.

وبذلك أصبحت الخطط المحتملة لإيجاد موطئ قدم للقوات الأمريكية في مصر، مع تحصيل الدعم اللازم من إسرائيل، أمرًا قابلاً للتحقق. وكذلك صارت المملكة العربية السعودية وغيرها من دول المنطقة في عرضة لضغوط كبيرة للحاق بركب المجهود العسكري الأمريكي، وكذلك نال محور كامب ديفيد زخمًا جديدًا كوسيلة لبسط نفوذ حلف الناتو على منطقة الشرق الأوسط.

هذا على أن تلك الإجراءات لم يكن المقصود منها الإيرانيون. وربما كان للبنتاجون أن يأمر بشن ضربة عسكرية مباغتة على إيران، قد تتخذ شكل الاستيلاء على جزيرة "خرج" الإيرانية التي تحمل منها صادرات النفط، أو تفجير حقول النفط الإيرانية، أو فرض حصار بحري على الخليج الفارسي؛ أو حتى القيام بمحاولة يائسة لإنقاذ الرهائن. غير أن أي واحدة من هذه لم تكن لتثني الخميني عن غايته.

وبدلاً من ذلك، وبحسب آراء المحللين في ذاك الوقت، كان الهدف الأساسي من أي إجراء عسكري أمريكي هو خلق حالة من الارتباك بالقرب من مصدر ثلثي إنتاج العالم من الإمدادات النفطية، بل وربما إثارة موجة جارفة من الإرهاب الأصولي على امتداد دول الخليج العربي على يد جماعة الإخوان المسلمين.

لقد وضعت واشنطن نفسها موضعًا أسس له ببراعة بالغة بما يمكنها تقريبًا من فرض طلباتها على أوروبا الغربية واليابان. "حري بكم أن تنصاعوا لما قلناه لكم، وإلا فإننا سنوقف الإمدادات النفطية التي تصل إليكم،" تلك هي الرسالة التي بعثت بها إدارة كارتر إلى العواصم الأوروبية.

ولم تكن تلك الرسالة بغائبة عن أفهام النخبة الأوروبية. وفي ٢٨ نوفمبر تناول بالتحليل الكاتب "بول ماري دي لا جورس"- وهو من كانت أعمدته الصحفية تعكس في الغالب وجهات نظر القصر الرئاسي الفرنسي- الخيارات المطروحة للنقاش بخصوص الإجراء العسكري الأمريكي ضد طهران، وانتهى إلى أن أي من تلك الخيارات سوف يعني "خسائر فادحة لأوروبا واليابان تفوق مصاب إيران منها". وتابع قائلاً:"هؤلاء الذين يؤيدون تلك الحلول إما إنهم على دراية بما يفعلون أو هم لم يستوعبوا دروس هنري كيسنجر،" ثم حذر من احتمال اندلاع حرب عالمية من جراء هذا التدخل المريب.

لقد غدت الأزمة تصطلي شيئًا فشيئًا طيلة عدة شهور لتصبح على شفير المواجهة. وخلال الشتاء تسارعت خطى إعادة انتخاب الرئيس كارتر على نحو بالغ إلى أن وصل الحال بتيد كينيدي ليصبح كمن أصيب بدوار في الرأس مربك، بينما استغل كارتر أزمة الرهائن لمصلحته على أحسن ما يكون. وفي عشية الانتخابات الأولية

الحاسمة في نيو هامبشاير مثلاً، أعلن الرئيس عن مبادرة دبلوماسية تتضمن الأمم المتحدة والرئيس الإيراني الجديد المنتخب "بني صدر" بهدف تأمين إطلاق سراح الرهائن – ولكن هذا التسريح لم يكن ليحدث بطبيعة الحال.

وأخيرًا، وفي نهاية أبريل، تدهورت الأزمة الإيرانية إلى حد بلغ بها مشارف حرب عالمية ثالثة.

ومن هنا كانت عملية الإنقاذ العسكرية الأمريكية التي حدثت في إيران في ٢٤ أبريل مجرد خدعة ليس غير. ولكنها كانت خدعة أخذت بناصية الولايات المتحدة لتجعلها على مقربة من دائرة محرقة نووية حرارية.

ولم يكن احتمال شن غارة جوية خافيًا على أحد. وكان كبار رجال وكالات المخابرات المختلفة على توقع بأن تحاول القوات المسلحة الأمريكية القيام بمهمة إنقاذ أو إجراء انتقامي. وفي عددها الصادر في ٢٢ أبريل، ذكرت مجلة "إجزيكاتيف إنتيليجنس ريفيو" في مقال لها كتب قبل ستة أيام على الأقل من غارة ٢٤ أبريل أن إدارة كارتر "قد شرعت في سلوك طريق المواجهة النووية الحرارية مع الاتحاد السوفيتي بسبب إيران على غرار أزمة الصواريخ الكوبية، وهي المواجهة التي وقت لها أن تقع في الفترة ما بين أواخر أبريل و١١ مايو، وذلك لغرض ابتزاز أوروبا الغربية واليابان لإرغامهما على الإذعان للأوامر السياسية الأنجلو أمريكية".

وقد أُخبر رجال الدولة الأوروبيين دون مواربة أن كارتر وبريجينيسكي يرتقبون رد فعل أوروبا على التدخل الإيراني كنوع من "الاختبار للحلف الأطلسي". ووفقًا لمصادر في باريس وبون، أوضحت أوروبا الغربية أن أي إجراء عسكري أحادي من قبل واشنطن لن تنحصر نتيجته في حدوث كارثة إستراتيجية فحسب، بل إنه قد يؤدي إلى تدخل الاتحاد السوفيتي في إيران.

وقد أجاب بريجينسكي على ذلك بقليل عبارة قائلاً: "على أوروبا أن تسعى من الآن فصاعدًا على منع الحرب العالمية الثالثة،" بحسب ما ذكرته صحيفة ألمانيا الغربية "فرانكفورتر رونديسكو".

هذا وقد بدا الاتحاد السوفيتي على نفس المستوى من الوضوح في تهديداته. "إن واشنطن لا تريد تأجيج الصراع من جانبها مع طهران فحسب،" هكذا ذكرت صحيفة "برافدا" في عددها الصادر في ١١ أبريل. "وبالنظر إلى جميع جوانب المسألة نستطيع أن نخرج بحكم يؤكد على أن ما يجري إنما هو خدعة خطيرة تغامر بها الولايات المتحدة: ابتزاز إيران، ومعها حلفاء أمريكا نفسها الذين يعتمدون على الواردات النفطية من الخليج الفارسي، إلى جانب التهديد بالتدخل العسكري". إن هذه الإستراتيجية ، بحسب ما تقول الصحيفة "قد حيكت لوضع أوروبا الغربية واليابان في وضع الشريك المضطر للدخول في لعبة صممت أصلاً لتقوية الوضع المترنح للإمبريالية الأمريكية في الشرق الأدنى والأوسط". وقد اختتمت الصحيفة بقولها "إن إمكانية الحرمان من النفط الإيراني ليس لها من كبير صدى، وبخاصة في طوكيو وبون وباريس".

وقبل تدخل الولايات المتحدة مباشرة، أعلن زبيغنيو بريجينسكي بنفسه أن الاتحاد السوفيتي يؤهب جيشه استعدادًا لحدوث تدخل محتمل؛ وتابع قائلاً: "هناك تقارير جديرة بالتصديق تشير إلى أن الاتحاد السوفيتي يعزز

من قواته في المنطقة العسكرية بجنوب القوقاز على غرار ما يذكر بالاستعدادات التي اتخذها الاتحاد السوفيتي من قبل في شمال أفغانستان".

ومع ذلك، ورغم الخطر المحدق من نشوب حرب عالمية ثالثة، وجه الرئيس كارتر في منتصف أبريل تحذيرًا شديد اللهجة لأوروبا الغربية، وصرح قائلاً: "إنني أتوقع منهم الامتثال إلى العقوبات الاقتصادية والسياسية الموقعة على إيران"، وإلا سوف يتضمن رد فعل الولايات المتحدة "الوسائل العسكرية". وفي اليوم ذاته، قال نائب وزير الخارجية "وارين كريستوفر" في حديث تلفزيوني له على قناة "إيه بي سي" في برنامج "قضايا وإجابات" بخصوص أوروبا "إن واشنطن تنتظر منها أفعالاً لا مجرد كلمات".

وفي أوروبا، التقى وكيل وزارة الدفاع للسياسات "روبرت كومر"، وهو المهندس القائم على قوة الانتشار السريع، مع اللجنة العسكرية لحلف الناتو في بروسيلز لتقديم مجموعة من الطلبات الموجعة. لقد طلب "تهيئة" الأسلحة النووية والمعتادة ، وتجهيز القوات الاحتياطية، ومخزونات المواد الحربية، والاضطلاع بدور كبير في إتاحة الخطوط الجوية التجارية لعمل جسور التموين الجوية الممتدة إلى الشرق الأوسط. وبملخص العبارة، طلبت الإدارة الأمريكية إلى أوروبا أن تتخلى عن التزامها بسياسة "الانفراجة الدولية" واللحاق بكارتر في مهمة "الجهاد" في الشرق الأوسط، ولكن إجابة بون وباريس كانت بالرفض.

وقبل عدة أيام فحسب من الغارة على إيران، قدم وزير الخارجية "سيروس فانس" استقالته. "إننا لم نشرع بعد في أي هجوم على إيران. لقد كان لنا أن نشعل فتيل الحرب العالمية الثالثة،" هكذا قال فانس لأحد الأصدقاء. وانصياعًا لنصائح قلة قليلة من إدارة كارتر ومن يتبعونها من مؤيدي المفوضية الثلاثية مثل "جورج بول" و"أفيريل هاريمان"، تراجع فانس عن أمره بعد إقناعه بأن بريجينيسكي يميل إلى جانب الحرب.

وبعد ساعات قليلة تبين فشل الغارة واتضح، وبينما طفق العالم يفيق من صدمته بما فعلته الولايات المتحدة وما كان منها من قصور، أخذت الاتهامات تترا عليها حين ذاع أن العملية برمتها من أولها إلى آخرها كان قد خطط لها بين كارتر وبريجينيسكي من ناحية وبين نظام الخميني من ناحية أخرى.

ووفقًا لمصادر استخباراتية فرنسية، أن التفاصيل النهائية لغارة ٢٤ أبريل قد وضعت أثناء اجتماع عقد في باريس بين وزير الخارجية الإيراني "قطب زاده" و"مورفي"، السكرتير الأول لسفارة الولايات المتحدة في فرنسا. وفي هذا الصدد، اتهمت الإذاعة العراقية المملوكة للدولة هجوم الولايات المتحدة بأنه كان مجرد مسرحية هزلية تم إخراجها بالتعاون بين واشنطن وطهران". وعندما سئل السكرتير الصحفي للبيت الأبيض "جودي بوويل" في اليوم التالي للغارة عما يذاع من أمر التنسيق المسبق لها بين نظام كارتر وقطب زاده، لم يكن منه إلا أن نطق بتلك العبارة المتحجرة :"لا تعليق".

هذا ولم يلق التفسير الذي قالت به إدارة كارتر لتبرير فشل الغارة، وهو أن السبب إنما كان التعطل المتزامن لثلاث من المروحيات الثماني المستخدمة، قليل قدر من التصديق. ووفقًا لتقارير كثيرة، كان السبب وراء

الفشل المفاجئ للإجراء الذي اتخذته الولايات المتحدة، وهو الذي تتلخص حيثياته في اصطدام مروحية بطائرة ناقلة ضخمة من طراز "سي ١٣٠" على الأرض في إيران لتتناثر أجزاءهما بعد الانفجار بينما كانتا تحاولان الطيران، إنما هو التدخل العسكري من جانب الاتحاد السوفيتي. وقال أحد المصادر أن الغارة فشلت عندما كانت طائرة سوفيتية من طراز "ميج ٢١ إس" تحلق مباشرة فوق الفريق الأمريكي الراسي على الأرض، بينما اتخذ قائد القوة المغيرة قرارًا مباغتًا بتنفيذ ارتداد خاطف، وهو ما أدى إلى ذعر في صفوف الفريق واصطدام الطائرتين. وفي الحين نفسه قالت مصادر على صلة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية إن الاتحاد السوفيتي عمد إلى قذف القوة التابعة للولايات المتحدة بمجرد أن حطت على الأرض المخصصة للتحضير للمرحلة الثانية من الغارة، وأن الرواية الرسمية التي أدلت بها الإدارة ما هي إلا نوع من التغطية على ما حدث فعلاً.

ومن المحتمل كذلك أن تكون الغارة قد جرى التخطيط لها جزئيًا من جانب بريجينيسكي ومجلس الأمن القومي كنوع من الاختبار لرد الفعل السوفيتي على هذه الانتشار العسكري. وربما كان يسعى بريجينسكي بإرسال قوة صغيرة إلى إيران، كما حدث في ٢٤ أبريل، إلى معرفة طبيعة الوحدات السوفيتية التي ستوضع موضع الأهبة والاستعداد، وكذا طبيعة مواقع الصواريخ والمدافع المزمع تنشيطها، فضلاً عن وضع القوات السوفيتية في أوروبا الغربية وعلى طول الجبهة الصينية، وغير ذلك من أغراض.

وإذا كان الحال كذلك، يمكن تفسير الغارة الأمريكية على إيران بأنها كانت مجرد محاولة تجريبية لاختبار المذهب الإستراتيجي للولايات المتحدة – وهي التي اقترح أمرها أصلاً وزير الدفاع السابق "جيمس سكليسينجر" – لشن "حرب نووية محدودة". ومنذ الإعلان عما يسمى "بالمذهب الكارتري" في يناير ١٩٨٠، لم تخف الولايات المتحدة أنها تعتزم الدفاع عن "مصالحها" في الخليج الفارسي بالقوة في حال أن حصل اجتياح من الاتحاد السوفيتي من الشمال. ولكن الاتحاد السوفيتي، كما هو معروف لجميع المحللين، كان يمتلك، بفضل قربه وبرنامجه الحديث لتعزيز الأسلحة، قوة اعتيادية طاغية في الشرق الأوسط تجعله في موضع متميز عن غيره. وبالنظر إلى هيمنة تلك القوة السوفيتية، فإن موسكو إذا قررت التحرك تجاه إيران أو حتى دول الخليج العربي، فإن الولايات المتحدة لن تتمكن بأي حال من أن ترد على ذلك ردًا مناسبًا – إلا بنشوب حرب نووية تكتيكية.

ومن المسلمات التي تشيع في أوساط المحللين أن حربًا مثل هذه لم يكن في الاستطاعة احتواؤها لتقتصر فحسب على المستوى المحلي، بل كان من الممكن أن تتصاعد حدتها بسرعة لتتحول إلى حرب نووية حرارية شاملة. ولهذا السبب، اعتبر كثير من السلطات العسكرية أن مذهب كارتر هذا ضربًا من "الجنون".

ورغم ذلك، كان هذا المذهب هو المعلن رسميًا كأساس للسياسة الأمريكية بحسب التوجيه الرئاسي رقم ٥٩ الصادر في أغسطس ١٩٨٠.

ذلك وإن ما يتضح في ضوء الحقائق التي عرفت عن غارة ٢٤ أبريل هو أن إدارة كارتر، حين ذهبت إلى إيران، كانت تضع كل شيء في الحسبان إلا شيئًا واحدًا وهو تحرير الرهائن المحتجزين. وعلى النقيض من ذلك، كانت الإدارة الأمريكية تريد أن تضمن أنها إن حطت في إيران على وقع أصوات اضطرام البنادق، فسوف يظل الرهائن في إيران لشهور قادمة. وهي قد فعلت ذلك بالفعل بتقوية قوات الخميني، وبخاصة هؤلاء المتطرفين في الحزب الجمهوري الإسلامي الذي يترأسه آية الله "بهشتي" على حساب الرئيس "أبو الحسن بني صدر".

وفي يناير ١٩٨٠، أسفرت الانتخابات الرئاسية في إيران عن فوز بني صدر بفارق كاسح بنسبة ٧٥%. وفي الظروف العادية، لم يكن بني صدر ليعد من المعتدلين وهو الذي تلقى التدريب في باريس: لقد كان مؤيدًا موثوقًا للخميني، وهو ممن تشرب المبادئ الدقيقة للأصولية المتطرفة التي تحكم البلاد بحذافيرها، وقد كان كذلك من المؤيدين المتعصبين لفرض سياسات الإبادة الجماعية المناهضة للصناعة على إيران، والتي سبق إليها نظام "بول بوت" الحاكم في كمبوديا. ورغم ذلك، كان بني صدر من منظور السياسة الإيرانية أكثر ميلاً إلى إيجاد حكومة مستقرة على النقيض من موقف ملالي الحزب الجمهوري الإسلامي. وقد حصل كذلك على الدعم السياسي ممن تبقى من المفكرين المدنيين والطبقة الوسطى، وكثيرًا ممن يزدريه في السر ولكن يرى فيه أهون الشرين.

وكان وزير الخارجية الأمريكي "سيروس فانس" ونظيره البريطاني "لورد كارينجتون" يأملان في أن يكون بني صدر قادرًا على تشكيل حكومة في إيران تستطيع أن تكون في النهاية حليفًا في جبهة الولايات المتحدة والناتو على أساس من الأصولية الإسلامية. ولتحقيق ذلك، سعى فانس وكارينجتون لإبرام صفقة مع إيران، وهي تحرير رهائن الولايات المتحدة نظير إعادة تدفق الأسلحة والمساعدة الاقتصادية إلى بني صدر (والخميني كذلك). وفي مؤتمر صحفي في فبراير، أعلن الرئيس كارتر أن الرهائن قد حرروا، ولذلك تسعى الولايات المتحدة سعيًا دؤوبًا لاستئناف علاقات "طبيعية" مع إيران، بما فيها المساعدة العسكرية للنظام الحاكم.

لقد بدلت غارة ٢٤ أبريل كل ذلك.

ذلك أن الإخفاق الأمريكي تسبب تلقائيًا في التعجيل بالصعود المفاجئ لقوة المتطرفين وأنهى أي فرصة كان لينالها "بني صدر" لتشكيل حكومة فعالة. وبوقوع تلك الأحداث قبل التصويت البرلماني الإيراني بأسابيع قليلة، فإنها بذلك قد مهدت السبيل أمام حصول انتصار ساحق للحزب الجمهوري الإسلامي وملاليه في الاقتراعات التي جرت، وهو ما يعني بمفهوم المخالفة حدوث هزيمة نكراء للقوى اللادينية المؤيدة لبني صدر. ونظرًا لأن الخميني كان قد أعلن أن مسألة تقرير مصير الرهائن الأمريكيين سوف تكون من مسؤولية البرلمان، صار بقاء الرهائن الأمريكيين في إيران أمرًا محققًا على ضوء نتائج التصويت الحاصل.

وحتى أواخر ديسمبر ١٩٧٩، وتقريبًا بعد عام واحد من الثورة الخمينية ومرور أكثر من سبعة أسابيع على الاستيلاء على السفارة الأمريكية، كان الكابتن "سياوش سيتوديه"، الملحق العسكري للسفارة الإيرانية في واشنطن، يدير أعماله اليومية داخل المكاتب التابعة لمكتب الولايات المتحدة للبحوث البحرية.

هذا وقد كان سيتوديه، وهو ممثل حكومة من المفترض نظريًا أن الولايات المتحدة على شفير حرب معها، يعمل تحت الإشراف المباشر من مكتب الولايات المتحدة للمخابرات البحرية وكذا مكتب الولايات المتحدة للبحوث البحرية، ويعاونه في ذلك فريق من ستة عشر فردًا من الإرهابيين الإيرانيين ومهربي الأسلحة. وفي هذا المرفق البالغ الحساسية- والواقع في ٨٠٠ شارع "نورث كوينسي" في مدينة "أرلنجتون" بولاية "فرجينيا"، وهو الذي يقتصر الدخول إليه على الأفراد الحاصلين على تصاريح بالغة السرية- كان يعمل الكابتن سيتوديه ومعه الكابتن منصور، وأدميرال إيراني وافد حديثًا، وعشرات من العملاء العسكريين التابعين لجمهورية إيران الخمينية الإسلامية جنبًا إلى جنب مع المخابرات البحرية الأمريكية بموافقة من مجلس الأمن القومي الذي يترأسه زبيغنيو بريجينيسكي.

لقد تجاوز التحالف القائم بين إدارة كارتر والنظام الخميني مرحلة المفاوضات.

وفي نهاية ديسمبر ١٩٧٩، أقيل سيتوديه من الوظائف التي يتقلدها في أمريكا، في أعقاب الافتضاح الواسع الذي نال من تواجده وأنشطته التي يزاولها هناك من قبل مؤسسة "نيو سوليداريتي إنترناشونال بريس سيرفيس" ومجلة "إجزيكاتيف إنتيليجنس ريفيو". ورغم صرف سيتوديه عن أمره، رفض البنتاجون ووزارة الخارجية التعليق على أنشطته أو الدوافع التي سوغت له استخدام المكاتب التي توجد بالفعل داخل البنتاجون نفسه.

وقد سمح لسيتوديه بالبقاء في الولايات المتحدة، ليعود على إثر ذلك إلى مكتبه الأصلي في السفارة الإيرانية في "ماساشوستس أفينيو"- وذلك رغم الأمر الرئاسي الصادر قبل شهر الذي يقضي بترحيل جميع الدبلوماسيين الإيرانيين انتقامًا من الاستيلاء على سفارة الولايات المتحدة في طهران.

وقد أفادت التقارير بأن الوحدة الإيرانية التي تولى سيتوديه رئاستها كانت متورطة في تنسيق الأنشطة الخاصة بالطلاب الإيرانيين المرتبطين بالملحق العسكري الإيراني في أربعين كلية وجامعة أمريكية على أقل تقدير. وقد تضمنت تلك الأنشطة تهريب الأسلحة والاتجار فيها وتوصيل الأسلحة إلى الوحدات الإرهابية المرسلة من إيران إلى الولايات المتحدة.

وفي نوفمبر ١٩٧٩، وقبل أن تذيع الأنباء عن أمر سيتوديه في الصحافة، أعلن آية الله "خلخالي" التابع لجماعة "فدائيو الإسلام" (وهي إحدى فروع جماعة الإخوان المسلمين) أنه قد أرسل فرقًا للموت إلى الولايات المتحدة لاغتيال كبار الساسة الأمريكيين و"أعداء الثورة"، فضلاً عن قائمة معينة من بقايا النظام الإيراني السابق.

ووفقًا لمصادر إيرانية، دخل حوالي ٣٠٠ فرد من الإرهابيين الإيرانيين المسلحين الذين تلقوا تدريبًا عاليًا إلى الولايات المتحدة بجوازات سفر مزيفة بتأشيرات مزورة حصلوا عليها باستخدام خاتم التأشيرات المسروق من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية المحتلة في طهران، وذلك في الفترة التي أعقبت الاستيلاء عليها. وفي مقابلة

صحفية مع جريدة "ليبيراسيون" في باريس، تحدث خالخالي مفتخرًا بأن الفرق التابعة له قد تلقت تدريبها في "الشرق الأوسط والولايات المتحدة نفسها".

وقد ذاعت قصة سيتوديه على النحو التالي.

في ١٩ ديسمبر ١٩٧٩، التقطت وكالة أنباء "نيو سوليداريتي إنترناشونال بريس سيرفيس" إشاعات تشير إلى وجود تعاون مباشر بين السفارة الإيرانية والبنتاجون. وقد أفادت مصادر إيرانية معارضة لنظام الخميني بأن الكابتن سيتوديه – الذي وصف بأنه "ضابط الارتباط البحري الذي يشغل منصب الملحق العسكري للسفارة الإيرانية – يعمل في موقع عنوانه ٨٠٠ شارع "نورث كوينسي".

وفي اليوم التالي، أكد المكتب التابع لوكالة "نيو سوليداريتي إنترناشونال بريس سيرفيس" في واشنطن أن المبنى محل البحث مملوك بأكمله لمكتب البحوث البحرية. وقال متحدث رسمي باسم المكتب، رفض الإفصاح عن نفسه، إن المبنى مشغول بتمامه بمكاتب تتبع موظفين عسكريين أمريكيين، "باستثناء قليل من الأجانب لديهم المسوغ الداعي لتواجدهم في هذا المبنى"، ممتنعًا عن التفصيل بأكثر من ذلك.

وفي اليوم ذاته، أجرت مراسلة استقصائية لوكالة أنباء "نيو سوليداريتي إنترناشونال بريس سيرفيس" اتصالاً بمكاتب الكابتن سيتوديه، معرفة نفسها على أنها ممثل لأحد "تجار الأسلحة من هونج كونج"، ليعمد حينئذٍ سيتوديه إلى الهاتف. وعندما قالت المتصلة إن صاحب العمل أوصاها بالاتصال بسيتوديه لوضع الترتيبات اللازمة للقائه "عندما يصل إلى البلاد في الأسبوع المقبل"، فما كان منه إلا الموافقة في الحال.

ولما أخبر سيتوديه على إثر ذلك بأن هناك شحنة أسلحة "ضخمة" في طريقها إلى الولايات المتحدة "ولكنها ستأتي بمنأى عن القنوات الشرعية"، فإنه أجاب على ذلك قائلاً:" لدي اقتراح جيد وهو أن نجتمع سويًا لمناقشة تلك الأمور وما إن كنا نستطيع تقديم أي مساعدة حيال هذه المشكلة (هكذا قال) بأي وسيلة تكون، وإلا فإننا سنشحنها إلى شخص آخر داخل البلد، أو حتى إلى السفارة نفسها".

وقد أكد سيتوديه مرتين على أنه "الشخص المختص" بمعالجة تلك الأمور. ولم يكن منه إلا أن سأل فحسب قائلاً:" هل يمكنني أن أعرف نوع القوات التي تتعامل معها الشركة التي تعملين لديها؟ هل هي القوات الجوية؟ أم القوات البحرية؟ أي واحدة منهما؟". ولم يفته كذلك أن يعبر عن امتنانه لبيان جدول أعمال الأسبوع المقبل – "حتى عيد الكريسماس"– لتيسير أمر اللقاء "بتاجر الأسلحة".

وبسؤاله عن وضعه في الولايات المتحدة في أعقاب صدور أمر الترحيل من الرئيس كارتر في ١٢ ديسمبر، ضحك سيتوديه ثم أجاب بقوله "إن هذا لا ينطبق عليّ". (وفي حقيقة الأمر وحتى ذلك الحين، وبعد مرور أكثر من أسبوعين على صدور هذا الأمر، لم يرحل واحد من الدبلوماسيين الإيرانيين البالغ عددهم ١٨٣ من الذين أمروا بمغادرة البلاد، وكانت السفارة الإيرانية والقنصليات التابعة لها تعمل بشكل طبيعي، ولم يحدث ذلك الأمر إلا عندما قطعت واشنطن العلاقات مع إيران بعد أربعة شهور).

وفي السفارة الإيرانية، أكد الناطق بلسان القائم بأعمال السفارة "علي آغا" أن سيتوديه كان الملحق العسكري للسفارة.

وبعد الظهيرة من هذا اليوم، قام اثنان من المراسلين الصحفيين التابعين للوكالة بزيارة غير معلن عنها لمكتب الكابتن سيتوديه لاكتشاف ما يمكنهم اكتشافه. وفي المدخل المؤدي إلى المبنى المهيب، لم يكن إلا لافتة تعريفية وحيدة مكتوب عليها: "مكتب البحوث البحرية"، وبالداخل حارس مستغرق في النوم يلوح إليهما بيده.

وحين صعد المراسلان إلى الطابق العلوي وجدا مكتبًا يعج بالنشاط والحركة ممتلئًا بالإيرانيين. وكانت الجدر مغطاة برسوم تصويرية لآية الله الخميني، والشعارات الثورية، وغيرها من اللافتات والرموز التي تؤكد أن المكتب موالٍ بالفعل للنظام الخميني.

وعندما بدأ المراسلان في سؤال العديد من الحاضرين والتقاط صور للمكتب والديكور المستعمل فيه، انهالت عليهم الاعتراضات والاستنكارات. وصاح فيهم أحد الضباط الإيرانيين، الذي عرف نفسه بعد ذلك باسم الكابتن منصور، قائلاً: "لا يجوز لكما فعل ذلك". ووسط الفوضى العارمة، اعترف القائمون على المكتب بأنه يشغل مساحة تخص الحكومة الأمريكية بالفعل. وعلى إثر ذلك احتجز الممثلون العسكريون للخميني المراسلين الأمريكيين لمدة خمس عشرة دقيقة وقاموا بتهديدهما ومصادرة الفيلم المصور الذي بحوزتهما بالقوة.

وفي أعقاب ذلك مباشرة، اتجه المراسلان إلى البيت الأبيض لحضور الموجز الصحفي الذي يتولى أمره "جودي بوويل"، المتحدث الرسمي للرئيس كارتر، ووضعت النتائج الأولية للتحقيق أمام المؤتمر الصحفي والسيد بوويل. غير أن بوويل – مثله في ذلك مثل وزارة الخارجية– لم يكن لديه أي تفسير لوجود سيتوديه في المكاتب السرية الخاصة بالبحوث البحرية. وكذلك لم يعلق البيت الأبيض ووزارة الخارجية على سبب عدم مغادرة الدبلوماسيين الإيرانيين للبلاد في أعقاب صدور الأمر الرئاسي بترحيلهم.

وفي الموجز الخاص بوزارة الخارجية، لم يكن "هودنج كارتر" يستطيع جوابًا، واعدًا بالرد على الأسئلة بعد مراجعة الأمر مع فانس، وزير الخارجية. وبعد الموجز، رغم ذلك، أخبر جورج شيرمان، رئيس قسم المعلومات العامة لشؤون الشرق الأدنى، أحد المراسلين التابعين لوكالة "نيو سوليداريتي إنترناشونال بريس سيرفيس" قائلاً له: "إنني على استعداد لتقديم مزيد من المساعدة إذا ذكرت لي العلة وراء هذا السؤال".

هذا وقد رفض عشرات من المكاتب التابعة للبنتاجون التعليق على الأمر بأي حال من الأحوال.

وبحلول اليوم التالي، ٢١ ديسمبر، طفق مراسلون من واشنطن– بمن فيهم مراسلو البيت الأبيض العاملين لدى العديد من الشبكات القومية المعروفة إلى جانب الصحف اليومية المرموقة– في التحري من هذه القصة. وفي اليوم نفسه، اتصلت الوكالة بالكابتن سيتوديه لإجراء حديث عبر الهاتف. وعندها جرى سؤاله عن وظيفته. أجاب عن ذلك قائلاً: "تتمثل هذه الوظيفة في التعامل مع الطلاب الملتحقين بالجامعات الأمريكية"،

وتابع قائلاً بعد تردد: "وإنني أتعامل مع الطلاب العسكريين منهم والمدنيين على حد سواء، وبخاصة أولئك الذين يدرسون الهندسة". ووفقًا لسيتوديه، يوجد "ضابط ارتباط" في كل جامعة يدرس فيها الطلاب الإيرانيون- وهي التي يزيد عددها على الأربعين بحسب ما قاله.

وقد تمخض اعتراف سيتوديه بأنه يتولى تنسيق أنشطة الطلاب عن مسار آخر للتحقيقات. وبسرعة، أثبتت الوكالة أن سيتوديه كان معاونًا قريبًا من "أبو الفضل ناهديان"، فقد اعترف بنفسه أنه التقى به في مناسبات عديدة. وكان يعتقد أن ناهديان هذا تاجرًا للسجاد في واشنطن يمتلك مكاتب في "ويسكونسن أفينيو"، غير أنه كان من كبار المنسقين القائمين على جهاز السافاما، وهو البوليس السري التابع للخميني، في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان ناهديان يتردد بين واشنطن وطهران بحسب ما يقتضي العمل منه، وهو إلى ذلك كان مؤيدًا صريحًا لآية الله الخميني.

وبعيدًا عن تجارة السجاد، أفادت الأنباء أن ناهديان كان متورطًا في توصيل مئات الملايين من الدولارات منذ اندلاع الثورة الإيرانية إلى المجموعات الإرهابية المؤيدة للخميني في الولايات المتحدة. وقد أفادت الأنباء كذلك بأن عددًا كبيرًا من الطلاب الإيرانيين البالغ عددهم ٣٠٠ طالب قد نفذوا إلى الولايات المتحدة وهم يحملون تأشيرات زائفة ليستقروا في الدوائر المرتبطة بناهديان وسيتوديه ثم ينتقلوا بعدها إلى منازل آمنة في جميع أرجاء الدولة. وكذلك أشيعت أنباء تفيد بأن أحد حراس ناهديان، وهو ديفيد بيلفيلد (الذي يعرف كذلك باسم داوود صلاح الدين) هو قاتل "علي طباطبائي"، رئيس المؤسسة الإيرانية للحرية الذي اغتيل في ماريلاند في ٢٢ يوليو ١٩٨٠.

ذلك ولم تأت أي مؤسسة معنية بتنفيذ القانون لتهنئة الوكالة على كشف أمر ناهديان وسيتوديه. ولم يتفوه كبار المسؤولين في الإدارة ببنت شفة رافضين التعليق تمامًا. وبعد ذيوع القصة بأيام قليلة، انتقل سيتوديه في هدوء إلى السفارة الإيرانية. وقد لاقى المراسلون الصحفيون- الذين حاولوا معرفة سبب السماح لسيتوديه بالعمل في تلك البنايات وطبيعة صلته بالبنتاجون- الرفض التام بأدب وشدة، ولم يسمع بعدها عن أي شيء يخص الكابتن سيتوديه.

وبالنظر إلى تحالف إدارة كارتر مع نظام الخميني على جميع المستويات، يبزغ سؤال ملح ألا وهو: من يا ترى المتحكم في "الطلاب" الذي احتجزوا الرهائن؟ وما طبيعتهم؟

وعندما تم الاستيلاء على سفارة الولايات المتحدة، عرفت الجماعة التي وضعت يدها على السفارة باسم "طلاب على هدي الإمام" (والإمام بالطبع هو الخميني). وقيل إن قائد التنظيم كان طبيب أسنان اسمه "حبيب الله بيمان" الذي كان على صلة وثيقة بآية الله "خوئيني"، ذلك الملا الغامض.

ويعتبر هذا التنظيم الطلابي بصورة رسمية جزءًا من جماعة "فدائيو الإسلام" التابعة لآية الله خلخالي، وهو إلى ذلك على ارتباط بميلشيا "حزب الله". ولحزب الله رهبة في إيران، نظرًا لما يعتمد عليه من التكتيكات

الإجرامية واللجوء المتكرر للعنف، وهو ما يجعله قوة ضاربة- أو نوعًا من الأجهزة السرية- تعمل في خدمة العصابة المتطرفة التي تشكل الحزب الجمهوري الإسلامي.

ووفقًا لمصادر مخابراتية إيرانية، قضى قائد الطلاب، الدكتور بيمان، سنوات طويلة خارج إيران أثناء حكم الشاه، وبخاصة في أوروبا. وأثناء هذا الوقت، استُخدم بيمان كعميل مأجور لدى الموساد، جهاز المخابرات الأجنبية الإسرائيلي.

ومن هنا كشفت تلك العلاقة عن إحدى أسرار آية الله الخميني. لقد سرى الموساد في البنية القيادية لهذا النظام الإسلامي الأصولي سريان الدم في العروق. فمثلاً، عندما كان مصطفى شمران،وزير دفاع الخميني، ملتحقًا ببرنامج فيزياء البلازما في جامعة بيركلي بكاليفورنيا، فإنه استطاع إقامة علاقة مع مجموعة متطرفة من الموساد عبر الدوائر المرتبطة بالأستاذ "يوفال نيمان". ويعتبر نيمان هذا، وهو المتخصص في الفيزياء النظرية المتقدمة، الواضع الأول للمنظومة الإسرائيلية من الأسلحة النووية ومؤسس حزب "تيخيا القومي المتطرف" في إسرائيل. وقد عمل نيمان لبعض وقت كأستاذ زائر في جامعة تكساس بأوستن، حيثما أذيع أنه أقام علاقات مع إبراهيم يازدي، ثم انتقل بعدها إلى جامعة بيلور في تكساس.

وبعد مغادرته لجامعة بيركلي، اتجه شمران إلى لبنان حيث أصبح قائدًا لمجموعة شيعية متطرفة تتبنى العنف تسمى "الأمل"، وهي التي أقامت علاقات مع الزعيم الليبي معمر القذافي والشيعة المتطرفين في لبنان وسوريا وإيران. وفي لبنان، عمل شمران مع مجموعات متطرفة من حركة العصابات الفلسطينية، وبخاصة أولئك الذين يعتقد أنهم في قبضة المخابرات الإسرائيلية في الوقت الحالي (يستخدم الإسرائيليون غالبًا فزاعة "المتطرفين الفلسطينيين" لدعم موقفها في الداخل وفي الغرب). وعندما بدأت الثورة الإيرانية، ذهب شمران إلى العراق لمقابلة الخميني والسفر معه إلى باريس. ومنذ ذلك الحين، أصبحت منظمة الأمل اللبنانية بكل وضوح مؤيدة لإسرائيل ومعادية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وفي أعقاب سيطرة الخميني على السلطة، بسط شمران ويازدي نفوذهما على جهاز السافاك المريع بالتنسيق مع الجنرال فردوست. واليوم، يعتقد أن نفوذ الموساد في الدوائر الداخلية لنظام الخميني يتسم بالتباين والتفاوت، ولا يعرف كذلك مدى هذا النفوذ، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن عملاء الموساد الفاسدين وهما شمران ويازدي اللذان أمسكا بتلابيب جهاز السافاك قد أتاحا له من وراء ذلك نفوذًا مديدًا.

وبهذا يتبين لنا أن "الثورة الأصولية الإسلامية" التي أمسكت بزمام السلطة في فبراير ١٩٧٩ إنما قد أشعل فتيلها أصلاً شركة "بريتيش بتروليوم"، ثم هي حصلت على المساعدة التي شكلت عماد قوامها من أحد جنرالات حلف الناتو، ثم هي مُكنت من التحالف مع الحكومة "الشيطانية" للولايات المتحدة، ثم أصاب من قلبها جهاز المخابرات السرية الإسرائيلي موقعًا خطيرًا. وحري بنا الآن والحال هذه أن نجيب على هذا السؤال: من ذاك المدعو بآية الله الخميني؟

(٤)

آية الله ا لمجنون في السافاك

نحن الآن في أغسطس ١٩٥٣، وقد أزف انضواء حكومة رئيس الوزراء محمد مصدق بكل ما شهدته من تقلبات مباغتة وأحداث متباينة. وبعد سنوات عديدة اعتبر خلالها مصدق قائد الثورة الجمهورية الناجحة في عمومها، جعلت حركة المد والجزر تخرج عن هدوئها، ذلك أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أخذت تمهد السبل التي يستطاع بها إعادة الشاه إلى إيران وتمكينه من العرش مرة أخرى. وقبل سنوات عديدة، وصل مصدق إلى السلطة بفضل دعم الشيوعيين وتلك السلطات التي وفرها له كبار المراجع الشيعية على وجه الخصوص. والآن، في عام ١٩٥٣، قد عزف رجال الدين الشيعة عن تأييدهم لمصدق. وكان قائدهم غير الرسمي "آية الله كاشاني"، وهو ملا بدا في مظهر تقليدي وكأنه أحد أفراد "عصابة الكابون" أكثر من كونه زعيمًا دينيًا. وتولى آية الله كاشاني هذا، ومعه في ذلك ملا آخر يسمى "شمس كناد أبادي"، قيادة إمبراطورية من عصابات الشوارع والجماعات الدينية المتطرفة، وبذلك صارت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على استعداد الآن لاستخدامهم في تحقيق أغراضها.

وفي طهران، كان العميل المخابراتي كيرميت "كيم" روزفلت يتولى تحويل الأموال إلى العالم الإجرامي هناك لاستخدامها في تنظيم مظاهرات مؤيدة للشاه بالأمر المباشر. وكانت تلك الألوف المتظاهرة، التي تحاول الآن تذكر الشعارات التي كانوا يتغنون بها، مجرد قناع ظاهري للعملية التي تبتغي، في غضون بضع ساعات، تقويض سلطة رئيس الوزراء من أركانها.

وكان من بين حيل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، النافعة على الأقل من الناحية السياسية، هي أن تدفع بأناس موالين للشاه للخروج إلى الشوارع للتغني باسمه، ويكفيها منها إنتاج الأفلام السينمائية الإخبارية ونشرها في الصحافة العالمية. ولكن "الثورة" الحقيقية ضد مصدق كانت بقرار قد اتخذه بالفعل قادة أجهزة المخابرات السرية الأمريكية والبريطانية والإسرائيلية ومجالس إدارة كبرى الشركات النفطية العالمية. لقد أنفقوا تلك المصروفات النثرية في تمويل مظاهرات صاخبة، ثم جاء دور آية الله كاشاني "لإخراج عصاباته المجرمة".

وكان يندس في تلك الأثناء، بين ٥٠٠٠ آلاف فرد أو متظاهر ممن يصيحون قائلين "عاش الشاه"، أحد الملالي الغامضين يسمى "روح الله الخميني".

وإنها حقًا لمن عجيب المساخر في التاريخ أن يكون الرجل الذي تولى كبر تنحية الشاه في عام ١٩٧٩ عميلاً مأجورًا في القوات الملكية منذ خمس وعشرين سنة ماضية. ومع أن القصة الكاملة لحياة الخميني ربما لن تعرف لبعض وقت، تتوفر بين أيدينا بالفعل معلومات كافية منها عن هذا الملا الذي عاد بغيوم العصور الوسطى إلى إيران، تلك المعلومات التي نستطيع بها استخلاص حكم ثاقب عن طبيعة هذا الشخص في أيامنا هذه.

أولاً وقبل كل شيء، نود أن نشير إلى أن اسمه الحقيقي ليس الخميني، ولكنه قد اختار لنفسه لقب "روح الله الخميني" في وقت ما في الثلاثينيات. ونظرًا لأن جده كان من مواليد كشمير الهندية، وأن عائلته من أصل هندي مسلم، اختار أحد إخوة الخميني له اسم "هندي"، فقد كانت له في الهند معاملات تجارية بحسب ما أفادت به بعض التقارير. وأفادت تقارير أخرى بأن الخميني نفسه لم يولد في إيران بل في الهند ثم هاجر بعدها في بواكير شبابه إلى إيران.

وقبل ستين عامًا، وأثناء التقلبات التي كانت تموج في إيران في فترة العشرينيات، وحينما كان والد الشاه الأخير "رضا خان بهلوي" بصدد الاستيلاء على السلطة، تلقى الخميني الشاب أول جرح له في المعارك السياسية. ففي هذا الحين، تشاور الشاب رضا بهلوي مع زعيم الثورة الجمهورية في تركيا، أتاتورك الشهير. وقد حث أتاتورك هذا الضابط العسكري الغر على أن يحذو حذوه لإقامة جمهورية دستورية في فارس، مناشدًا بهلوي برفض مفهوم الملكية لما يتسم به من ضيق وانغلاق في المرأى فضلاً عن عدم ملائمته للدولة العصرية. وفي البداية، فكر رضا في الفكرة، حتى وقعت أحداث ثورية عنيفة من جانب رجال الدين الإيرانيين اضطرته إلى الانحياز إلى الملكية. وهكذا أصبح الشاه رضا. وفي ذلك الحين كان الخميني في مرحلة المراهقة، وقيل إنه كان يطوي في صدره أحقادًا تجاه رضا لتورطه بطريقة ما في موت والده، ومن هنا كان انضمام الخميني إلى احتجاج الملالي.

وبعد عدة عقود، كان هذا الخميني هو ألد أعداء الملك، ولكن ذلك لم يكن قبل أن ينضم الخميني وأخوه إلى حملة آية الله كاشاني التي عملت على تنصيب رضا على العرش.

ولم تكن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الجهة الوحيدة التي ترعى إسقاط مصدق. وكان آية الله كاشاني من المقربين إلى زعماء جماعة الإخوان المسلمين في إيران، والتي تسمى باسم "فدائيان إسلام". وفي الخمسينيات كان الزعيم المعترف به لجماعة فدائيان إسلام هو آية الله "نواب صفوي". وكانت هذه الجماعة تعمل، وهي التي كانت تضم ما بين ٢٠٠-٣٠٠ عضو، في السر منذ الأربعينيات، عندما كان مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين في مصر – وهي الجماعة التي حيك ثوبها بأكمله بيد جهاز المخابرات البريطانية- وصل نفوذه إلى إيران. على أن ذراع جماعة الإخوان المسلمين في إيران عرف خصوصًا من بين ما سواه بعمليات الاغتيال النوعية، بما في ذلك قتل رئيسين للوزراء على الأقل.

ذلك ولم يكن نفوذ جهاز المخابرات السرية البريطانية منذ سنوات عديدة خافيًا على أحد. "شكل كثير من رجال الدين ذوي النفوذ تحالفات مع ممثلين عن قوى أجنبية، كانوا في الغالب من البريطانيين،" بهذا كتبت الأخت التوأم للشاه، أشرف بهلوي، في كتابها "وجوه في مرآة". "وكان هناك في الحقيقة نكتة مشهورة في فارس تقول: إنك إن أمسكت عن لحية أحد رجال الدين، فإنك حتمًا ستجد عبارة "صنع في إنجلترا" مطبوعة على الجانب الآخر منها". وبعد الحرب العالمية الثانية، تقول شقيقة أشرف، "وبإيعاز من البريطانيين الذين رأوا

في الملالي قوة فعالة مناهضة للشيوعيين، أخذت العناصر التي تتمتع بالاستحقاق الديني المتطرف تطفو على السطح مرة أخرى بعد سنوات من القمع".

وقد كان لكاشاني وهذا "الاستحقاق الديني" أكبر الأثر في تثبيت أركان تلك العناصر في إيران بما كان يتبعها من قوات صدامية مخصصة في الجريمة المنظمة. وفي إيران، كانت تلك المافيا تسمى باسم "شاكو كيش"، وتعني تلك الكلمات بالفارسية "المذابح الحادة"، وهي مشتقة من العلامة المسجلة لتلك القوات التي تشير إلى طعن الناس حتى الموت بخناجر مخفية.

وجعلت تلك المافيا الإيرانية من البازارات والأسواق، وبخاصة أسواق الفواكه والخضر الأساسية هدفًا لها[١]. وانطلاقاً من تلك القاعدة القوية، بسطت نفوذها على الشبكات الإباحية والمقامرات، وبخاصة تربح الأموال من طريق الابتزاز بالمخدرات. ومثل بعض الإصدارات الغريبة من "عرّاب" نيويورك أو شيكاغو، وفي عام ١٩٥٣، أمر كاشاني بكل بساطة تابعيه بتوفير قوة شعبية ثابتة للتظاهر لتحقيق أغراض وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وبعد انقلاب عام ١٩٥٣، وبعودة الشاه إلى السلطة، بزغ نجم ضابط في الجيش يسمى "تيمور باختيار". وبعد ترقيته إلى منصب جنرال وتعيينه حاكمًا عسكريًا لطهران ومديرًا للمخابرات العسكرية، أصبح باختيار نصيرًا موثوقًا للشاه. وفي عام ١٩٥٧، عندما تم إنشاء منظمة المخابرات والأمن القومي (السافاك)، أصبح باختيار المدير الأول لها. ومنذ البداية، تلقى جهاز المخابرات الإيرانية الجديد دعمًا قويًا من الموساد الإسرائيلي، وبخاصة الاعتماد على خبراء إسرائيليين مختصين في التعذيب.

وقد شرع السافاك كذلك في إدراج عدد كبير من الملالي وآيات الله ضمن كشوف الأجور الخاصة به، مع تفضيل أولئك الذين على ارتباط بمافيا "المذابح الحادة". وتراوحت المرتبات الممنوحة من السافاك إلى الملالي بين ١٠٠ –١٠٠٠ دولارٍ شهريًا. وكان من بين المدرجين في كشوف مرتبات السافاك روح الله الخميني بأجر شهري قدره ٣٠٠ دولارٍ.

وفي ذاك الوقت، كان الخميني مدرسًا دني الرتبة في أحد المراكز الدينية الموجودة بمدينة قم الإيرانية. وقد حاولت التقارير المنشورة في صحيفة "نيويورك تايمز" وغيرها إظهار دور الخميني في مدينة قم على أنه باحث كبير في القانون الديني وأحد أنصار نظام "الجمهورية الأفلاطونية". ولقد كان هذا المكان الذي بدأ منه الخميني في تكوين قطيعه من الأتباع، وهو المثل الساخر للملا المتطرف.

هذا وقد كان التغلغل الإسرائيلي آنذاك في جهاز السافاك متأصلاً إلى حد مكنه من اختراق أوساط رجال الدين الأصوليين في إيران؛ ولم يكن من الغريب والحال هذه أن يتصل عملاء جهاز المخابرات الإسرائيلية

---

١ – في عام ١٩٧٨، أخبرني أحد المسؤولين في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن المافيا تمكنت من بسط نفوذها تقريبًا على عملية إنتاج الغذاء وتوزيعه في إيران.

بالخميني منذ بواكير عام ١٩٥٧. وفي تلك السنة، نزل أحد عشر عميلاً للموساد والشاباك بإيران للمساعدة في تنظيم عمل السافاك. وبحلول عام ١٩٧٦، كان قد استوطن أكثر من ٥٠٠ عميل لللمخابرات الإسرائيلية في طهران، حيث كانوا يشغلون المهام في جميع فروع جهاز السافاك. وقد أشيع أن نفوذ الموساد قد انصب على مكتب المخابرات الخاصة البالغ السرية، وهو الذي أنشئ ككيان مستقل بداخل السافاك. وكان رئيس المكتب هو الجنرال "حسين فردوست". ومن خلال السافاك ومكتب المخابرات الخاصة، حصل اختراق أوساط جميع الملالي والتحكم فيها. "لقد كان هناك نوعان فحسب من الملالي في إيران في عام ١٩٥٠،" بحسب ما قاله أحد المصادر المطلعة. "أولها الملالي المؤيدون للسافاك وثانيها الملالي المعتقلون في السجون". ولم يكن الخميني من بين المعتقلين في السجون.

هذا وقد كان تيمور باختيار شخصًا يعاني من السادية، نظرًا لما ذاع عنه من أمر ممارسته لأبشع أنواع التعذيب والقسر، ولكنه كان في الوقت نفسه عميلاً للبريطانيين وإدارة كينيدي.

وبعد أن قدم جون كينيدي إلى البيت الأبيض في عام ١٩٦١، بدأت واشنطن مباشرة في وضع ضغوط كبيرة على شاه إيران. وكان الشاه قد أظهر من نفسه علامات غير موفقة بخصوص الرغبة في التعاون مع شركة نفط "الأخوات السبع"، وبخاصة شركة النفط الوطنية الحكومية وشركة "إي إن آي". وللتأكد مرة أخرى من بسط النفوذ على النفط الإيراني لمصلحة الاتحاد الأنجلو أمريكي الذي تتزعمه شركة بريتيش بتروليوم، وجه كينيدي تهديداته إلى نظام الشاه[٢].

وفي يناير ١٩٦١، وتقريبًا في اليوم الموافق لتولية كينيدي رئاسة البلاد، اندلعت المظاهرات والاحتجاجات في طول البلاد وعرضها برعاية الشيوعيين ورجال الدين. وفي بواكير عام ١٩٦١، أرسل كينيدي "أفيريل هاريمان"، الحاكم السابق لنيويورك وأحد أشرافها، لتقديم طلبات الولايات المتحدة إلى الشاه. وفي ظلال المشاهد، كان باختيار يقبع في الخفاء للإشراف على تمويل المظاهرات المناهضة للشاه بأموال السافاك. وهنا أدرك الشاه أن باختيار عميل خائن، ومن ثم أقاله من منصبه كرئيس للسافاك. وإلى ذلك أحرق العديد من رجال الجيش من ذوي الرتب العالية في الوقت ذاته. ولكن بعد مرور أشهر قليلة، وتحت ضغط إضراب المعلمين الذي أدى إلى وقوع العنف، امتثل الشاه للضغط المنصب عليه من قبل كينيدي وهاريمان وعين "علي أميني" كرئيس جديد للوزراء. وقد أشيع حينها أن تيمور باختيار هو من سعى إلى إشعال مظاهرات المعلمين.

وكان منظم مظاهرات المعلمين هذه "محمد ديراخشيش"، وهو شخص انتهازي جعل من نفسه جاسوسًا للمخابرات البريطانية ليصير فيما بعد وزيرًا للتعليم في مجلس وزراء أميني. وقد سافر ديراخشيش هذا بعد ثماني عشرة سنة إلى الولايات المتحدة للقاء مجلس الأمن القومي عبر "ريتشارد كوتان"، الأستاذ في جامعة بيتسبيرج

٢ - وفي الوقت ذاته، وقع اغتيال رئيس شركة "إي إن آي" إنريكو ماتيه.

والعميل السابق لوكالة المخابرات الأمريكية. وقد أعلن الشاه بنفسه، في أحد الأحاديث الصحفية لجريدة "نيوزويك" منذ عدة سنوات، أن كينيدي قد أجبره على تعيين أميني رئيسًا للوزراء. وعندما سئل الشاه عن مثل تلك التقارير، صرح الشاه قائلاً: "حقًا إنه تاريخ قديم ولكنه صحيح".

وفي عام ١٩٦٢، زار الشاه واشنطن للقاء كينيدي وجهًا لوجه. وفي بدايات تلك السنة، واجه الشاه باختيار بالدليل على أنه من تولى الإثارة والتحريض على التمرد، وهو ما دفع باختيار إلى الهروب من إيران إلى سويسرا. والآن، وفي أثناء لقائه بكينيدي، اقترح الشاه إبرام اتفاقية سلمية على النحو التالي: إذا سمح كينيدي للشاه بإقالة رئيس الوزراء أميني، فإنه سيوافق في المقابل على اتباع السياسات التي ترغب فيها واشنطن. وبعد عودته إلى إيران، أقال الشاه أميني، ثم إذ به يخلف العهد، وهو ما جعل كينيدي يستشيط غضبًا.

وعلى إثر ذلك، وفي أواخر هذا العام، استدعى الرئيس الأمريكي باختيار إلى الولايات المتحدة.

وتحت الادعاء بقدومه إلى البلاد بغرض تلقي العلاج، طار باختيار من سويسرا متجهًا إلى البيت الأبيض مباشرة، حيث التقى مع كينيدي. وكان موضوع اللقاء هو تدبير مكيدة للشاه. وكان السبيل المختار لذلك هو "روح الله الخميني".

وخلال العام المنصرم، عمل آية الله هذا الكهل على نحو واسع مع الجنرال باختيار رأس جهاز السافاك. وقد ذاع صيت الخميني بأنه رجل عنيد ذو أيديولوجية متطرفة، وإلى ذلك أصبح الخميني على نحو سريع الوتيرة من وجهة نظر الإيرانيين، جماعة منهم بعد جماعة، بطلاً دينيًا. وبهذا اتخذ الخميني سبيله نحو قيادة القتال ضد "الثورة البيضاء" للشاه في عام ١٩٦٣.

وقد كانت الثورة البيضاء هذه مشروع الشاه لاستئصال قوة المعارضة الرجعية، وهي التي كانت لسنوات عديدة أصلاً من الأصول المملوكة للبريطانيين.

"مَن مِن العملاء البريطانيين في طهران قاد الاحتجاجات المناهضة للشاه في عام ١٩٦٣؟". ويوضح هذا الأمر نشرة لإذاعة "الصوت الحر في إيران"، وهي إذاعة مناهضة للخميني، في ٥ يونيو ١٩٨٠ فتقول: "يمكن تقسيم المرتزقة البريطانيين في إيران إلى أربعة أقسام؛ أما القسم الأول منها فهم السياسيون المأجورون والصحفيون ... وهم الذين كُشفت خياناتهم أثناء الكفاح الذي جرى بهدف تأميم صناعة النفط، ليصيبهم العجز البالغ بعدها وتتآكل قدرتهم على النهوض مرة ثانية. وأما المجموعة الثانية فكانت من الماسون الأحرار، وهم الخونة الذين لا يزالون يدًا للسياسات البريطانية تعبث بها وحماة للمصالح البريطانية في إيران.

"وأما القسم الثالث فكان العملاء الذين ينفذون السياسات البريطانية في إيران وهم بعض "الخانات" أو الإقطاعيين وكبار ملاك الأراضي الذين انكشفت وجوههم القذرة التي اعتادت على الظهور في مشاهد الخيانة التآمرية على الوطن وإسداء الخدمات للإمبراطورية البريطانية في العديد من المناسبات على مدار التاريخ

الإيراني... وأخيرًا، تأتي تلك الفئة من رجال الدين المزيفين المدرجين ضمن كشوف المرتبات البريطانية لمدة طويلة".

لقد كان هذا التحالف الذي جرى بين الماسونيين وملاك الأراضي القدماء ورجال الدين العامل الذي دفع باتجاه تصعيد العملية المناهضة للشاه في ١٩٦٣. وقد كان الخميني زعيمًا لهذا التحالف، ولكن كمجرد شعار فحسب.

وبخصوص الخميني، قالت إذاعة "الصوت الحر في إيران": "إنه منذ أن كان طالبًا للعلوم الدينية، دأب على تلقي الجراية من البريطانيين، وذلك تحت شعار "الرسوم التعليمية الشهرية" المجلوبة من عائدات الأوقاف الهندية (وزارة الشؤون الدينية)، وهو إلى ذلك كان يتلقى دفعات مالية شهرية من العملاء البريطانيين وعلى اتصال دائم برؤسائه".

وفي عام ١٩٦٢، أصدر آية الله ذو اللحية والنظرة الشريرة أول بيان مهم له، هاجم فيه خطة الحكومة التي تهدف إلى منح المرأة حق الاقتراع، وهو ما يعتبره انتهاكًا لوضع المرأة في حكم الشرع. وبعدها في عام ١٩٦٣، وعندما كانت الثورة البيضاء تتابع السير في طريقها، خرج الخميني حينئذٍ ليوجه ضربته الأولى إلى الشاه، وذلك بعد عشر سنوات من خروجه بنفسه في مسيرة في الشوارع لتمكين الملك من السلطة.

وقد تحدت الثورة البيضاء العائلات القديمة في إيران، ذلك أنها صادرت الممتلكات الإقطاعية وسلمتها إلى الفلاحين أو أحالتها إلى جمعيات تعاونية وطنية. وقد أصاب هذا الفعل المقتل من رجال الإقطاع مع رجال الدين. وبحلول ١٩٦٣، قبض على الخميني عقب إصداره كتيبات غاضبة تتهم الشاه بانتهاك المبادئ الإسلامية باتخاذ إجراءات التأميم؛ بدعوى أن الإسلام يحفظ الملكية الخاصة، بحسب ما قاله الخميني.

ورغم أن الخميني كان يعمل بوضوح لمصلحة ملاك الأراضي والبريطانيين، خرج أتباعه إلى الشوارع.

وقد زاد من حدة الاحتجاجات ما كان من أمر الاعتقالات الغامضة لأنصار الخميني على يد الشرطة والسافاك – وهو الجهاز الذي ربما كان يسعى إلى تأجيج الصراع، فضلاً عن عمله بالتنسيق مع الخميني وباختيار. وأثناء الإجازات الدينية في تلك السنة، اتسعت حركة الخميني لتصير تمردًا شاملاً. وتدلت صور الخميني من البازارات والمساجد. وفي أول يونيو ١٩٦٣، قبض على الخميني من قبل الشرطة لأول مرة، ثم حرر بعد مضي شهرين عقب التوصل إلى تفاهم. ثم هو قد اعتقل مرتين أخريين في أكتوبر ١٩٦٣ ومايو ١٩٦٤. وفي أكتوبر ١٩٦٤، نفي إلى خارج البلاد بأمر من الشاه.

وفي تلك الأثناء، غادر الجنرال باختيار من مقره في سويسرا إلى العراق، حيث مارس عمله سرًا في بغداد. وقد كان النفوذ البريطاني على العراق حينئذٍ قويًا، وقد عمل الجنرال باختيار بالتنسيق مع السفارة البريطانية في طهران لتأجيج الاحتجاجات المناهضة للشاه ودعم حركة الخميني. وقد قتل ما يزيد على ٥٠٠٠ شخص جراء تلك المظاهرات العنيفة التي طالت لعامين.

ولم يلفظ الشاه أي كلمة مصطنعة بخصوص المعارضة المناوئة له :"إن عملاء القوى الأجنبية في إيران كانوا هم الساسة ورجال الإقطاع .... وبعض القادة الدينيين المزهوين بأنفسهم، وهم الذين دأبوا منذ تأسيس الملكية الدستورية على أن يكونوا رهن إشارة أي قوة أجنبية على وجه الخصوص".

وعندما كان الخميني في المنفى، كشف الخميني عن نفسه وعن نوع رجال الدين (أصحاب الرجعية الظلامية) الذي هو منه من خلال اختياره لبلد الملجأ؛ فهو قد فر أولاً إلى مدينة "إزمير" بتركيا ليمكث بعض وقت هناك حيث توجد القاعدة العسكرية لحلف الناتو.

وبعد ذلك، اتجه الخميني إلى بغداد في العراق حيث تمكن من الاتصال بالشبكات التي تلتف حول الجنرال بختيار.

وقد عمل الخميني وباختيار والمخابرات البريطانية سويًا على إثارة القلاقل المستمرة في إيران. وقد تورط باختيار خلال المدة المتبقية من عقد الستينيات في العديد من المؤامرات، بما فيها ما كان من اغتيال رئيس الوزراء "علي منصور" عام ١٩٦٥، وكذلك محاولة الاغتيال الفاشلة التي استهدفت الشاه.

وقد استطاع باختيار من خلال التنقل بين جنيف وباريس وروما وبيروت وبغداد من بناء علاقاته التي وسعت إقليم البحر المتوسط بأسره. وكان من بين زملائه المقربين "فرانسوا بورتو ديلا مورانديز"، عضو منظمة الجيش السري المتطرفة التي كانت مسؤولة عن محاولات الاغتيال المتكررة التي كانت لتنال من الرئيس الفرنسي "شارل ديغول". وقد استطاع باختيار أيضًا تعميق أواصر التعاون بينه وبين العالم السفلي بغية تحصيل الأموال من خلال تهريب المخدرات وتجارة السلاح.

وفي أغسطس ١٩٧٠، قتل فيما قيل إنه حادثة أثناء رحلة صيد في هضاب العراق قرب الحدود الإيرانية. وفي ذلك يثور استفهام بسيط حول احتمال اغتياله بأمر من الشاه. وبعدئذٍ في العام ذاته، أعلنت إيران عن اكتشاف مؤامرة لقلب نظام الحكم يتزعمها أنصار الجنرال باختيار، ليقبض على إثرها على مئات من رجال الجيش.

وأما بالنسبة للخميني، فقد مات نصيره الأكبر وظهيره الأعظم ليتركه وحده في العراق من غير رفيق.

هذا وقد أذنت عودة الخميني إلى إيران في ١ فبراير ١٩٧٩ بانتهاء الحملة البريطانية الطويلة التي امتدت لسنوات بغرض إثارة القلاقل والاضطرابات في إيران. ولم يكن الخميني ولو لدقيقة واحدة أثناء وجوده في المنفى بمنأى عن عيون جهاز المخابرات البريطانية.

وبقدوم حزب البعث العربي الاشتراكي إلى السلطة في عام ١٩٦٨ وسيطرته على مقاليد الحكومة العراقية، وضع الخميني تحت مراقبة لصيقة من جانب السلطات العراقية، وهي التي لم تكن لتسمح له بإثارة القلاقل في أوساط المجتمع الشيعي في العراق. وفي منتصف فترة السبعينيات، وجد أنه يدعم تمرد القبائل الكردية العراقية في الشمال. ولكن لكونه زعيمًا دينيًا، رأى العراقيون استحالة القبض عليه.

واليوم يعتبر الخميني كأمثال الشخصيات المأخوذة عن عالم "كيبلنج" الروائي. فبحسب آراء معارفه، كان رجلاً خاملاً، وقيل إنه كان ينام لمدة اثنتين وعشرين ساعة يوميًا، ويستيقظ ليقوم بنزهة مذهلة في عالم الدنيا لساعات قليلة. لقد كان عقلانيًا إلى أقصى حد. وحكى ابنه أحمد لمجلة "لوفيجارو" أن أباه كان من عادته أن يكون في "عالم آخر"، ولم يكن لذلك يعير اهتمامه على الإطلاق لأي أمر يدور من حوله".

ولم يكن الخميني في شبهه إلا كمثل "ساحر أوز"الذي يرى في عالم الخيال والقصص، أو كالدمية المنفوخة التي تعمل أدوات التحكم فيها من وراء ستار. وكانت تصريحاته وآراؤه المغرورة تصدر في الغالب في صورة بيانات من وضع يده أو من وضع دائرة المستشارين المقربين إليه.

ذلك على أن علم السياسة الإيرانية اليوم يعتمد أساسًا على رمز الخميني وعلى السلطة التي نالها بلقب "الإمام"، وإلى ذلك يجب على العصابات السياسية المتناحرة في إيران أن تنال رضا واعتماد آية الله قرين الكبر والهذيان عند اتخاذ أي قرار ذي بال. ولا تكاد تأتي إحدى عصابات الاستشاريين التابعين للخميني لتقضي وقتًا من الزمن في تملق هذا المجنون الخرف لاتخاذ موقف معين بخصوص قضية ذات أهمية، حتى تأتي إليه عصابة أخرى وهي على استعداد لإقناع فضيلته بوجهة النظر المخالفة. ومن خلال التلاعب بعقل هذا الرجل المسن، تعيش الفصائل الإيرانية حياة البرية المتوحشة أو تستميت تلك الجماعات المتناحرة فيما بينها للوصول إلى السلطة. وبطبيعة الحال لا يجدي الجدل العقلاني مع الخميني بأي حال من الأحوال، ولكن الأكثر نفعًا هو ذلك الجدل الذي يقوم على أساس إلقاء التهم الجزاف على المعارضين من قبيل العداء للإسلام و"محاربة الله".

وهكذا صارت القرارات السياسية في إيران خلال الفترة التي أعقبت الثورة عرضة للنقض في الحال. ولذلك سعى الرئيس بني صدر عدة مرات إلى الحصول على دعم الإمام لاتخاذ سياسة أو مبادرة، وما إن يمر يوم أو يومان على ذلك حتى يقلب الخميني الأمر رأسًا على عقب وينحاز إلى الجماعة الأكثر تطرفًا، وهي العصابة الأصولية التي تحوط آية الله خلخالي.

وهناك سبب آخر وراء ذلك، وهو أن كثيرًا من الناس كان يعتقد أن خلخالي الفاسق هو في الحقيقة رئيس الخميني، حيث كان الأول زعيم جماعة "فدائيان إسلام". ووفقًا لمصادر فرنسية، كان الخميني نفسه عضوًا في تلك الجماعة، وهو لذلك كان ينضوي تحت خلخالي وفقًا للقواعد التنظيمية للجماعة.

وكان آية الله صادق خلخالي رجلاً غامضًا في إيران. ولم يشغل أي منصب رسمي في الحكومة، ولكنه كان يستحوذ على سلطة واسعة. وفي الأشهر الأولى التي أعقبت الثورة، كان خلخالي هو القاضي غير الرسمي والقائم على إعدام المئات، بل وربما الآلاف من المعتقلين السياسيين. وقد أورثته طبيعته السادية وشهوته إلى الدماء لقب "قاضي الدماء". وقد كان مرجعًا متطرفًا معتمدًا، وقضى سنوات عديدة في عزلة عقلية لتعذيب وقتل الحيوانات الصغيرة مثل القطط والطيور. وقد أطلق عليه لذلك أصحاب الدعابة اسم "كاتكيلر".

بعد ذلك، عمل خلخالي رئيسًا للبرنامج الإيراني لمكافحة المخدرات، وهي النكتة غير المستساغة بالمرة نظرًا للحقيقة التي مفادها أن جماعة "فدائيان إسلام" ربما كانت أكبر عصابة للاتجار في المخدرات في إيران. ومن خلال هذا المنصب، استغل خلخالي السلطة المخولة له في الأمر بإعدام مئات من المدانين ظلمًا بالاتجار في المخدرات – ولكنهم كانوا في الحقيقة مجرد معارضين سياسيين لحكم الخميني.

وفي أعقاب الغارة الأمريكية على إيران في ٢٤ أبريل، اكتسب خلخالي سمعة سيئة لعرضه جثث الجنود الأمريكيين المقتولين في الغارة، بما في ذلك التمثيل بالأجزاء المتفحمة من الأجساد والعظام.

والآن يقال أنه يعيش في أدغال "سجن القصر" خارج طهران، وهو المكان المخصص لكثير من المحاكمات السرية وعمليات الإعدام الوحشية باستخدام البنادق الآلية التي توجه إلى أعداء الخميني. ومثل فأر المجاري، كان ينفذ عبر زنزانة إلى أخرى، ثم يصفق بيديه فرحًا بعدما تخرق أذنيه قليل سخرية من هذا أو ذاك على المهمة التي يقوم عليها. وذات مرة، وأثناء جولة إرشادية مريعة للمراسلين داخل السجن، ألقى خلخالي محاضرة في الوقت الذي تخلل تناول وجبة نهمة من الآيس كريم بنكهة الفانيليا من حاوية جالونية كان يحملها معه. وفي نهاية الجولة، وعندما أثار العديد من أسئلة المراسلين حفيظته، توعدهم خلخالي بأن يوقع عليهم جميعًا حكم الإعدام في هذا الوقت وفي هذا المكان، ليغادر المراسلون المكان بسرعة بالغة.

وقد يكون من الصعب في نظر الكثيرين استيعاب كنه السبب وراء قبول أي أمة من الأمم أن تحكم من مثل هؤلاء الرجال المجانين. حقًا لقد كان الخميني وخلخالي أناسًا من غير عقول، ولكن الظروف التي سادت إبان حكمهم لا بد من فهمها جيدًا.

لقد فر ملايين الإيرانيين، وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى، إلى خارج البلاد لعجزهم عن تحمل الأهوال التي جاء بها هذا الحكم. ووفقًا للتقديرات الحكومية الأمريكية، فر أكثر من ٦ ملايين إيراني إلى خارج البلاد. وأما هؤلاء الذين بقوا في إيران فقد عاشوا على وقع أصوات البنادق التي يحملها رجال الحرس الثوري واللجان الثورية.

وفي بداية الأمر، ونظرًا لأن كثيرًا من الإيرانيين كانوا قد أصابهم الضنك تحت حكم الشخص الأوحد المتمثل في الشاه، فقد ظن هؤلاء بسذاجة بالغة أن دعم حركة الخميني سوف يؤول بهم إلى الخلاص من النظام الملكي، ثم يمكنهم بعد ذلك الاستغناء عن الخميني. ولكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، فبمرور الوقت، تناقص دعم الخميني، إلا من أتباعه ذوي التوجهات الدينية من جماعة الإخوان المسلمين فحسب. ويعتبر هذا القطاع من الشعب الإيراني الدعامة الوحيدة التي يستند إليها الآن حكم الخميني، ذلك أن العقل المجنون لهذا الملا يناسب تمامًا جمهور الأنصار الذين يقفون ورائه.

وفي أي دولة نامية، يواجه الحاكم – حتى إن كان ينصب جل اهتمامه على رفاهية الدولة ـــ تلك المشكلة الأساسية: كيف يمكن إنهاء المعاناة وتدهور أحوال القرويين الذين يعيشون حياة أشبه بحياة الأنعام.

وقد انحصر وجود هؤلاء القرويين في هذا النمط المتمثل في اكتساب لقمة العيش يومًا بعد يوم لقرون طويلة، وكذلك فإن العقل القروي، الذي لم يحصل أي قدر من التعليم أو الدراية بالعالم الخارجي، موقوف عند حد معين لا يجاوز بأي حال من الأحوال وضع البهائم التي تحمل أثقاله. ومن هنا كانت الحاجة الماسة إلى وضع برامج تعليمية لتلك الفئة لتمكينها من استيعاب التكنولوجيا الحديثة. وأما إن لم يحدث ذلك، ودون أن يعي هؤلاء القرويون أهمية مبادئ التقدم، فإن هذا الحاكم سوف يكون مصيره إلى نار تفوق في أهوالها أي شيء وصف في القصيدة الملحمية لدانتي المعروفة باسم "الجحيم".

إن حياة البلاهة الريفية تجعل أهل القرى عرضة للتلاعب والرشوة التي تزج بها في قالب من "التمرد الشعبي". وهكذا كان الأمر مع الخميني: لم يكن مؤيدوه الرئيسيين من العمال المهرة في إيران، ولا الطبقة الوسطى، ولكنهم كانوا ملايين القرويين المشتتين من ذوي التعليم الوضيع الذين تدفقوا على المدن الإيرانية واحتالوا على العيش في مدن الأكواخ وأحياء الفقراء جنوبي طهران.

وفي الشرق الأوسط، وطيلة خمسين قرنًا من الزمان، لم ينته وجود هؤلاء الناس إلا لتبعيتهم لنظام الكهنوت، وهو ما يعود بنا إلى الأيام التي سيطرت فيها الجماعات الدينية في العالم القديم على مقاليد الحياة السياسية. وقد دأب الكهنة، الذين تلازمهم في العادة أوصاف "الدجالين" أو "السحرة"، على ممارسة الحيل النفسية والاعتماد على الخرافة لنسج شبكة روحية من الافتتان يحيطون بها أتباعهم. ومن بين الأساليب التي يستعينون بها على ذلك اللعب على أوتار المخاوف النفسية الجنسية وأوهام الخيال الجامح (الفنتازيا) والمخدرات. وهكذا كانت الحال مع الخميني. وإذا كان في مقدور واحد منا أن ينفذ إلى عقل الخميني أو خلخالي، فلربما استطاع أن يدرك تمامًا كم الشرور الخالصة التي تقبع في تلك العقول.

وقد ظهر مؤخرًا كتاب مترجم إلى الإنجليزية يجمع بين دفتيه بيانات الخميني المستخلصة من بين أعمال كثيرة له. وتبدو لنا الأقوال المأثورة عن الخميني في الكتاب عسيرة على التصديق ومثيرة للضحك في الوقت ذاته، ولكن الواجب علينا أن ننظر إليها من زاوية التفضيل التي يطل منها الجمهور المستهدف من ورائها. لقد كانت تلك الجموع التي يرثى لحالها تنظر إلى كلمات الخميني على أنها أحكام نافذة، وهم الذين لم تكن من بين همومهم وشواغلهم أمور السياسة أو التجارة أو القانون أو حتى تلك المشكلات البسيطة مثل اختيار نوع البرنامج التلفزيوني الذي يرغبون في مشاهدته؛ بل على النقيض من ذلك كانت تنبع مخاوفهم من قاع لا يسبر له غور تسبح فيه الأفكار الرجعية التي تنهال على رأس هذا المجنون وتمتد بجذورها إلى مهاوي الخرافة.

"النجاسات إحدى عشرة"، بهذا صرح الخميني: "البول والعذرة والمني والعظم والدم والكلب والخنزير وغير المسلم، رجلاً كان أو امرأة، والخمر والبيرة وعرق الإبل التي تتغذى على العذرة (الجلاّلة)". ثم أضاف قائلاً: "الخمر وغيرها من سائر المشروبات المسكرة غير طاهرة، ولكن الأفيون والحشيش طاهران".

ثم إن الخميني تابع قائلاً: "لا يجوز إعادة استخدام فضلات الحيوانات أو الإفرازات الأنفية لها. وأما إن خلطت تلك المواد في صورة جزيئات دقيقة مع غيرها من الأغذية، فلا يحرم حينئذٍ استهلاكها. ويكره تناول لحوم الخيل والبغال والحمير. ويحرم تحريمًا شديدًا تناول الحيوان الذي وطأه إنسان وهو حي. وفي تلك الحالة، يؤخذ هذا الحيوان إلى خارج المدينة ثم يباع.

"إذا وطأ إنسان بقرة أو شاة أو ناقةً، تنجس بذلك بولها وفضلاتها، ويكره حينئذٍ تناول ألبانها. ويقتل هذا الحيوان بسرعة ويلزم من أتاه بدفع ثمنه إلى صاحبه،" وبهذا قال الخميني.

بل لقد أفادت مصادر كثيرة أن الخميني نفسه كان شاذًا متمرسًا، وهو الأمر الذي كان شائعًا في أوساط الملالي، إن لم يكن هو الأصل فيهم. وأثناء السنوات التي قضاها الخميني في المنفى، وبخاصة في باريس، قيل إن خدينه كان صادق قطب زاده، وزير الخارجية الإيراني. وقد أشيع كذلك أن قطب زاده كان رديء السمعة لشذوذه وساديته، مثله في ذلك مثل خلخالي، وقد راجت في أوساط الإيرانيين نكتة تناولت هذا الموضوع على وقع حقيقة أن قطب زاده لم يتزوج. وبناء على ذلك، أفاض الخميني بإسهاب وتنظير في العادات الجنسية لأتباعه:

"أثناء فترة الحيض بالنسبة للمرأة، يُستحب للرجل اجتناب الجماع، حتى وإن لم ينضو ذلك على ولوج كامل – أي أن يُكتفى حينئذٍ بإيلاج الحشفة أو قدرها فقط – كذلك حتى وإن لم ينته الأمر بالقذف. كما أنه من المكروه للرجل في تلك الأيام إتيان امرأته في الدبر".

ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل استمر الخميني في الترويج لمثل تلك الأمور:

"صلاة الآيات هي اسم للصلاة التي ينبغي أداؤها إذا شاهد الإنسان ظاهرة طبيعية تثير الخوف. وتشرع تلك الصلاة في أربع حالات: الكسوف الكلي أو الجزئي للشمس، والخسوف الكلي أو الجزئي للقمر، والزلازل، حتى لو لم تكن مخيفة، والرعد، والبرق، أو الرياح السوداء أو الحمراء. وإذا تزامن وقوع العديد من تلك الظواهر في آن واحدٍ، كأن يصاحب الكسوف وقوع زلزال، حينئذٍ ينبغي أداء صلاتين. وعند وقوع زلزال أو برق أو رعد، يجب على الإنسان أن يصلي في الحال، وأما إن ترك الإنسان تلك الصلاة يظل صاحبها آثمًا إلى ما بعد أداء تلك الصلاة، بغض النظر عن طول تلك الفترة التي قد تليها، حتى إن كانت تمتد إلى آخر يوم في حياة المرء".

وقد وضع آية الله هذا عددًا لا يحصى من القواعد والشروط لتنظيم مواقيت وأماكن الصلاة والطعام والشراب ودخول الخلاء. ويقول الخميني في هذا الشأن: "عند قضاء الحاجة أو التبول، يجب القعود على نحو لا يكون فيه الإنسان مستقبلاً مكة أو مستدبرًا لها". وفي الصلاة: "إذا احمر وجه إنسان نتيجة حبس نوبة

شديدة من الضحك، يجب على هذا الشخص إعادة الصلاة مرة أخرى .... التصفيق في الصلاة أو القفز في الهواء أثناء أدائها يبطلها،" وإلى آخر ذلك.

لقد تسببت رؤية الخميني للإسلام في أن يصير موضوعًا للسخرية تتناقله ألسنة غيره من المسلمين، السني منهم والشيعي. لقد قضى كثير من الهيئات العليا في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى جمع غفير من العلماء، بكفر الخميني لأسباب كثيرة من بينها ادعاؤه بأنه أفضل وأقوى من النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القول الذي يعتبر أشدها كفرًا. لقد امتعض كثير من الشيعة من اغتصاب الخميني للقب "الإمام"، نظرًا لأن هذا اللقب من أشد الألقاب قدسية في العقيدة الشيعية؛ بل إن كثيرًا من الشيعة قالوا إن الخميني لا يحق له أصلاً نيل لقب "آية الله" من طريق شرعي.

وهنا يثور سؤال: إلى متى سيظل العالم موبوءًا بآية الله المجنون هذا؟ بالطبع هو طاعن في السن، وقد أصيب أكثر من مرة بنوبة قلبية. كثير من الإيرانيين يتوقعون وفاته قريبًا، وهناك كثير من مراكز القوى السياسية التي تتوق إلى موته في الحال – حتى لو لم يكن ذلك عبر الأسباب الطبيعة المحضة. شيء واحد هو الأكيد: عندما يموت الخميني، فلن يستطيع أحد أن يقوم مقامه. إنه مجمع الأنظار الفريد لمريديه في إيران؛ ولذلك ينتظر في أعقاب موته حدوث فجوة واسعة في السلطة.

ذلك على أن أكثر النتائج احتمالاً هو اندلاع حرب أهلية في إيران، وهي الحرب التي سيكون أول طرفيها الأكثر قوة الشيوعيون، وهم الفئة صاحبة النفوذ في شمال إيران، والطرف الآخر هو المعارضة المحافظة المناوئة للخميني، بما فيها الجيش وبعض القبائل مثل الأكراد، ومن المتوقع أن يلحق بالطرف الأخير كثير من الزعماء الدينيين الأكثر اعتدالاً، وهم الذين كانوا أسرى لدى جنون الخميني، مثل آية الله شريعتمداري".

ويرى آلاف من الإيرانيين، بغض النظر عن النتيجة المرتقبة، أن موت الخميني لن يكون قريبًا جدًا.

(٥)

الإخوان المسلمون -١-:

مكيدة بريطانيا ضد الإسلام

"ليس لدينا أي مانع من الصعود إلى القمر، أو بناء المنشآت النووية،" هكذا قال الخميني في مؤلفه "الكتاب الأخضر". "ولكن علينا مهمة لا بد أن ننجزها: إنها خدمة الإسلام وإبلاغ أصوله الربانية للعالمين جميعًا، أملاً في أن يدرك جميع ملوك ورؤساء دول العالم الإسلامي في النهاية أن القضية التي ندافع عنها قضية عادلة، وعلى أساس تلك الحقيقة المجردة يدينون لنا بالخضوع والإذعان. وما من شك في أننا ليس لدينا أي رغبة في سلب ما في أيديهم من مهام، بل إننا سوف نسمح لهم بالإمساك على السلطة ما داموا يلتزمون السمع والطاعة لنا ويستحقون الثقة التي منحناهم إياها".

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هاهنا: من يكون هؤلاء الذين سماهم الخميني برؤساء الدول الإسلامية الذين يلزمهم الخضوع والإذعان له هو ومن معه؟ لقد سقطت من لسان الخميني زلة يكذب صدقها ولاؤه المتأصل في قرارة نفسه - فليس المقصود هو الخضوع للإسلام، ولكن المقصود هو الخضوع للجماعة السرية المعروفة باسم "جماعة الإخوان المسلمين" - تلك هي الجماعة التي عبر عنها بقوله "إننا"، وهي تلك الجماعة التي لديها "مهمة لا بد من إنجازها".

إن جماعة الإخوان المسلمين صناعة لندنية، أنشئت لتكون حاملاً للواء هرطقة قديمة معادية للأديان (الوثنية) ابتلي بها الدين الإسلامي منذ إنشاء المجتمع الإسلامي (الأمة) على يد النبي محمد في القرن السابع الميلادي. وسميت تلك الجماعة التي تمثل الأصولية الإسلامية المنظمة باسم جماعة "الإخوان المسلمين"، وقد أسست الجماعة رسميًا في مصر عام ١٩٢٩ على يد العميل البريطاني "حسن البنا"، الصوفي الباطني. واليوم تعتبر جماعة الإخوان المسلمين المظلة التي تأوي إليها جماهير غفيرة من أتباع المذاهب الأصولية، سواء كانت صوفية أو سنية أو شيعية، التي ازدهرت في المجتمعات.

على أن القصة الحقيقية لجماعة الإخوان المسلمين هي في واقعها أكثر خيالاً مما قد تجود به قرائح كتاب روايات الجاسوسية. إنها جماعة تقوم على المؤامرة، يتبادل أعضاؤها تحيات مشفرة وكلمات مرور سرية. وبرغم عدم توافر قائمة رسمية بالأعضاء، ينتظم أفرادها في صورة خلايا هرمية أو "محافل" تشبه الجمعيات والتنظيمات الماسونية الأوروبية. ولا تحترم جماعة الإخوان المسلمين ولا تتقيد بالحدود الدولية، ولكنها تمتد إلى جميع آفاق العالم الإسلامي كله. ويعمل بعض أعضائها كمسؤولين حكوميين أو دبلوماسيين أو رجال في الجيش، بينما يعمل آخرون كقطّاع طرق ومتعصبين. وبينما كان زعماء جماعة الإخوان المسلمين يجلسون في

بيوتهم وغرفهم المفروشة بأرقى أنواع السجاد والمرصعة بأبهى أنواع الألواح، كانت جماعة الإخوان المسلمين في مستوياتها الدنيا عبارة عن جيش شبه نظامي يتألف من السفاحين والقتلة المأجورين.

وعلى أعلى مستوياتها، لا تعد جماعة الإخوان المسلمين من المسلمين، كما أنها ليست مسيحية أو يهودية أو جزءًا من أي دين، ففي مجلسها الداخلي رجال يغيرون دينهم بالسهولة ذاتها التي يغير بها رجال آخرون قمصانهم.

وعند النظر للجماعة على الإجمال، يمكن القول بأن جماعة الإخوان المسلمين العامة لا تنتمي للإسلام، بل إلى القبائل البربرية الجاهلية من عباد الآلهة التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية القديمة. ورغم أن كثيرًا من بائعي الخرافات المتجولين يريدون منا الإيمان بأن الإخوان المسلمين وآية الله الخميني يمثلون التعبير الشرعي عن "ظاهرة علم الاجتماع" الراسخة، إلا أن هذا ليس هو الحال، فالإخوان لا يمثلون سوى نسبة ضئيلة من المؤمنين في العالم الإسلامي.

ما كان بإمكان الإخوان المسلمين التواجد اليوم لولا حقيقة مفادها أن مستشرقي جامعات أكسفورد وكامبريدج البريطانية قاموا بتتبع العناصر الأكثر تخلفًا في الثقافة الإسلامية وتدوين ملاحظات عنها وغرسها بعناية، ومن ثم جاءت جماعة الإخوان نتيجة التنظيم الصبور من جانب عملاء لندن في العالم الإسلامي، من أمثال ت. ي. لورنس الشهير (لورنس العرب)، وويلفريد سكاوين بلانت، وإ. ج. براون، وهاري سان جون فيلبي، وأرنولد تونيبي وبرتراند راسل.

وبالنسبة للأمريكيين، ينبغي ألا تكون الرعاية البريطانية للإخوان المسلمين مثارًا للدهشة، إذ كانت سياسة الإمبراطورية هي الحفاظ على مستعمرات لندن في حالة من التخلف. أما في الشرق الأوسط، فقد سعى البريطانيون لإفساد قادة القبائل ورجال الدين المرتشين لقيادة حركات بدت أهدافها على الدوام متوافقة مع الأهداف البريطانية. وفي ظل الإخوان المسلمين، تم تحويل السياسة الإمبريالية البريطانية إلى شكل مؤسسي يأخذ صورة منظمة منضبطة مخصصة لإعادة الشرق الأوسط إلى عصور الظلام.

إن غرس التخلف عن طريق نخبة مهيكلة ليس أمرًا جديدًا في التاريخ الإسلامي. فعلى مدار التاريخ الإسلامي، كان أكبر مؤيدي مبادئ مناهضة العلم، والصوفية، وإنكار المبادئ الفلسفية الوجودية، من أمثال العشاري في القرن التاسع والغزالي في الحادي عشر، عملاء يعملون بأجر لصالح الطبقة الأرستقراطية في أيام الخلافة والممالك التالية، وهم مَن سعوا لتفكيك التوجه العقلاني الناشئ، الذي بدا واضحًا بدرجة كبيرة في أعمال عباقرة العلوم الإنسانية مثل الفارابي وابن سينا وحسن بن الصباح. لذا عمل البريطانيون خلال القرن التاسع عشر فما بعده على إحياء التوجه اللاعقلاني. وكان البريطانيون هم من قدموا التمويل اللازم للدعاية لأصحاب المذهب الظلامي في الإسلام، كما أقاموا المؤتمرات للدعاية لأهمية التوصل إلى نوع من "العلوم

الإسلامية" "غير الغربية، وتمثل هدف بريطانيا في إقناع العالم الإسلامي بأن ثقافته "الفعلية" هي التخلف واللاعقلانية. وحظي بقدر بالغ من الأهمية في هذه العملية ذلك المشروع البريطاني الذي استمر لمدة قرن كامل لتفسير انحدار العالم الإسلامي طبقًا لوجهة النظر اللندنية، وسبب انهيار الإمبراطورية الإسلامية العظيمة وما حدث مؤخرًا من هيمنة القوى الاستعمارية، بأنه راجع إلى الضعف أو العطب الضمني في "الحالة النفسية للمسلمين".

وفي هذا الفصل، سنميط اللثام عن جذور الإخوان المسلمين، ونلقي نظرة على المنظمات السابقة لها في العصور الوسطى، ومن ثم نرى كيف استخدم المستشرقون البريطانيون معرفتهم بتلك الحركات المبكرة والطوائف حتى تمكنوا من العثور مؤخرًا على منظمة تساند آية الله الخميني.

كانت الثورة الإسلامية في مطلع القرن السابع إنجاز رجل واحد، هو النبي محمد، أحد كبار القادة السياسيين والدينيين في التاريخ. ففي خلال بضع عقود قصيرة،استطاع محمد منفردًا أن يؤسس في شبه الجزيرة العربية إمبراطورية امتدت طوال ثمانين عامًا من جنوب فرنسا وإسبانيا، ومرورًا بشمال إفريقيا وآسيا حتى حدود الصين.

تمثل عدو المسيحية الأولى في القبائل الوثنية في الإمبراطورية الرومانية، التي حاولت إفساد الدين من الداخل، بعد أن عجزوا عن هدمه من الخارج. وكان عدو إسلام محمد في القبائل الوثنية الجاهلية التي ظلت متنكرة ومدفونة في البيئة الإسلامية، ووفرت الجذور التي أنبتت بعد ذلك الإخوان المسلمين.

كان سر الإنجاز الذي حققه محمد هو قدرته على بسط سلطته كمعلم على كل من التجار الدنيويين وقبائل البدو الرحل في شبه الجزيرة العربية. وكانت شبه الجزيرة العربية الجاهلية الوثنية في حالة تشبه الذهان (الاضطراب النفسي)، حيث عاش البدو وحتى العرب المتوطنون والتجار في عالم مخيف من الشياطين والجن، وهو ما يمثل الظاهرة الطبيعية المخيفة التي سادت الصحراء، حيث يسكن حراس الكنوز المدفونة و"الأرواح السفلية" الأشجار والصخور، التي صارت موضوع عبادة الأوثان. وغالبًا ما كان يتم نصب حجر خاص يدعى "المسيبة" لعبادة الأوثان. أما قادة الطوائف القبلية وكهنتهم فكانوا يشجعون مثل هذه المعتقدات اللاعقلانية لتدعم سيطرتهم على السكان المرعوبين المؤمنين بالخرافات.

وفي كل أنحاء الشرق الأوسط، بما في ذلك شبه الجزيرة العربية، ازدهرت عبادة الآلهة، حيث نسبت القوة البالغة لتلك الآلهة التي صارت موضوع العبادة العصبية. وتنحدر كل تلك الآلهة من طوائف "الأم العظيمة" في عصر الإمبراطورية الرومانية، مثل إيزيس وآرتميس وأفروديت وسيبل. وفي شبه الجزيرة العربية، كانت الإلهة الأم الرئيسية – الممثلة في حجر – هي اللات. وكانت صاحبة القوة المطلقة، وبخاصة بين صفوة التجار في مدينة مكة في غرب الجزيرة العربية، وكانت تجلس القرفصاء مبتسمة لقطيع أتباعها البدو، من الجموع الصبيانية الساذجة.

ولم تقم ثورة محمد بالإطاحة بآلهة مكة ونخبتها فحسب، بل أحدثت ثورة في الثقافة والعلوم. وكان الالتزام الأساسي لمحمد هو الارتقاء في أسرع وقت ممكن بأرواح سكان الجزيرة العربية من حالة البؤس والتخلف التي يعيشونها. وكان يحمل رسالة لهم، غير أن عليهم أولاً أن يتعلموا القراءة والكتابة، وأن يشنوا حروبًا عصرية، وأن يستوعبوا كل علوم التاريخ الإنساني لتطبيقها في إعادة بناء المجتمع.

وجاء القرآن، كتاب المسلمين المقدس، يطالب المسلمين بالقراءة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق:١-٥]

كان هذا نداء الاستعداد في الإسلام. وحتى ذلك الوقت، لم يكن هناك لغة عربية مكتوبة، غير أنه نتيجة انتشار القرآن، تعلم قسم بأكمله من العالم كيفية القراءة واستخدام الكلمات المكتوبة.

وكانت رسالة القرآن رسالة كمال. حيث بيّن النبي محمد أن لله خطة ثابتة لخلاص الجنس البشري، ففي القرآن، يشير محمد إشارات متعددة إلى دمار الحضارات السابقة، التي لا تزال أعمدتها العارية وأنقاضها المتهدمة متناثرة في كل أنحاء الشرق الأدنى. وفي ظل تأثره العميق بانهيار الحضارات العظيمة السابقة، سعى محمد لبناء إمبراطورية تدوم إلى الأبد، تحت حكم الأفكار. ومن ثم أُدرجت أفكاره في "دستور المدينة" الشهير، الذي اشتمل على إدانة للعبودية، وهجوم على الممارسة السائدة الخاصة بوأد الأطفال، والقضاء على الربا، ومناصرة المجتمع المنتسب إلى الآباء بدلاً من المجتمع المنتسب إلى الأمهات، ووضع قواعد للتجارة والأعمال.

واستطاع أتباع محمد، مسلحين بالقرآن، إنشاء إمبراطورية عالمية. ولأول مرة منذ عصر الإسكندر الأكبر، يتم كسر شوكة النخبة الفارسية الرجعية الإقطاعية. وتوحد عالم البحر المتوسط مع آسيا الوسطى، ليمثل سوقًا مشتركة هائلة غير مسبوقة. وانتهت الحواجز التجارية التي قسمت بلاد الفرس من بيزنطة. وازدهرت التجارة وشهدت المدن نموًا كبيرًا، كما شهدت ٢٠٠ سنة التالية قفزات علمية وتكنولوجية مذهلة في التقنيات الزراعية وهندسة المعادن وهندسة الطاقة التي بدأت بطواحين الهواء والسواقي.

ومن البداية، اعتمدت الإمبراطورية العربية الجديدة على كل موارد المعرفة العلمية والثقافية المتاحة في العالم المعروف. وقرابة عام ٧٢٠ ميلادية، وبخاصة في العصر الذهبي للخليفة هارون الرشيد والخليفة المأمون حتى ٨٣٣ ميلادية، أُرسلت بعثات إلى أثينا والقسطنطينية للحصول على أعمال الإغريق، التي سرعان ما تمت ترجمتها إلى العربية. كما تمت رعاية علماء الفلك المتعلمين القادمين من بلاد الفرس ومصر، للقيام باكتشافات جديدة وتدوينها. وبدأ الأطباء المسيحيون استفسارات في عمل الجسم والعقل البشري. وتدفقت علوم الرياضيات من الهند والشرق إلى العالم الإسلامي، من خلال العديد من القنوات المختلفة، وساهمت حضارة شمالي غرب الهند، التي لطالما كانت مركزًا للإنسانية والعلوم، إسهامًا ضخمًا في النهضة الفارسية، التي كان شرارتها عائلة التجار البرامكة من مدينة مرف، في ظل تأثير الإسلام. واجتمع كل هذا لإنشاء الإمبراطورية

العباسية العظيمة التي أسست مدينة بغداد عام ٧٤٥. وكانت بغداد قد أُنشئت على يد المصلحين الإسلاميين العالميين في الحركة العباسية لتكون "المدينة المثالية".

غير أنه حتى قبل تدهور الإمبراطورية العباسية، كان التيار العشائري الخفي لشبه الجزيرة العربية الجاهلية قائمًا. وكانت رعاة هذا التيار نخبة تجار مكة الكبار، الخاضعين لسيطرة أسرة أبو سفيان وغيرهم، الذين – رغم اعتناقهم الإسلام رسميًا – لم يقبلوا عقيدة القرآن، ومن ثم كانوا "المسلمين غير المسلمين". وقد حافظوا سرًا على تحالف ضد الإسلام مع الكهنة البيزنطيين، ومسؤوليهم في مصر وسوريا، وعشيرة مانشيان في بلاد فارس.

قبل ظهور الإسلام، كانت عائلة أبو سفيان ترعى عبادة الطوائف للآلهة المكية، اللات. ومع تدهور الإمبراطورية العباسية، أطلقت سلالة هذه الطائفة حملة اضطهاد لقمع أي نوع من القبول للأفكار الجديدة والعلوم، والاستكشافات القومية، حيث استدعى الخليفة المتوكل، وهو خليفة ذو شخصية هزيلة عينه الجيش، لجنة من علماء الشريعة بالغي التحفظ لصياغة برنامج "أصولية" خانق. وسرعان ما تم إغلاق عشرات المدارس والمراكز العلمية، حيث طاف العلماء الأصوليون أنحاء الإمبراطورية لخنق كل أشكال حرية الفكر.

وأدى حكم المتوكل إلى ظهور العديد من الانتفاضات الجماعية، التي لا تختلف عن تلك التي قام بها أتباع الخميني، ضد الحركة العقلانية للإسلام، حيث خرب البدو الثائرون الأديرة المسيحية، وتعرض اليهود والمسيحيون لعمليات قتل جماعية لاسترضاء المتعصبين "الأصوليين"، بالإضافة إلى إدانة العديد من المسلمين لاعتناقهم معتقدات "غير أصولية". وفي أقل من ٥٠ عامًا، تقوضت وانهارت الحضارة التي استغرق بناؤها ٢٠٠ عام، مخلفة وراءها بضع جيوب يسيرة للتعلم والتساؤل الحر. ونجح تحالف النخبة – الكهنوت الشرير في تحطيم أحد كنوز البشرية.

ولعل الرجل الذي يتحمل الحظ الأوفر من المسؤولية عن تدمير التعليم والعلوم في النصف الأخير من القرن التاسع هو أبو الحسن علي بن إسماعيل العشاري، مؤسس ما يعرف بالمدرسة العشارية الأصولية في الإسلام، والذي ذكر أن الله يحدد كل التصرفات والأحداث على نحو جبري. ويقول العشاري :"النار لا تحرق، بل إن الله يجعل الأشياء تحترق عند وضعها في النار". لقد تم استبدال الله المنطقي الذي دعا إليه محمد بآلهة خبيثة غير منطقية تذكر بآلهة الجاهلية التي أطاح بها محمد قبل ذلك[١].

ويؤكد مبدأ العشاري : "لله حرية فعل الخير أو الشر كيفما يشاء".

---

١ – لم تختفِ التقاليد الإنسانية الراسخة في الإسلام رغم انتصار هرطقة العشاري في القرن التاسع. وقد تم تناول تقاليد العلوم والفلسفة الإسلامية بشكل موسع في مؤلفات كريتون زوكس، رئيس تحرير مجلة "إكزيكيتيف انتيليجينس ريفيو"، سواء في تلك المجلة أو صحيفة "كامبينير".

وجه الخميني شعب إيران في أغسطس عام ١٩٨٠ قائلاً: "دمروا، دمروا، دمروا، لا يمكن الاكتفاء من الدمار". كان هذا أمرًا بالرجوع إلى هادم النهضة الإسلامية في القرن الحادي عشر –الغزالي – الذي كان له مؤلف شهير، أطلق عليه حرفيًا اسم "التهافت" (أي التدمير).

اهتم المتخصصون البريطانيون في شؤون الإسلام في القرن التاسع عشر بدراسة أعمال الغزالي، أكثر من أي فيلسوف أو عالم دين آخر، لاستخدامه في تأسيس "طائفة التخلف" التي تحولت فيما بعد إلى الإخوان المسلمين. وكما هو الحال مع العشاري، جادل الغزالي في أن العالم هو في الأساس لا عقلاني، وأن المنطق البشري لا يمكن استخدامه لفهم الكون وتشكيل تطوره. وفي أشهر أعماله (تهافت الفلاسفة)، صور الغزالي الله لا كقوة خلاقة إيجابية يمكن للبشر التواصل معها، بل كسيد قسري في مكان نائي. واشتهر الغزالي بنظريته عن الذرات، والتي وفقًا لها، يتكون الكون من عدد لا نهائي من الجسيمات المنفصلة، تدين كل واحدة منها بوجودها في كل لحظة لهوى إله الغزالي، الذي قام في كل لحظة بالإنشاء والتدمير وإعادة الإنشاء لكل ذرة في الكون بأكمله.

وفي مثل هذا الكون، الذي لا يخضع لأي دوام أو قضية ثابتة، يعد منطق الإنسان غير ذي جدوى؛ ومن ثم يصبح الفكر مَلَكة خطيرة. وبالنسبة للغزالي، كما هو عند أرسطو، فالإنسان مخلوق، أو تم خلقه قطعًا، ليكون كائنًا ذا إدراك حسي فقط، مثله مثل الوحوش، يمسك بيد المخلوقات الصبيانية الساذجة غير القادرة على المنطق الإلهي المقدس. وفي مقدمة كتاب "التهافت"، يوبخ الغزالي الفلاسفة ويشبههم "بالجموع غير المتطورة":

"لقد لاحظت الآن أن هناك فئة من الرجال يؤمنون بفوقيتهم على الآخرين نتيجة تفوقهم في الذكاء أو البصيرة....إن مثل هذا التصرف المُخزي لا ينطلي مطلقًا على جموع الرجال غير المتطورين، لأن لديهم نفورًا غريزيًا من اتباع خطى العباقرة الضالين. وبالقطع فإن بساطتهم أقرب إلى الخلاص من ذلك العبقري العقيم، إذ أن العمى الكامل أقل خطرًا من الرؤية المعتمة".

"ومن ثم فعندما رأيت عرق الغباء هذا ينبض لدى هؤلاء الأغبياء، قررت كتابة هذا الكتاب لتفنيد آراء الفلاسفة القدامى. وسيوضح هذا الكتاب عدم الترابط في معتقداتهم وعدم الانتظام في نظرياتهم الميتافيزيقية".

وفيما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر، انتشر كتاب الغزالي كوباء خبيث يصيب المدن الإسلامية، وتحطمت غالبية الحركة الإنسانية الإسلامية نتيجة مد الرجعية والأصولية، وهذه هي الفترة التي يُشار إليها باسم "فترة انهيار الحضارة الإسلامية".

وكانت الحركة الصوفية، هي القاعدة السياسية الدينية لحركة الغزالي، والتي نقلت هرطقته إلى كل ركن من أركان العالم الإسلامي، إذ كان الصوفيون يمثلون اتحادًا ذا تنظيم غير محكم، يضم رجال الطوائف الباطنية

المناهضين للتحضر، والذين تم تجميعهم في قوة عظيمة بعد سنوات من موت الغزالي. بل إن العلاقة بين الغزالي والصوفية هي علاقة اشتقاقية لغوية كذلك، فكلمة الصوفي مشتقة من الكلمة العربية "الصوف" ، في حين أن لفظ "الغزالي"، يعني الشخص الذي يعمل في الصوف.

وحتى الصوفيين أنفسهم يعترفون بأن الصوفية يرجع تاريخها إلى العصور الجاهلية. فطبقًا لما ذكرته الأستاذة مارجريت سميث، من جامعة كمبريدج، في كتابها "طريق الصوفية: الخرافات المسيحية الأولى ونشأة الصوفية"، الذي نشرته دار نشر جامعة أكسفورد عام ١٩٧٨، فإن هناك "علاقة بين نشأة وتطور العنصر الباطني في الإسلام –الذي نعرفه باسم الصوفية– والتوجه الباطني التي ظهر في الكنيسة المسيحية في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، وقت قوة العرب". وتؤكد الأستاذة مارجريت، التي ظلت حتى موتها أستاذة بريطانية متخصصة في الطوائف، أن الصوفية هي الوريث لا للباطنية المسيحية أو "الغنوسطية الروحية الحقيقية" فحسب، بل "للطوائف الإغريقية السرية".

وقد أكد أساتذة آخرون بالإجماع أن الغنوسطية المسيحية - بوصفها هرطقة طائفية في كنيسة العصور الأولى – هي ذاتها مشتقة من الطوائف الشرقية والأديان الغامضة في الشرق القديم. ولعل المؤلف القطعي في هذا الموضوع هو كتاب "الدين الغنوسطي" لهانز جوناس، الذي أثبت أن الطوائف الشرقية التي ظهرت لاحقًا كحركة غنوسطية "جمعت في عباءتها كل شيء، بدءًا من الخرافات الشرقية ومبادئ الفلك والديانات الإيرانية، بالإضافة إلى عناصر من التقاليد اليهودية، سواء إنجيلية أو خاصة بالأحبار، والسحر والإيمان بالخلاص والمصطلحات والتراكيب الأفلاطونية". "وهذه التقاليد الدينية الانتقائية المتجسدة في الغنوسطية هي التي وُلدت من جديد في الصوفية، بعد ظهور الإسلام، حيث كانت اللات وأتباعها من طوائف مكة الجسر الناقل لهذه الهرطقات الشرقية القديمة".

غير أن الصوفيين المعاصرين يحبون المفاخرة بأنفسهم بالإشارة للطبيعة غير المحددة للصوفية. ففي كتابه "الصوفية"، كتب العالم الصوفي إدريس شاه: "طبقًا لما ذكره أحد العلماء الفرس، فإن الصوفية هي الضلال المسيحي. ويرى أحد أساتذة أكسفورد أنها متأثرة بالفيدانتا الهندوسية. ويتحدث أستاذ عربي أمريكي عنها على أنها رد فعل مضاد للمذهب الفكري في الإسلام، في حين يري أستاذ في الآداب السامية، أنها بقايا الشامانية في آسيا الوسطى. ويرى مؤلف ألماني أنها مزيج من المسيحية والبوذية. أما اثنان من كبار المستشرقين الإنجليز فقد راهنا على أنها تأثير قوي للمذهب الأفلاطوني الجديد. لكن لا أحد من هؤلاء سيوافق على أنها ربما تولدت بشكل مستقل..". وهكذا كيف يُعرِّف إدريس شاه الصوفية؟ "الصوفي هو الصوفي".

لكن إدريس شاه يذكر بعد ذلك كلام إيشان نايزر، وهو صوفي آخر، لتعريف تلك الطائفة: "أنا الوثن؛ أنا أتعبد في مذبح اليهود؛ أنا وثن اليمنيين، أنا المعبد الفعلي لعُباد النار؛ كاهن المجوس، والحقيقة الداخلية

للبراهماتي المتأمل عاقدًا رجليه، وفرشاة الفنان وألوانه، والشخصية القوية المقهورة للكاتب الساخر...عندما تُلقي شعلة في داخل شعلة أخرى، يتحدان في نقطة الاشتعال".

إن إدريس شاه المقيم حاليًا في لندن، حيث يتعاون مع الإخوان، يمثل صورة مصغرة من الطائفة الصوفية في ثوبها المعاصر. بعد أن رسخ أقدامه كعالم في الصوفية والدين الإسلامي، بدأ في تأليف العديد من الكتب الأخرى الشاذة مثل "كتاب الكتب" الشهير، وهو مجلد مكون من ٢٥٠ صفحة من الصفحات الفارغة التي تحتوي "رسالة" صوفية. ولا شك أن الكتاب، مثله مثل الطائفة المعاصرة، ما هو إلا نوع من التدليس.

وعقب وفاة الغزالي، صار الصوفي الباطني ابن العربي الأب الرسمي للصوفية الإسلامية من القرن الثاني عشر فيما بعده. ويتمثل الهدف من الصوفية، وفقًا لابن العربي، في العثور على "العالم الوسيط"، الذي يكون فيه التواصل المباشر بين الإنسان والله ممكنًا. ويقول ابن العربي: "وهذا هو عالم الخيال". ومن وجهة النظر الصوفية، فإن هذا العالم من الأحلام والأوهام يُوصف باسم "الاستنارة". وغالبًا ما يتم الوصول إليه بالاستعانة بعقاقير هلوسة يمكنها أن تنتج "الرؤية السماوية".

وكما هو الحال في بعض الطوائف الشرقية مثل "بوذية الزن"، يؤمن الصوفية بالبحث عن التوحد بين وعي الإنسان ووعي الله. وهذه الحركات المنتشية قد أنتجت على مدار السنين العديد من الأوامر المتجاوزة نطاق المعرفة للباطنية والدراويش. ومن بين قادة هذه الفئة القادري والنقشبندي والسهروردي. وفي التقاليد الصوفية، يُنشئ أي قائد مهم لأي جماعة جماعته الفرعية الخاصة، وهو ما يؤدي إلى انتشار دائم للجماعات الصوفية.

وعلى مدار القرون وحتى اليوم، تُعد الصوفية مُكرسة لعبادة القبور والموتى، فالمقابر وأماكن الدفن هي أضرحة بالنسبة لأتباع الصوفية. والعديد من التقاليد الصوفية، بوصفها بقايا من العصور الجاهلية، قد استحدثت طقوسًا وشعائر وثنية في الاحتفالات الصوفية شبه الإسلامية. وكذلك فإن السحر وغيره من أساليب عبادة الشياطين والآلهة شائعة في الأوساط الصوفية، رغم كونها متنكرة، إلى جانب السحر والتعاويذ.

لقد صارت هذه الهرطقة الصوفية هي أداة توغل الاستعمارية البريطانية إلى الشرق الأوسط. حيث أسست الأرستقراطية البريطانية، التي بدأت في القرن السابع عشر، لنفسها عددًا من مراكز المخابرات السياسية في العالم الإسلامي. وفي ظل التوسع التدريجي للإمبراطورية البريطانية عن طريق شركة إيست إنديا وشركة ليفانت، وجد البريطانيون أنفسهم في اتصال مستمر مع الشعوب المسلمة في الشرق الأدنى والهند.

وبالنسبة للبريطانيين، كانت ميول المسلمين التي عززت نمو العلوم الطبيعية أو تلك التي شجعت قيام الممالك القوية، تمثل خطرًا محتملاً على الإمبراطورية. ومن ثم لضمان هيمنة لندن على "سباقات الموضوعات"، بحث واضعو الاستراتيجيات الاستعمارية البريطانية عن تيارات في العالم الإسلامي تتوافق مع المصلحة البريطانية الرامية لمنع التطور. وبدلاً من التعامل مع الملوك والأمراء الذين يحكمون مناطق واسعة، شجع البريطانيون

كذلك السلطات المئات من المجموعات القبلية والعرقية، بحيث يحكم كل منها دويلة صغيرة. وبهـذه الطريقـة، يكون من السهل على البريطـانيين منـع ظهـور المعارضـة السياسـية لحكمهـم. واعتقـد البريطـانيون أن الثـورة الأمريكية كافية.

كان الصوفيون الذين يتمتعون بتنظيم محكم لكنهم مقسمون بين توجهات قبلية وغير قبلية، الشريك المثالي للاستعماريين البريطانيين. ونظرًا لمعاداتهم للعلوم، لن يكون للصوفيين مطالب صعبة فيما يخص انتشـار الثـورة الصناعية في الهند والشرق الأوسط؛ فهم قانعون بأن يكونوا مزارعين يزرعون القطن ويجمعون الشاي وهكذا. وبعد أن توصلوا لأهمية وفائدة الباطنية الصوفية بالنسبة لهـم، شـجع البريطـانيون انتشـارها ومولـوا الحمـلات الدعوية التي يقوم بها الوعاظ الصوفيون.

وبعد التحالف مع الصوفية خلال القرن الثامن عشر، لم يحتج البريطانيون إلا لخطـوة صـغيرة خـلال القـرن التاسع عشر لرعاية عملية خلق طوائف وأديـان زائفـة، كـأداة لتحقيـق سياسـة الإمبراطوريـة. وبعـد أن درس البريطانيون الإمبراطورية الرومانية كنموذج يسيرون عليه، تعلم البريطانيون إلى أن مـن أهـم أسـباب اسـتمرار الإمبراطورية الرومانية لأكثر من ١٠٠٠ عام هو أنهـا تعلمـت كيفيـة اسـتخدام الطوائـف والأديـان للسـيطرة على شعوبها.

وخلال فترة العشرينات من القرن التاسع، أسست النخبة البريطانية ما يُعرف باسـم "حركـة أكسـفورد"، وهي مستودع لحُمى الإصلاح الديني برعاية وتنظيم جامعة أكسفورد والكنيسـة الإنجيليـة والكليـة الملكيـة في جامعة لندن. وأدت هذه الحركة إلى استحداث نوع جديد من البعثات التبشيرية، تتمثل مهمته في نشر الإنجيل الفاسد لحركة أكسفورد في أجزاء أخرى من العالم.

ولم تكن إحدى الكنائس هي مظلة هذه الحركة، بل كان المذهب الاسكتلندي من الماسونية الحرة.

لقد تم تكليف بعثات حركة أكسفورد ببناء فروع تابعة للمذهب الاسكتلندي في كل أنحاء الإمبراطوريـة. وعند التعامل مع منطقة مثل الشرق الأوسـط، لم يحـاول الإنجيليـون الماسـونيين التـابعين لحركـة أكسـفورد رد المسلمين عن دينهم، للدخول في المسيحية مثلاً، بل حاولوا جعل النظام العقائدي الإسلامي (الصوفي) متوافقًا مع الممارسات الطائفية للمذهب الاسكتلندي. ونظرًا لأنهم طائفيون مهرطقون بدرجة كبيرة، أدانت الكنيسة الكاثوليكية الماسونيين الاسكتلنديين إدانة بالغة بوصفهم مـؤامرة مناهضـة للأديـان، قـادرة علـى القضـاء علـى سلطة البابا في الكنيسة.

كان هناك تحالف بين حركة أكسفورد والماسونيين البريطـانيين، وهـو مـا أدانـه الفاتيكـان كـذلك: جمعيـة يسوع أو اليسوعيين. ويعد التحالف البريطاني اليسوعي اليوم محور مخطـط النـبلاء الأوربـيين للعـودة للعصـور الوسطى.

وكانت أفراد العائلة المالكة البريطانية ذاتها والعديد من رؤساء وزرائها ومساعديها هم الرعاة الأساسيون للمشروع البريطاني لبناء الطوائف، ومن أمثال هؤلاء بنجامين دزرائيلي ولورد بالميرستون ولورد شافتسبيري، وإدوارد بالوير-لايتون. ومنذ العشرينات من القرن التاسع عشر فما بعدها، كانت الطبقة الارستقراطية يحكمها عصبة من أكثر الرجال والنساء الذين عرفهم العالم انحلالاً وفسادًا جنسيًا وشرًا. وفي النموذج الذي تبنوه، اقتبسوا صورة المركز الطائفي المخيف المتمثل في بومباي، في روما القديمة حيث عبادة الحيوانات والانغماس في الشهوات هو قاعدة السلوك "المتحضر".

وكان بالير- لايتون، الذي عمل لسنوات رئيسًا لمكتب المستعمرات ومكتب الهند البريطانيين، وخلفه ابنه بعد ذلك، عضوًا عاملاً في طائفة عبادة إيزيس وأوزوريس القديمة، وهي طائفة عبادة الموتى في مصر تحت حكم الفراعنة المتأخرين، والتي نشرت سمومها في كل عالم البحر المتوسط في السنوات التي سبقت مجيء المسيحية. وفي روايته الطائفية "أيام بومباي الأخيرة"، وضع بالوير-لايتون أساس الطائفية للأجيال المستقبلية. وهذا النموذج الذي وضعه بنّاء الإمبراطورية هو النموذج الأول الذي سارت على نهجه أخوية جون راسكن قبل العصر الرافائيلي، وجمعية الميتافيزياء لبرتراند راسل في فترة الستينات من القرن التاسع عشر، ومعبد إيزيس – يورانيا في الفجر الذهبي لألدوس هاكسلي في الثمانينات من القرن التاسع عشر، وجمعية الفلسفة الدينية لمدام بلافتسكي، التي نشرت كتاب "إماطة اللثام عن إيزيس". وقد كانت طقوس السحر الأسود وعبادة الشيطان وتعددية الذات سمة مشتركة للطبقة الأرستقراطية البريطانية في هذه الفترة.

كان أول مشروع مسجل للطبقة الأرستقراطية الطائفية في القرن التاسع عشر هو الحركة البهائية في بلاد فارس. ورغم أنها بدأت كغزوة بريطانية تجريبية في الطوائف الماسونية غير الدينية، إلا أن الحركة البهائية أفرخت منظم الحركة الإسلامية الشاملة – جمال الدين الأفغاني.

تأسست الطائفة البهائية قرابة ١٨٤٤ عن طريق مبشر يُدعى مرزا حسين علي، وكان يطلق على نفسه اسم بهاء الله. واليوم يزيد عدد البهائيين عن ٣٠٠ ألف شخص في إيران وحدها، رغم أن العديد منهم قد فر في هدوء منذ وصول نظام الخميني. لكن إن كان العدد الأكبر من هذه الطائفة في إيران، إلا أن أكبر معبد بهائي يقع في حيفا، إسرائيل، ويقع المقر العالمي للمنظمة في ويلميت، إلينوي.

وقد بدأت البهائية كطائفة راديكالية تؤمن بالمسيح أو المهدي المنتظر في فارس، وادعت أنها دين جديد واعتمدت على خليط من أفكار الإسلام والمسيحية والزرادشتية واليهودية. وجادل البهائيون في أن مذهبهم الجديد قد فاق كل الأديان الأخرى في ما يعرف باسم "إيمان العالم الواحد". ورغم أنهم يعظون بالمحبة والأخوة العالمية، إلا أنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم منبوذين في كل أنحاء فارس والشرق الأوسط، إذ اشتهروا بأنهم متعصبون دينيون مستعدون للقيام بأي شيء لدعم قضية إيمانهم. وفي عام ١٨٥٢، تم إلقاء القبض على قائد

بهائي بعد محاولته اغتيال شاه فارس. وتعرض البهائيون للقمع في بلاد فارس، وتم تطويق العديد من قادتهم الكبار ونفيهم أولاً إلى بغداد ثم إلى القسطنطينية.

وخلال تلك الفترة حافظ قادة البهائيين، الذين ضموا إليهم حينئذٍ بهاء الله وابنه عبد البهاء، على علاقات وثيقة مع المذهب البريطاني الاسكتلندي، وبانتشار المعابد والحركات الفرعية في الهند والإمبراطورية العثمانية وروسيا بل وإفريقيا كذلك. وفي عام ١٨٦٨، قررت الحكومة التركية أن من الخطورة بمكان السماح للبهائيين بالعمل في حرية، ومن ثم وُضعوا قيد الإقامة الجبرية في مدينة "عكا" في سوريا. غير أنه بمعونة أصدقائهم أصحاب النفوذ في لندن، كانت عصبة البهائيين تنجح في الظهور على الساحة مجددًا.

وفي فترة التسعينات من القرن التاسع عشر، بدأت الطائفة مجددًا في الحصول على زخم، وبخاصة في بلاد فارس. وقد شرد إ. ج. براون، وهو متخصص بريطاني في الطوائف درس بلاد فارس، بحيث أكد أن البهائية هي الموجة المستقبلية في الشرق الأوسط. كما أعلن المعتمد البريطاني في مصر، اللورد كارزون، أنهم إن استمروا بالمعدل ذاته، قد يحل البهائيون محل الإسلام، بوصفه الدين السائد في بلاد فارس.

ومع مقدم السنوات الأولى في القرن العشرين، كان من المعلومات الشائعة أن البهائية كانت منتجًا من وحي الإلهام البريطاني.ومن ثم اتهمتهم الحكومة التركية بمحاولة إنشاء "مستعمرة" شبه قبلية في سوريا كقاعدة ساحلية للبريطانيين في الإمبراطورية العثمانية. وفي عام ١٩٠٤ وعام ١٩٠٧، حقق الأتراك مع البهائيين، وأوصى تقرير التحقيقات بنفيهم من الإمبراطورية. وقبل أن يصبح بالإمكان تنفيذ الحكم، استولى ما يُطلق عليهم الأتراك الشبان – وهو طابور خامس للمذهب الاسكتلندي للماسونية الحرة، وجراند أورينت لودج، على السلطة بعد القيام بثورة. وتم إطلاق سراح عبد البهاء من السجن.

وعقب إطلاق سراحه، ذهب القائد البهائي إلى لندن ونيويورك، حيث التقى بالصفوة في كلا المدينتين. وفي عام ١٩١٢ ذهب في جولة لإلقاء الخطب في الولايات المتحدة، حيث تحدث، طبقًا لما ورد في النشرات البهائية الرسمية، إلى "طلاب الجامعات وعلماء الاجتماع، والمارمونيين واليهود والمسيحيين واللا أدريين، والإسبرانتيين وجمعيات السلام ونوادي الفكر الجديدة والجمعيات النسائية" والعديد من المراكز الأخرى.

وفي عام ١٩١٨، منحت جلالة الملكة عبد البهاء لقب فارس.

وفي كل مكان كان يذهب إليه، كان يعظ برسالة واحدة:

ضرورة القضاء على الدول الأممية، والأديان العالمية الحالية والحدود القومية لإذابة كل شيء في عالم واحد. وقد لعبت البهائية دورًا رائدًا في إنشاء عصبة الأمم العالمية، التي هي طليعة الأمم المتحدة، وكان لمنظمته روابط وثيقة مع رابطة الاتحاديين العالميين. وتزوجت ابنة عبد البهاء من مؤسس ما يعرف باللغة الاسبرانتية، وهو مشروع لمحو كل الألسنة واستبدالها بلغة واحدة. ويمكن العثور على البهائية كذلك في منتصف حركات الإصلاح الاجتماعية التي قادتها بريطانيا.

وحاليًا، تحظى الطائفة البهائية بكراهية في إيران، ويُعتقد اعتقادًا صحيحًا بأنها ذراع للتاج البريطاني. وخلال فترة زعزعة استقرار الشاه عام ١٩٧٨، تواترت الأنباء تواترًا كبيرًا أنه في حالات كثيرة كانت الطائفة البهائية تمول الحركة الشيعية المتحدة تمويلاً سريًا. وجزئيًا، كانت الأموال تتدفق عن طريق روابط الطائفة بنفس منظمات حقوق الإنسان، مثل منظمة العفو الدولية، التي رعت في الأصل الحركة المناهضة للشاه في إيران. وهذا الحركات استقت مواردها من تيارات "العالم الواحد" المرتبطة بالبهائية منذ بداية العقد الأول من القرن العشرين. (إذا كان هناك أي إيرانيين قد انخدعوا بمسألة البهائيين نتيجة العداء المزعوم بين عصبة الخميني للبهائيين، تجدر الإشارة إلى أنصار البهائية كانوا عادة ما يشجعون الناشطين المناهضين للبهائية كنوع من التمويه).

ذكر أحد تلاميذ الأفغاني، ذلك العميل البريطاني الذي نظم أول حركة أصولية إسلامية شاملة، قائلاً: "لقد صنعتمونا بأيديكم وغرستم قضيتنا في أبهى صورها، وأنشأتمونا قي أفضل شكل، ومن خلالكم تعرفنا على العالم بأكمله".

وُلد جمال الدين الأفغاني، طبقًا لمعظم الروايات، في مكان ما في آسيا الوسطى، وغالبًا في كابول، أفغانستان. وقد ضاعت سنواته الأولى حاليًا في غياهب النسيان، رغم وجود بعض التقارير أنه قد ولد يهوديًا وأنه ترقى مبكرًا جدًا في رتب إحدى أخويات الصوفية العديدة التي غطت ذلك الجزء من آسيا.

ونظرًا للروابط الوثيقة بين آسيا الوسطى والهند، كانت معظم الطوائف الصوفية مستقرة في الهند أو معتمدة على البعثات التبشيرية التي تنشر الصوفية بين أوساط المسلمين الهنود، وكان أهمها هي الطائفة النقشبندية. ويعني هذا الاسم "أعداء الضحك". وقد نمت طائفة النقشبندي نموًا سريعًا كأخوية صوفية في آسيا الوسطى، في بداية العقد الأول من القرن الثامن عشر، على يد الشيخ أحمد السرهندي، ثم الشاه ولي الله من دلهي، خليفته، الذي عاش من ١٧٠٣ إلى ١٧٦٥. وقد نهض هؤلاء العلماء الباطنيين الصوفيين للدعوة إلى أيدلوجية أصولية فائقة والعودة إلى "الإسلام الخالص" بعد انهيار الإمبراطورية المغولية وتراجع الإسلام في الشرق.

وقد سافر الأساتذة النقشبنديين من آسيا الوسطى إلى مكة والقاهرة وتركيا وبلاد فارس، ينشرون النهضة الصوفية الباطنية. وقد استطاع ابن الشاه ولي الله، الشاه عبد العزيز، أن يجمع حوله شبكة من التلاميذ بما في ذلك الشيخ الكردي خالد البغدادي (١٧٧٥-١٨٢٦)، الذي زار الهند عام ١٨٠٩. وبدءًا من المراكز الهندية التي حكمها مكتب المستعمرات البريطاني، أحدثت الصوفية الشرقية انتفاضة "نقاءًا" إسلاميًا ممزوجًا برهاب الأجانب، يعتبر كل التأثيرات الخارجية محلاً للشك والشر. وقد طالب ببعض الأوامر الإسلامية كأن "يحمي المسلمون أنفسهم من توغل التقاليد الفارسية والعادات الهندية". ومن بين الحركات التي نشأت خلال تلك الفترة الحركة الوهابية المتطرفة في شبه الجزيرة العربية، والطائفة التي ظهرت في شمال إفريقيا، والتي تحمل اسم "أخوية السنوسي" والكائن مقرها في ليبيا.

ومنذ ١٨٥٧ حتى وفاته في ١٨٩٧، كان الأفغاني حامل اللواء الأساسي للحركة الأصولية التي عانقت الصوفيين والبهائيين والماسونيين الأحرار.

وطوال مسيرته الوظيفة التي امتدت أربعين عامًا كعميل للمخابرات البريطانية، كان الأفغاني يتلقى توجيهات على يد اثنين من المتخصصين في العلوم الإسلامية والطائفية، ويلفريد سكاوين بلنت وإدوارد ج. براون. لقد كان براون أحد كبار المستشرقين البريطانيين في القرن التاسع عشر، وكان من تلاميذه في قسم المستشرقين في جامعة كمبريدج، هاري سان جون فيلبي الشاب، أخصائي المخابرات البريطانية في شبه الجزيرة العربية، ووالد كيم فيلبي، العميل الثلاثي للمخابرات البريطانية الأجنبية.

وعلى نهج فيلبي وت. إ. لورنس، رسم براون لنفسه مكانة مدروسة بوصفه "مناهضًا للاستعمار"، ومن ثم كان يعبر بشكل علني عن انتقاده للسياسات البريطانية تجاه مستعمراتها. وقد زعم تعاطفه مع طموحات حركات الاستقلال. وقد اعترف طائفيٌ متخصص بولعه بالباطنية الشرقية "والأسرار المقدسة للشرق". وكان تخصصه دراسة الصوفية والطائفة البهائية، وهو اهتمام كانت شرارته عمل واضع أيدلوجيات يسوعي فرنسي متعصب هو جوزيف دي جوبينو.

كان جوبينو دبلوماسيًا فرنسيًا أظهر حبًا قويًا للبريطانيين، وكان عمله – وبخاصة كتابه الفلسفة في آسيا الوسطى– هو مصدر الإلهام للمكاسب الطائفية لشخصيات مثل رئيس الوزراء البريطاني بنيامين ديزرائيلي. لقد قامت المخابرات البريطانية بتعيين جوبينو في سويسرا ثم أُرسل لاحقًا إلى إيران في وزارة الخارجية الفرنسية. وهناك قضى معظم وقته في مدينة شيراز في جنوب إيران، وهي المدينة التي ظهرت فيها الطائفة البهائية للمرة الأولى. وكان شُغل جوبينو الشاغل هو إقامة شراكة عمل بين الأجناس الآرية والسامية، بما في ذلك الفارسيين الذين يُزعم أنهم من الجنس الآري. (لاحقًا، صار واحدًا من الآباء الأوائل للحركة النازية بدافع من مناصرته لفكرة "العلوم العنصرية"). وبعد ذلك بسنوات، وصف إ. ج. براون بكل إجلال كيف علم للمرة الأولى بأعمال جوبينو:

"في يوم من الأيام منذ سبع سنوات ، كنت أبحث في كتب مكتبة جامعة كمبريدج عن مادة علمية جديدة لكتابة موضوع عن الفلسفة الصوفية، عندما لمحت عيناي عنوان كتاب الكونت دي جوبينو "الدين والفلسفة في آسيا الوسطى". فأخذت الكتاب، وألقيت نظرة عليه لاكتشاف ما إذا كان يضم أي موضوع عن الصوفية، فوجدت فصلاً قصيرًا مخصصًا لهم، أخذته معي إلى غرفتي. كما أوضحت لي نظرتي السطحية الأولى أن قدرًا معقولاً كبيرًا من الكتاب قد تناول موضوع البهائيين..".

ويواصل حديثه قائلاً: " غير أنه عندما تحولت من هذا الفصل المحزن إلى ذلك القسم من الكتاب الذي يتناول الطائفة البهائية، اختلفت القضية تمامًا. وبالنسبة لأي شخص قرأ هذه التحفة الرائعة من الوصف التاريخي...لست في حاجة إلى وصف التأثير الذي أحدثته في نفسي. لطالما تحمست لزيارة بلاد فارس، وبخاصة

شيراز، إلا أن هذه الرغبة قد ازدادت الآن بدرجة كبيرة. لقد تمنيت الآن رؤيتها لأنها كانت محل ميلاد المرزا علي محمد الباب (مؤسس البهائية).

وفي عام ١٨٨٧، زار براون بالفعل بلاد فارس، ولعله صار السلطة العالمية المفوضة بهذه البلاد، ومن ثم كتب كتابه الكلاسيكي "الثورة الفارسية" و"عام بين الفارسيين". وكان المرزا محمد الباقر، أحد الشركاء الأفغان في الطائفة البهائية الفارسية، هو من علَّم براون اللغة الفارسية. وقد وُصف الباقر بأنه "شيعي ناجح ومحمدي ودرويش ومسيحي وملحد ويهودي" والذي استكمل رحلاته "يوضع تفاصيل نظام ديني خاص به أطلق عليه اسم "المسيحية الإسلامية".

تم ضم الباقر إلى الدائرة العليا لصفوة بلاد فارس وآسيا الوسطى، التي صارت الأعضاء المؤسسين للحركة الإسلامية العامة التي دشنها ويلفريد س. بلنت، وهو عضو آخر في مدرسة المستشرقين البريطانية،والذي كلفه الجناح الماسوني الاسكتلندي مسؤولية تنظيم "معاقل" بلاد فارس والشرق الأوسط. أما القوة المحركة للحركة فكان جمال الدين الأفغاني.

بدأت المسيرة الوظيفية الجادة للأفغاني في ١٨٧٠، عندما تقلد منصبًا في مجلس التعليم في اسطنبول، تركيا. وقبل ذلك كان الأفغاني قد عمل في سياسة آسيا الوسطى، وشغل منصب رئيس وزراء أفغانستان عام ١٨٦٦، حيث حافظ على علاقات وثيقة مع الطائفة البهائية، والماسونيين البريطانيين وبعض الصوفيين المقيمين في الهند. وفي عام ١٨٦٩، ذهب إلى الهند، ومن هناك سافر إلى اسطنبول. وخلال الأيام التي قضاها في تركيا، كان الأفغاني مكروهًا للغاية من رجال الدين في المؤسسات الإسلامية هناك. وبعد فترة وجيزة، تم نفيه من تركيا لوعظه بمبادئ اعتبرها العلماء معادية للإسلام (قبل ذلك بعامين فقط، ألقت الحكومة التركية كذلك القبض على قيادة الطائفة البهائية. وذهب الأفغاني، الذي أجبر على مغادرة اسطنبول إلى القاهرة، حيث مكث فيها تسع سنوات.)

ومع بدايته في القاهرة عام ١٨٧١، لم يكن الأفغاني في رعاية أي شخص سوى رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا، الذي قابله في اسطنبول، والذي حرص على أن يحظى براتب نقدي كبير وأن يُمنح منصبًا في جامعة الأزهر الإسلامية الشهيرة. وبعد استفادته من تجربته في اسطنبول، ومع تحذير رعاته البريطانيين له بالهدوء، التزم الأفغاني طوال سبع سنوات بالأصولية الإسلامية في تعاليمه العامة، وكان يزيد سرًا من عدد أتباع طائفته. وفي عام ١٨٧٨، ترك الأفغاني الأزهر وانتقل إلى الحي اليهودي في القاهرة، حيث بدأ التنظيم السياسي العلني.

أعلن الأفغاني تأسيس الجمعية الماسونية العربية. وبمساعدة رياض باشا وسفارة لندن في القاهرة، أعاد الأفغاني تنظيم جماعتي "المذهب الاسكتلندي" و"المعاقل الشرقية الكبرى" للماسونيين الأحرار في القاهرة. وبدأ يجمع حوله شبكة من الأفراد من العديد من الدول الإسلامية، وبخاصة سوريا وتركيا وبلاد فارس.

وبين أتباعه، حظي الأفغاني على تفان تام يشبه عبادة الأوثان. وكان حواريه المخلص، محمد عبده، الذي غادر القاهرة بعد الأفغاني بفترة، ووضع قاعدة لجماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا.

في كتابه "رسالة الإلهامات الصوفية" وصف محمد عبده لقاءه بالأفغاني: "رغم أني وجدت نفسي في هذه الدولة، إلا أن وصول الحكيم المطلق، ذو الحقيقة المتجسدة، سيدنا الجليل جمال الدين الأفغاني، الذي لم يزل يقطف ثمار العلوم، ويجعل شمس الحقائق تشرق علينا، فتضيء لنا الطريق في أعقد المشكلات". ولا شك أن هذه الألفاظ "الحكيم المطلق" و"الحقيقة المتجسدة" إنما هي حكر على الصوفية الباطنية.

وعندما كان الأفغاني لا يزال في القاهرة، اشترك الأفغاني في الاجتماعات التأسيسية للعديد من الجمعيات السرية في الشرق الأوسط. وفي خطابه أمام المسيحيين السوريين في الإسكندرية، تلقى إطراءً على رؤيته لمستقبل العالم العربي. وتواردت الأنباء أن خطابه كان مصدر إلهام لهذه الفئة لدرجة أنها دعت المسلمين المصريين والسوريين إلى تأسيس حركة تعرف باسم "مصر الفتاة". وكانت هذه الجمعية التي استمرت لفترة طويلة في القرن العشرين، منظمة نازية مبكرة من القوميين المصريين المتعصبين، الذين خضعوا طويلا لسيطرة الجناح الاسكتلندي للماسونيين الأحرار. وكذلك اشترك الأفغاني في إنشاء طائفة ماسونية أخرى، أطلق عليها "الأتراك الشباب"، وهي الجمعية الباطنية التي استولت عام ١٩٠٨ على الحكم لفترة وجيزة من الإمبراطورية العثمانية. أما الجولة الثالثة من عمل الأفغاني في مصر فكانت تأسيس الجمعيات القومية السرية السورية، وقد كانت إحداها مشروعًا للمخابرات البريطانية.

وفي عام ١٨٧٩، تم نفيه من مصر بوثيقة رسمية من الدولة، اتهمته بتشكيل "جمعية سرية" من "عصابات الشباب" بهدف "إفساد الدين ونظام الحكم". لكن هذا الأمر جاء متأخرًا، ففي عام ١٨٨٢، نظمت حركة الأفغاني التمرد الطائفي العربي في مصر، الذي كان عاملاً مثيرًا للثورة ضد الخديوي البريطاني الذي قام بنفي الأفغاني. وكانت الثورة هي الذريعة للغزو البريطاني المسلح واحتلال مصر. ففي مصر على الأقل، حقق الأفغاني نجاحًا.

ومن مصر، ذهب الأفغاني إلى الهند وقضى بها فترة وجيزة، ثم رحل إلى أوروبا. وبتمويل من البريطانيين في مصر، أنشأ الأفغاني صحيفة ناطقة بالفرنسية وصحيفة بالعربية أطلق عليها "العروة الوثقى"، وهو الاسم ذاته الذي كانت تحمله المنظمة السرية التي أسسها عام ١٨٨٣. وكانت العروة الوثقى هي الإرهاص المباشر بحركة الإخوان المسلمين.

لقد كانت أول منظمة إسلامية عامة فعلية، وتمثل هدفها، كما ذكر الأفغاني في "توحيد المسلمين وإفاقتهم من سباتهم وتعريفهم بالأخطار التي تحيط بهم وتوجيههم إلى سبل مواجهة تلك الأخطار". وضمت دائرة معارف الأفغاني الباريسيين مصريين وهنود وأتراك وسوريين وأشخاصًا من شمال إفريقيا، بالإضافة إلى العديد من المسيحيين واليهود! كما أسس أتباع الأفغاني في مكة منظمة أخرى تحمل اسم "أم القرى" لكن سرعان ما تم قمعها.

ومن بين شركاء الأفغاني في باريس، يمكننا أن نلمح:

مالكام خان، وهو مسيحي أرميني تحول إلى الإسلام الشيعي، وأصبح سفيع بلاد فارس في لندن خلال فترة الثمانينات من القرن التاسع عشر. وكان يعقوب خان، والد مالكام خان، مؤسس المذهب الاسكتلندي من الماسونيين الأحرار في فارس، والشريك المقرب للسيد بلنت.

المرزا محمد الباقر، وهو ماسوني حر آخر، وهو الذي علم إ. ج. براون اللغة الفارسية، والذي اخترع "المسيحية الإسلامية".

القس لويس صابونجي، وهو قس كاثوليكي من شمال بلاد الرافدين، تحول إلى الإسلام وصار المستشار الشخصي للسيد ويلفريد بلنت.

أديب إسحاق، وهو ماسوني حر مسيحي سوري، كان كاتبًا ومناهضًا راديكاليًا لتدخل رجال الدين في الحياة العامة، والذي أدان في أعماله رجال الدين الكاثوليك والمارونيين.

جيمس صنوع، يهودي مصري، وهو الذي علم الأفغاني اللغة الفرنسية، وأسس صحيفة مكرسة للمبدأ القائل بحتمية دخول كل الأديان في "دين الإنسانية" الواحد.

وقد تجمع العديد من البهائيين الفرس تحت مظلة الأفغاني، بعد طرده من الشرق الأوسط.

ولعل ما يصدم حتى المراقب العادي في هذه المجموعة هو أن نذرًا يسيرًا منهم كانوا حتى مسلمين، وكان لكل واحد منهم خلفية اشتراك في حركة "الدين العالمي". لقد بدوا بالكاد مجموعة الأشخاص المناسبين لخلق الحركة الإسلامية الشاملة. أما الأفغاني، الذي لم تكن تأكيداته المتكررة بإيمانه الخاص "بوحدة الأديان الثلاثة" وبقية الجنون الطائفي الذي يمثل البهائية، سوى آراء مسلم متعصب، أخذ يطنطن بنغمة مختلفة في صفحات العروة الوثقى. لقد ذكر الأفغاني أنه لا يمكن لإنجلترا أن تأمل في "خنق صوت المهدي (المخلص الإسلامي)، فهو الصوت الأنقى من بين كل الأصوات، إذ أن قوته أكبر حتى من صوت الحرب المقدسة، الذي يصدر من كل الأفواه المسلمة".

وواصل الأفغاني حديثه: " هل ترى إنجلترا في نفسها القدرة على خنق هذا الصوت قبل أن تجعل نفسها مسموعة في كل الشرق، بدءًا من جبال الهيمالايا حتى دولاغير، ومن الشمال إلى الجنوب ، وأن تتحدث مع مسلمي أفغانستان والسند والهند، مُعلنة بفخر مجيء المخلص الذي ينتظره كل ابن من أبناء الإسلام بفارغ الصبر. المهدي، المهدي، المهدي".

لقد كان تأثير العروة الوثيق هائلاً في نطاقه، رغم كونه موجزًا في مدته. فعلى الفور، صار الأفغاني صوت الحركة الإسلامية الشاملة. وبدأت مئات الطوائف المختلفة التي كانت من قبل متناثرة في أنحاء العالم الإسلامي دون قائد، في الاتحاد سويًا تحت لواء الأفغاني. وها قد ازدهرت الجمعيات السرية في سوريا ومصر وتركيا

وبلاد فارس والهند، ولم تعد منعزلة كما كانت من قبل، بل صارت على دراية بأنها كانت جزءًا من حركة موحدة. ورغم أن الأفغاني استهجن البريطانيين علانية في كل كلمة تخرج من فمه تقريبًا، إلا أنه كان عميلاً مكتملاً للبريطانيين، استخدم لندن لإبعاد الأذى عن كل الطوائف الإسلامية المتطرفة تقريبًا.

في خطابه الموجه إلى ويلفريد بلنت، وصف ماكام خان طريقته قائلاً: "لقد ذهبت إلى أوروبا ودرست هناك الأنظمة الدينية والاجتماعية والسياسية للغرب، وتعلمت روح مختلف طوائف المسيحية وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والماسونية الحرة، وتوصلت إلى خطة تشمل الحكمة السياسية لأوروبا مع الحكمة الدينية لآسيا. وأنا أعلم أنه كان من غير المُجدي محاولة إعادة نمذجة بلاد فارس في صيغ أوروبية، وقررت أن أكسو إصلاحاتي الجوهرية عباءة تمكن قومي من فهمها، وهي عباءة الدين". وفي غضون أعوام قليلة، حدثت "إعادة نمذجة" بلاد فارس باندلاع العنف في ثورة ١٩٠٥. وهي نسخة متطابقة مع ثورة ١٩٧٨-١٩٧٩.

وفي عام ١٨٨٥، سافر الأفغاني إلى روسيا ثم إلى بلاد فارس، حيث طلب منه الشاه ناصر الدين أن يصبح رئيسًا للوزراء. لقد ظل ناصر الدين يحكم إيران لمدة أربعين عامًا، ولم يكن من الممكن ألا يطلب من الأفغاني ذلك في ظل الدعم المقدم من البريطانيين. وبعد عام واحد، في ١٨٩٠، أمر الأفغاني بمغادرة البلاد. وهرب القائد الإسلامي الشامل إلى لندن. وهناك قام الأفغاني، بالتعاون مع مالكام خان الذي استقال أخيرًا من منصبه كسفير لبلاد فارس في لندن، بتنظيم خطة سياسية لزعزعة الاستقرار في بلاد فارس، بدأت عام ١٨٩١. واتهم الأفغاني وخان الشاه بتصفية رجال الدين، وأثاروا الراديكالية الشيعية على الملك الفارسي. وذات مرة قام الأفغاني بالتوقيع باسمه، سيد الحسيني، للتأكيد على "الطبيعة الإسلامية" لحركته، والإشارة ضمنيًا إلى أنه من منتسبي آل بيت النبي! وقد أبدى الشاه للبريطانيين عدة مرات اعتراضه على أنشطة الأفغاني، غير أن البريطانيين ذكروا أنه لا يمكنهم السيطرة على تصرفات شخص الخاصة. وأخيرًا في عام ١٨٩٥، قام أحد المقربين للأفغاني باغتيال الشاه ناصر الدين.

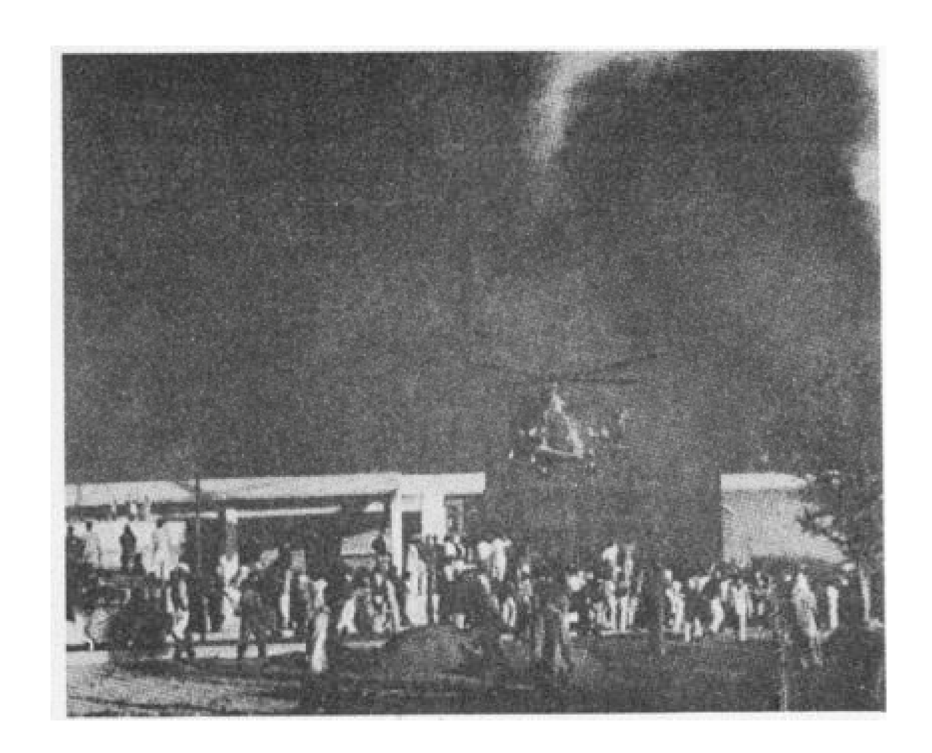
لقد كان الأفغاني صريحًا ذات مرة في ذكر علاقته بالإمبراطورية البريطانية. إذ يُروى أنه خلال زيارته للندن عام ١٨٨٤، قدم مقترحًا مذهلاً للبريطانيين: إذا كانت لندن ستنسحب من السودان، حيث يقاتل المتمردون في وادي النيل الاحتلال البريطاني، فإن الأفغاني قد يرتب لمعاهدة عسكرية برعاية بريطانية مع تركيا وبلاد فارس وأفغانستان، ضد روسيا!

وفي عام ١٨٩٧، تُوفي الأفغاني، غير أن الحركة التي أسسها تحت شعار الإسلامية الشاملة لم تمت. بل استمرت في الانتشار كوباء طوال القرن التالي.

ولنعرف كيف ضربت هذه الحركة بجذورها، يجب أن نعود الآن إلى مصر، وتأسيس جماعة الإخوان المسلمين.

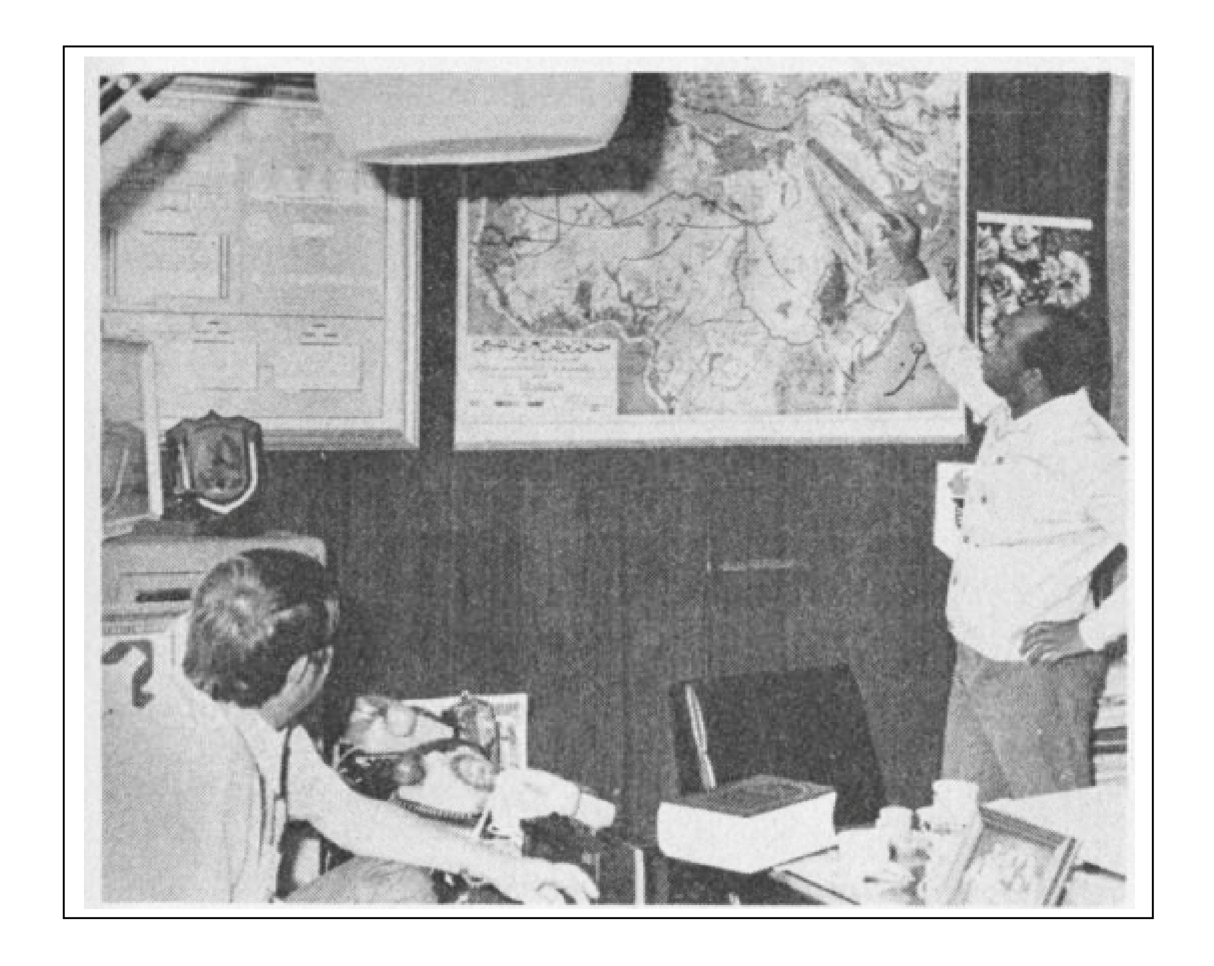


مارس ١٩٨٠: زبيغنيو بريجنسكي في رحلة إلى باكستان لاقتراح تحالف عسكري مع نظام ضياء.



نوفمبر ١٩٧٩: مروحية عسكرية باكستانية تحلق فوق السفارة الأمريكية التي أحرقتها ثلة من "الأصوليين الإسلاميين" بتحريض خفي من حكومة ضياء.

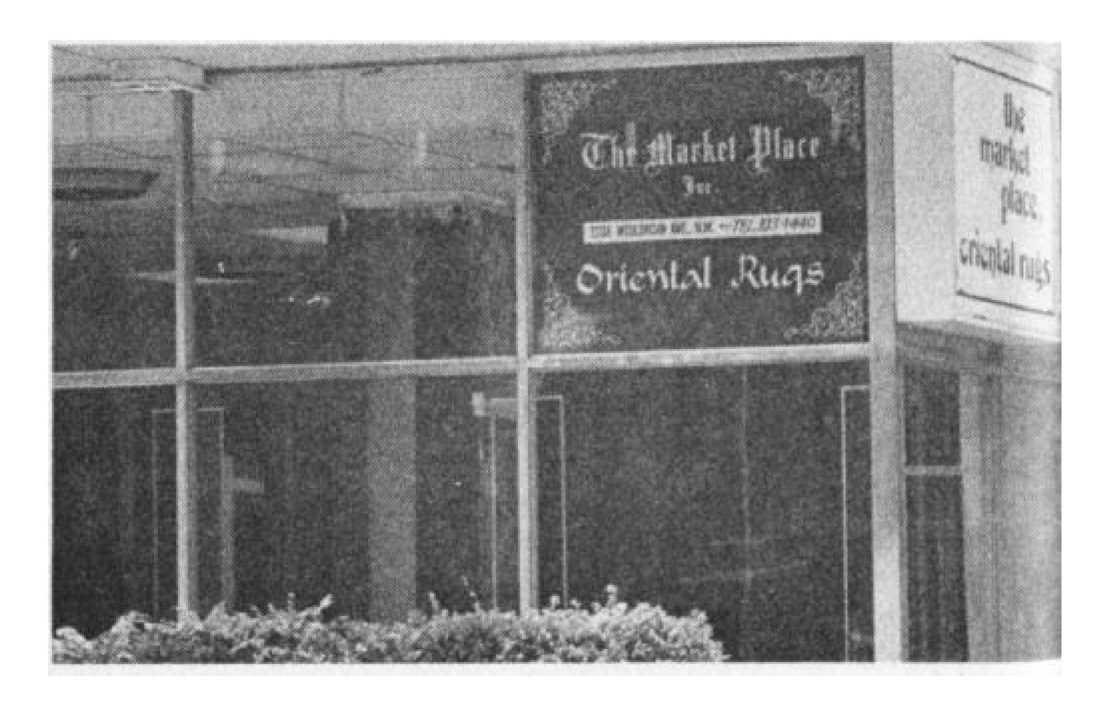
خيانة في الولايات المتحدة



بيلي كارتر أثناء تعلم الاستراتيجية من أحد مسؤولي نظام القذافي في ليبيا، وهي دولة أخرى شهدت إحراق السفارة الأمريكية أواخر العام ١٩٧٩.

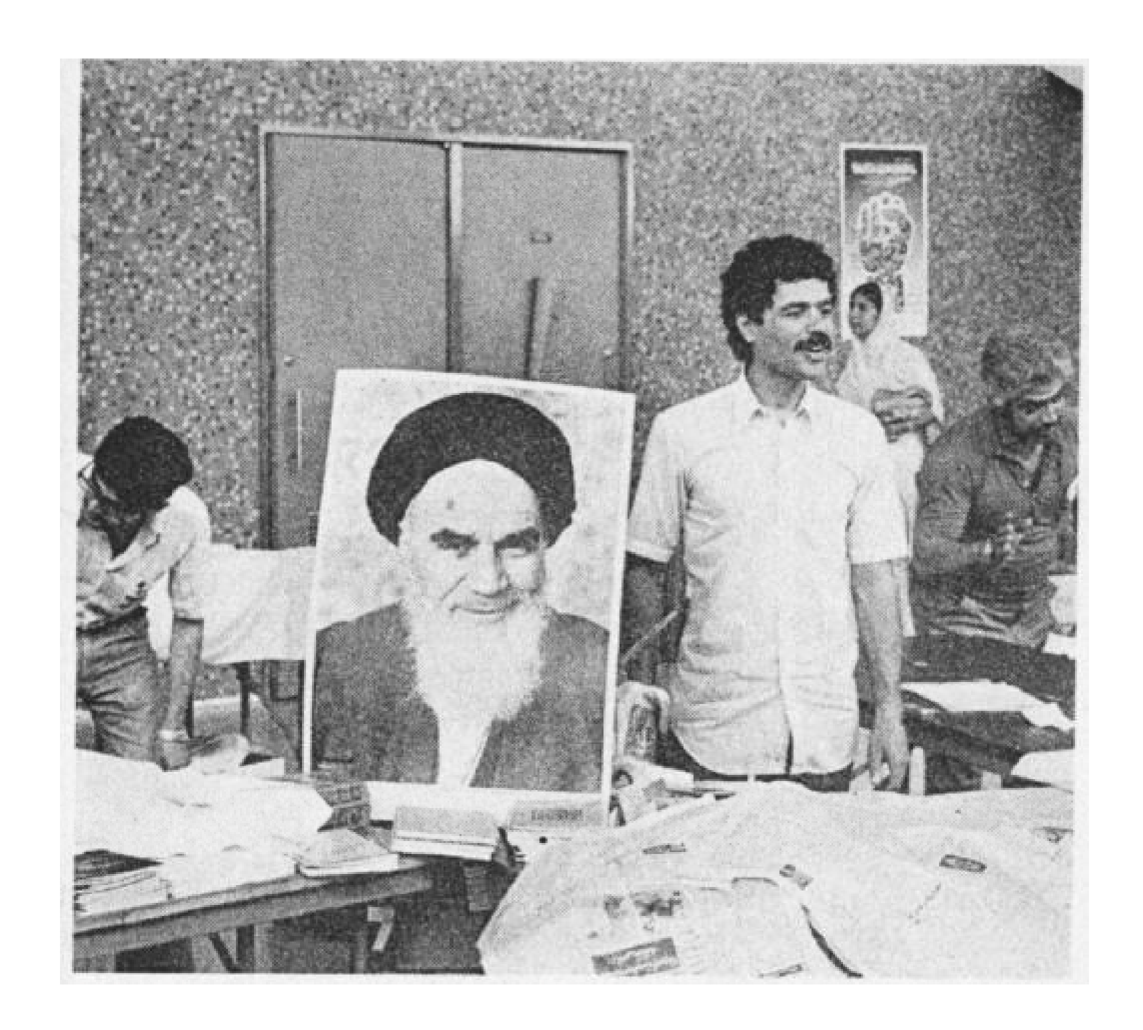


مكتب البحرية الأمريكية في مبنى البحوث البحرية في واشنطن دي سي، حيث مكث جاسوس الخميني – الكابتن سيافاش ستوده – في مجمّع المكاتب مدة أشهر بعد الإيقاع بالرهائن.

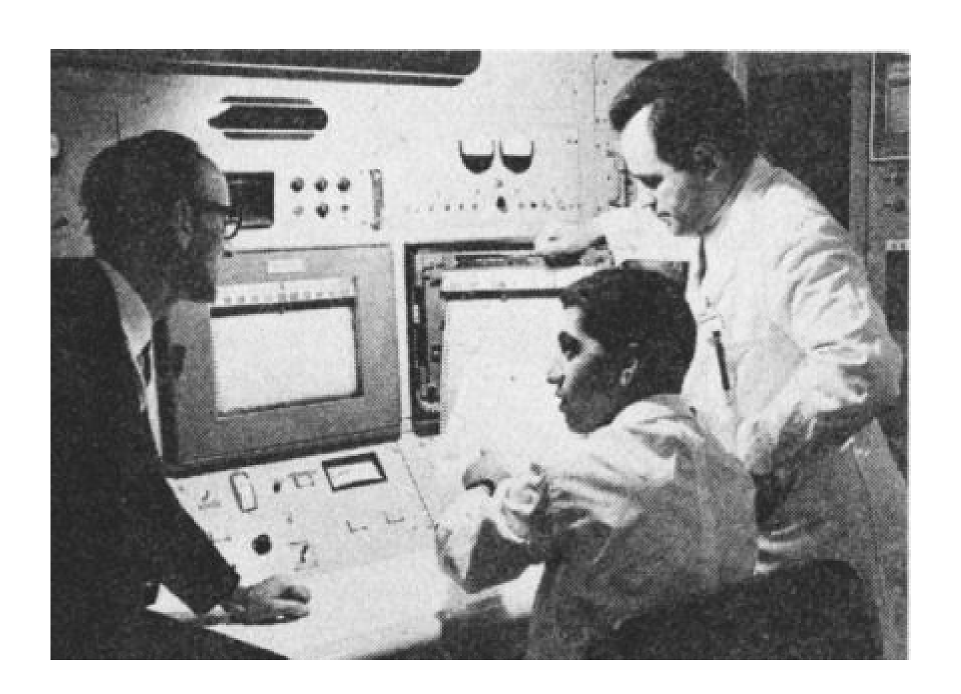


واجهة توكيل السجاد في العاصمة واشنطن دي سي لصاحبه باهرام ناهيديان – قائد عمليات وزارة الاستخبارات والأمن الوطني الإيرانية (سافاما) في الولايات المتحدة إبّان حكم الخميني، وهو كذلك موجه الجاسوس ستوده و"فرق الاغتيالات" التابعة للخميني.

خيانة في الولايات المتحدة



"اتحاد الطلاب المسلمين" ... ذراع جماعة الإخوان المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، أثناء عقده مؤتمرًا وطنيًا في ميامي، أوهايو، خلال شهر مايو ١٩٨٠. يدار هذا الاتحاد من أوله لآخره من الجماعة في الخارج، أما تمويله فيأتي من إيران عبر شبكات باهرام ناهيديان.



إيران، ١٩٦٨: دخول العصر النووي. زيارة إلى المركز النووي في جامعة طهران من خبير تابع للوكالة الدولية للطاقة الذرية.

نظير "بول بوت" (زعيم الخمير روج) في إيران



إيران، ١٩٨٠: مدمنو الهيروين في طهران. فاقت إيران وباكستان في عام واحد منطقة جنوب شرق آسيا مجتمعة ليصيرا أكبر مصدر للأفيون في العالم.

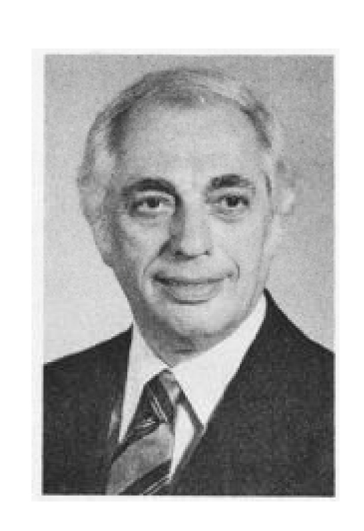


إيران، ١٩٧٩: عبّاد مهتاجون يطبّرون (يجلدون أنفسهم) بالقرب من السفارة الأمريكية.



إيـــران، ١٩٨٠: المنظومـــة الاجتماعية للخميني – عودة إلى مفهـوم "الهـدم" في القـرن الثاني عشر وفق فكر الغزالي.

الخونة المتطرفون ...



برنارد لويس من جامعة برينستون، مؤلف "مخطط تقسيم دول الشرق الأوسط

رامزي كلارك، حلقة الوصل بين كارتر والخميني قبل سقوط الشاه وبعده



ريتشارد فولك في برينستون؛ منظم ومناصر أساسي للخميني في إيران والولايات المتحدة

... والخونة "المؤسسيون"



الجنرال الأمريكي طيار روبروت إي هيوزر، مبعوث حلف الناتو الذي لامه الكثير من الإيرانيون لاحقًا لإضعافه موقف بالشاه.



جورج بول عضو مجلس العلاقات الخارجية الذي تولى تنسيق الجانب السياسي من "التحول صوب الحياد" على يد هيوزر.



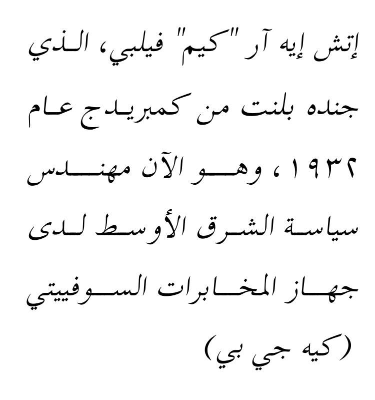
آنتوني بلنت، قيّم على الفنون في خدمة جلالة الملكة، ومنظّر للثورات الكهنوتية، وفي بعض الأحيان "جاسوس سوفييتي".

العملاء البريطانيون



تلاميذ بلنت: مجانين "الطليعة" في كمبريدج عام ١٩٣٢.





إتش إيه آر "كيم" فيلبي، الذي جنده بلنت من كمبريدج عام ١٩٣٢، وهو الآن مهندس سياسة الشرق الأوسط لدى جهاز المخابرات السوفييتي (كيه جي بي)



المؤرخ أرنولد توينبي، مفكر لدى المخابرات البريطانية، من أذناب بلنت وفيلبي وآخرين.

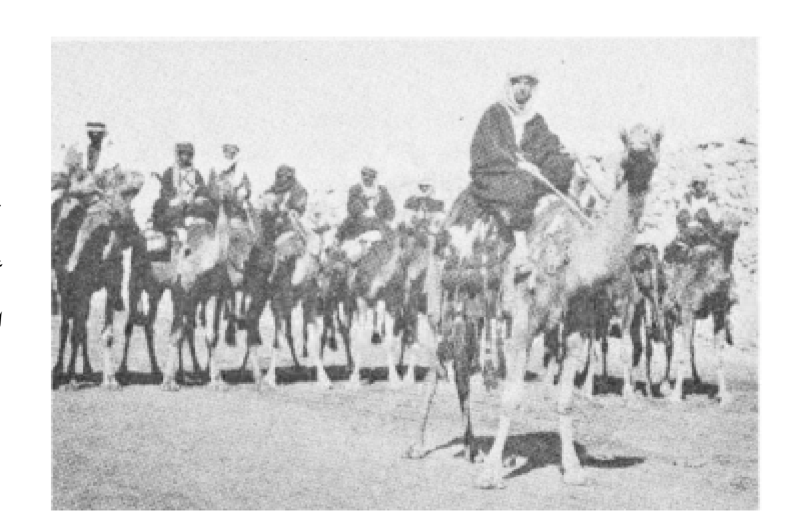
أعداء تاريخيون



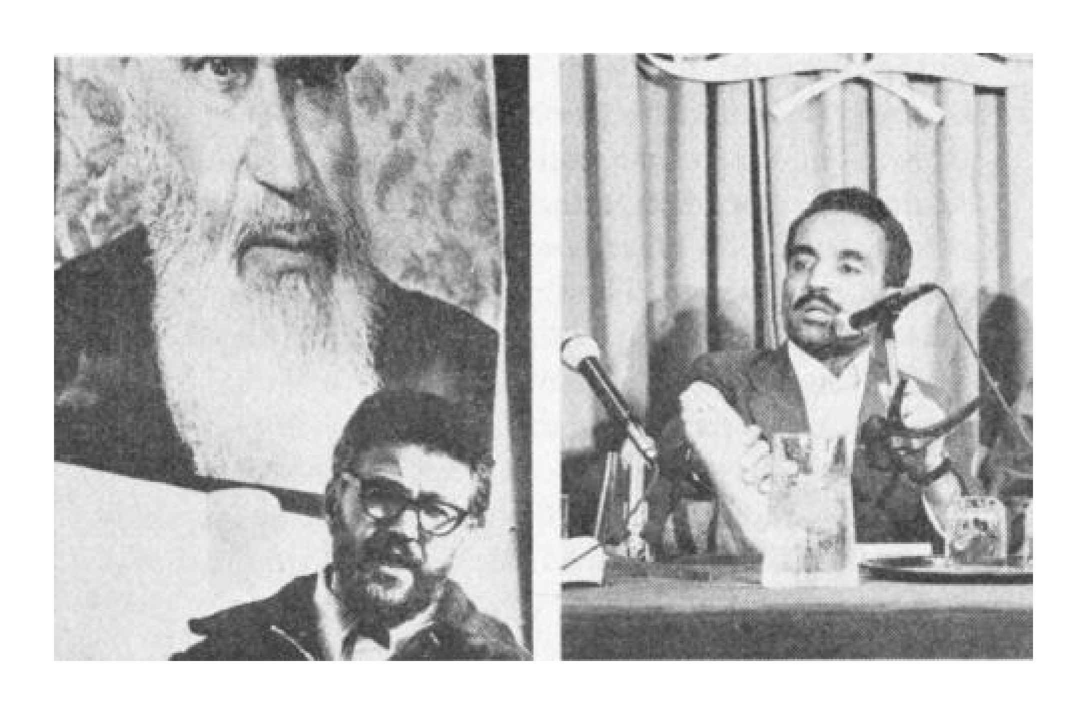
كمال أتاتورك، الوطني مؤسس الجمهورية التركية الذي تأسس تنظيم الإخوان المسلمين لمواجهة تأثيره الكبير.



الإخوان المسلمون رهن الاعتقال في مصر بعد محاولة اغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر في ١٩٥٤.



المستعرب البريطاني إتش ست جون فيلبي (والد "كيم" فيلبي) علـى ظهـر جمـل في الصـحراء العربية، ١٩١٧.



"الأصولية الإسلامية" في الوقت الحالي: عالم البيئة المدرب أمريكيًا إبراهيم يزدي (يسـار)؛ ورئـيس الـوزراء الإيراني المتعصب رجائي (يمين).

(٦)

الإخوان المسلمون -٢-:

المقر في مصر

بدأ السادة المهندمون في التوافد إلى قاعة الاجتماعات واحدًا تلو الآخر، وأخذ كل منهم مقعده وبدأ ينفث دخان غليونه أو يقلب أوراقه في انتظار باقي أعضاء الاجتماع. وفي الخارج كان هواء لندن يبعث أولى نسماته الباردة: كان ذلك في ٢٩ من أكتوبر عام ١٩١٨، وكانت إنجلترا خرجت منتصرة من ذلك الحدث المشئوم، الذي أُطلق عليه اسم الحرب الكبرى. والآن، هناك أمور مُلحة ينبغي الالتفات لها. وكان أول من دخل إلى الغرفة اللورد كارزون، وزير الخارجية الاستعماري، الذي تُعد معلوماته عن الشرق الأوسط مفيدة في اجتماع اليوم. ثم تلاه الأرستقراطي روبرت سيسيل، التي تشير مشيته إلى إدراكه لمدى هيمنة عائلته المستمرة لمدة ٣٠٠ عام على السياسة الإنجليزية؛ ثم تبعه سريعًا ابن عمه، آرثر لورد بلفور، ووزير دفاع جنوب إفريقيا الجنرال سماتس، وإدوين مونتاج وزير الخارجية لشؤون الهند واليهودي الوحيد في الغرفة؛ ومارك سايكس، عبقري الشرق الأوسط في مكتب الخارجية. وفي نهاية الموكب جاء وفد مبهر من المخابرات العسكرية.

تحدث لورد كارزون أولاً: "ما الذي ينبغي فعله بشأن ذلك الاتفاق البائس الذي يبدو الفرنسيون راغبين بشدة في الالتزام به؟ كان كارزون يتحدث عن اتفاق سايكس-بيكو، الذي تم الاتفاق عليه سرًا عام ١٩١٦ بين لندن وباريس، والذي بموجبه وافقت لندن – طبقًا لأكثر بنود الاتفاق مدعاة لندمها– على أن تهب فرنسا سوريا ولبنان بنهاية الحرب.

يدخل ت. إ لورنس إلى الغرفة. ورغم أنه ليس من الطبقة الأرستقراطية، إلا أنه لم ينزعج من المجموعة الرائعة من النبلاء البريطانيين المجتمعين هناك، إذ تم تدريب لورنس على يد الأرستقراطيين ولطالما عمل لصالحهم: الدراسات الكلاسيكية في جامعة أكسفورد، والتدريب الشخصي في المخابرات على يد دكتور ديفيد جورج هوجارث، المؤلف وعالم الآثار والمستشرق وأمين متحف أشمولين في أكسفورد. لقد كان هذا منذ سنوات طويلة؛ ومنذ الحرب، رُشح هوجارث لرئاسة المكتب العربي الراقي التابع للمخابرات البريطانية في القاهرة، حيث طوي لورنس تحت جناحه. والآن جاء لورنس من القاهرة ليفسر للسادة المجتمعين استراتيجيته للتعامل مع الفرنسيين.

يعتقد كارزون أن لورنس ما هو إلا هاوٍ، ومن ثم قرر سيسيل وكارزون وبقية الحضور تعيين أرنولد تونيبي لرئاسة قوة العمل الخاصة المكلفة بالإشراف على ما تقوم به بريطانيا من تفكيك للإمبراطورية العثمانية، غير أن التصرفات الفرنسية تمثل حاليًا لغزًا محيرًا. وسيعمل إلى جوار تونيبي وينستون تشرشل، الذي يعتقد كارزون بقدر من الانزعاج، أنه جعل الشرق الأوسط إقطاعه الخاص. أما بالنسبة للورنس "العرب"، فلعله كان أفضل ضابط

مخابرات ميداني في جهاز الخدم السرية لبريطانيا في السنوات العديدة الماضية، لكنه لا يزال ضابطًا ميدانيًا، ومع هذا، يرى كارزون أن ما يقوله الرجل منطقي. وسيسعد لورد كرومر العامل في مصر وإ ج. براون بهذا.

وكان ت. إ. براون يقول "لو كان من المقدر لسلطان تركيا أن يختفي، فإن الخلافة ستؤول بإجماع المسلمين إلى عائلة النبي، والتي يمثلها حاليًا حسين، شريف مكة". ثم تنحنح وقال: "تبدو أنشطة حسين مفيدة لنا، لأنها تتماشى مع أهدافنا القريبة، المتمثلة في تفكيك الكتلة الإسلامية والقضاء على الإمبراطورية العثمانية، ولأن الدول التي سيؤسسها لخلافة دولة الأتراك ستكون غير مضرة لنا، كما كانت تركيا من قبل. وإذا تم التعامل مع الدول العربية بالشكل المناسب، ستظل في حالة من التفتت السياسي، بحيث تمثل نسيجًا من المراكز الرئيسية الغيورة الغير قادرة على الترابط، ولكنها ستظل مستعدة دومًا للاندماج ضد أي قوة خارجية."

اتخذ المجلس قرارًا مؤقتًا بدعم خطة لورنس ولو بصفة جزئية على الأقل، على أن تُجرى مناقشات مع أعضاء المائدة المستديرة. وانتهى الاجتماع. وعادة لا تخضع توصيات المكتب العربي الذي يديره لورنس للمناقشة من جانب حكومة جلالة الملكة، وتبدو هذه الخطة تحديدًا مقبولة بشكل خاص. فباستبعاد تركيا والقضاء على السلطة الإسلامية المركزية الوحيدة القائمة، والممثلة في منصب الخليفة المهيمن على السلطة منذ قرون، فلن يكون هناك أي احتمال أن يحظى الألمان أو الروس – وهم أصحاب تأثير ضعيف في تركيا على أية حال – بالسيطرة على الآلية السياسية للمسلمين. وبنفس المنطق، فإن القبائل العربية في الحجاز، الموالية لحسين، ما هي إلا إقطاعيات للمكتب العربي في لندن. ومع سيطرة المخابرات البريطانية على الخلافة الجديدة، سيكون العالم الإسلامي فعليًا تحت توجيه المكيين الموالين لبريطانيا.

ومن ثم يولد التحالف الجغرافي السياسي لبريطانيا العظمى مع الأصولية الإسلامية.

وبالطبع لم يكن الأمر بهذه السهولة. وقطعًا تحولت القاهرة خلال الثلاثين عامًا الماضية إلى المقر الفرعي الإقليمي للمخابرات البريطانية، وكانت عملية معقدة. وخارج القاهرة، وبتمويل من الذهب البريطاني، سيطر المكتب العربي على مجموعة كبيرة مختلفة من الحركات الأصولية الإسلامية. وكان كل ما احتاجه هو التمركز النهائي لتوفير قدر أفضل من التنسيق للتغييرات التكتيكية في سياسة الإمبراطورية البريطانية، غير أنه تم وضع أساس لا يُقدر بثمن.

ولنأخذ على سبيل المثال أخوية السنوسي.

فعن طريق أخوية السنوسي، الكائن مقرها في القاهرة، أنشأ المكتب العربي معاقل للتأثير البريطاني تزيد من رقعة أعمق حالات التخلف الموجودة في وسط إفريقيا.

كان محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني هو مؤسس النظام السنوسي للإخوان، وقد وُلد في مكان ما في الجزائر في الثمانيات من القرن الثامن عشر. ودرس السنوسي في جامعة القيروان في فاس في المغرب،

وفي عام ١٨٢٩، انتقل لتأسيس جمعية سرية من الباطنية الصوفية في الصحراء الكبرى، على غرار نموذج التعاليم القديمة للرهبان المسيحيين. وكان شعار الحركة "الوحدة الإسلامية"، وانتشرت تدريجيًا في تونس وطرابلس وبرقة (في عام ١٩٥١ اتحدت طرابلس وبرقة لتكونا دولة "ليبيا"). وفي غضون سنوات قليلة، سافر السنوسي إلى مكة في شبه الجزيرة العربية. وفي هذه الرحلة، استطاع السنوسي ورفاقه تأسيس "أخوية السنوسي".

ورغم أن من الواضح أن نشأتها كانت في شمال إفريقيا، كان هناك قدر كبير مشترك بين الحركة السنوسية وبين طائفة أصولية مماثلة تجمع الأنصار في شبه الجزيرة العربية: وهي الحركة الوهابية. وكان كلا من الحركة السنوسية والوهابية يعكس تأثير التيارات الباطنية الصوفية الأصولية المتدفقة حينئذٍ من الهند البريطانية.

وفي عام ١٨٣٠، غزا الفرنسيون الجزائر. وكرد فعل على ذلك، قامت الإمبراطورية العثمانية بغزو ليبيا مًجددًا. وعاد السنوسي من شبه الجزيرة العربية واليمن، التي صار له فيها فرع للأخوية، إلى شمال إفريقيا باتجاه الجزائر. غير أن الفرنسيين، الذين بدا أنهم يؤمنون بأن السنوسي يمثل محرضًا خطيرًا لصالح البريطانيين، أعاقوا دخوله إلى الجزائر، وأُجبر على التوقف في ليبيا، حيث أسس مقره الرئيسي في برقة. ومن ثم، على ساحل البحر المتوسط بالقرب من مصر، توجه السنوسي إلى الزاوية البيضاء، التي صارت المأوى الأساسي للحركة. وفي عام ١٨٥٣، نقل مقره الرئيسي جنوبًا إلى واحة الجغبوب في وسط الصحراء، حيث أسس جامعته الإسلامية الطائفية. ويقع هذا المقر في مكان ناءٍ في طريق التجارة البدوي في الصحراء القديمة الذي يربط بنغازي إلى مناطق في إفريقيا الوسطى، بما في ذلك مدينة وادي، التي كان سلطانها محمد الشريف واحدًا من الحلفاء المكيين القدامى للسنوسي منذ العشرينات من القرن التاسع عشر.

ومع مرور السنوات، نمت حركة السنوسي. وبحلول عام ١٨٨٢، كان هناك ثمانية وثلاثين في برقة، وسبع عشرة زاوية في مصر، وثماني عشرة في طرابلس، بالإضافة إلى زوايا أخرى متناثرة في صحراء شمال إفريقيا. وكان إجمالي أتباعه يتراوح بين ١,٥ و٣ ملايين إخواني. وفي تصرفاتها، كانت الحركة مناهضة لفرنسا، وساندت المتمردين في الجزائر ضد المستعمرين الفرنسيين– في حين رفضت مساعدة المهدي في السودان، الذي كان يقاتل ضد الجنرال البريطاني تشارلز جوردون في الخرطوم في التسعينات من القرن التاسع عشر. وفي عام ١٨٩٤، نقلت الحركة السنوسية مقرها إلى واحة الكفرة في قلب الصحراء الليبية. ومن هناك، شن السنوسي حربًا مستمرة ضد الفرنسيين بدءًا من الجزائر وتونس وحتى وسط إفريقيا.وقد شن محمد المهدي، ابن السنوسي، حرب عصابات على الفرنسيين من معسكر عسكري في بحيرة تشاد.

وحتى هذه الفترة، كانت أخوية السنوسي مجرد مساعد بسيط لعمليات المخابرات البريطانية في العالم الإسلامي. غير أنه في عام ١٨٩٧، قام ويلفريد سكاوين برحلة شاقة إلى واحة السنوسي في إفريقيا. وخلال السنوات العشرين التالية، أعطى البريطانيون قدرًا متزايدًا من الاهتمام بالحركة السنوسية. وفي عام ١٩١٦،

وعقب وفاة محمد المهدي، صار إدريس الشاب قائد أخوية السنوسي. وفي عام ١٩٥١، أُعلن الملك إدريس الأول على ليبيا في احتفال بالأمم المتحدة.

وعقب الحرب العالمية الأولى، تم اعتبار أخوية السنوسي رسميًا أحد أصول المكتب العربي البريطاني في القاهرة، وتم إرسال عميل جرئ من عملاء المخابرات البريطانية إلى طرابلس للمساعدة في تنظيم العمل السياسي للحركة، وكان اسم هذا العميل عبد الرحمن عزام. وبعد سنوات عديدة، صار أول أمين عام لجامعة الدول العربية التي ترعاها بريطانيا، عقب الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن أخوية السنوسي سوى واحدة من العمليات التي أشرف عليها المكتب العربي من مركز قيادته الكائن في القاهرة. ومن بين كل الدول العربية، كانت مصر هي الدولة الوحيدة التي احتلتها القوات المسلحة البريطانية وحكمها معتمد بريطاني، فمصر ذات الموقع المتوسط في العالم العربي والعدد الأكبر من السكان بين كل الدول العربية، وهي تطل منفردة على قناة السويس، التي تعد شريان الحياة للإمبراطورية البريطانية ونقطة انتقال قواعدها البحرية في جبل طارق ومالطة وكريت وقبرص في البحر المتوسط إلى المحيط الهندي و"شرق السويس".

ولطالما كانت الطبقة الأرستقراطية البريطانية مغرمة بتاريخ مصر، وبخاصة أسرار مصر القديمة المتمثلة في الأهرام والفراعنة. كما كان المذهب الاسكتلندي الماسوني الحر مولعًا بالطوائف المصرية القديمة ومعبد القدس، اللذان يمثلان كلاهما المذاهب الباطنية للجمعيات الماسونية البريطانية. وبالنسبة لرجال مثل سيسل وكارزون واللورد كرومر، كان غموض مصر مصدر جذب بالغ القوة.

ومنذ إقامة الأفغاني في القاهرة في الفترة بين ١٨٧١ و١٨٧٩، جعلت المخابرات البريطانية ومستشرقو أكسفورد وكمبريدج من مصر مقرًا نشطًا للحركة الأفغانية. وامتلك الأفغاني نُزلاً يستقبل وفود الطلاب الأصوليين السوريين والأصوليين الإغريق والمسيحيين العرب من لبنان والإسكندرية في مصر؛ وقادة عشائر الصحراء الليبية والسلاطين المسلمين الأفارقة، وجنرالات الحرب اللبنانيين المارونيين، وشيوخ الجزيرة العربية والباطنيين الصوفيين من بلاد فارس وأفغانستان والطوائف الإسلامية الهندية المجهولة والجمعيات السرية. لكن العامل الأهم هو أن الأفغاني والمخابرات البريطانية قد أسرا روح مصر، ففي ظل القبضة الحريصة للورد كرومر، سليل عائلة بارنج المصرفية الشهيرة والذي كان لورد مصر قبل الحرب العالمية الأولى، تم وُضع سُم التعصب الإسلامي والليبرالية البريطانية والنهضة الطائفية المصرية للنخبة القومية الناشئة في مصر، وهو سمٌ لم تتخلص منه الأمة المصرية بعد رغم مرور مائة عام بالضبط على ذلك.

كانت مصر مأوى تلميذ الأفغاني النجيب، محمد عبده.

في عام ١٨٧١، عندما وصل الأفغاني إلى القاهرة لتقلد منصبه في جامعة الأزهر، انجذب محمد عبده إلى الدائرة المقربة من الأفغاني. ورغم أنه لا يزال في العشرينات من عمره وأصغر سنًا بكثير من الأفغاني، أصبح

محمد عبده أقرب المقربين إلى سيده، وعندما أجبر الأفغاني على مغادرة مصر عام ١٨٧٩، تبعه محمد عبده إلى لندن وباريس بعد سنوات.

كانت حياة محمد عبده بمثابة انغماس كامل في الطائفة الصوفية، إذ كان محمد عبده يصوم ويدرس طوال اليوم، في حين يقضي الليل في الإنشاد وقراءة القرآن. وها هو تبنى مذهب الباطنية الصوفية، إذ يرتدي رداءً خشنًا ويسير حافي القدمين، بينما عيناه موجهتان للأرض دون أن يتحدث إلى أحد. وطبقًا لشهادته الخاصة، كان في بعض الأحيان يفقد كل اتصاله بالواقع ويدخل في حالات من النشوة، إذ يتنقل في عالم خيالي ويتحدث مع أرواح أشخاص وافتهم المنية منذ أزمان بعيدة.

وفي ظل تأثير الأفغاني، بدأ محمد عبده يتخلى عن بعض صفاته الشاذة، وبدأ يناصر العلوم والمنطق. وبعيدًا عن الباطنية الصوفية، بدأ في استيعاب أعمال أرسطو ورواد الإمبراطورية البريطانية، وكان مغرمًا على وجه الخصوص بجون ستوارت ميل، الذي صارت مقالاته واسعة الانتشار بين قادة الحركة الإسلامية الشاملة الأوائل.

وعقب رحيل الأفغاني القسري، تم ترشيح محمد عبده على نحو غير متوقع رئيسًا لتحرير مجلة الجريدة الرسمية، وهي الجريدة الرسمية الصادرة عن الحكومة المصرية والخاضعة للسيطرة البريطانية. وما كان مثل هذا المنصب ليُمنح لشخص مثل محمد عبده لولا صلته "بالجمعية السرية" للأفغاني – التي طُرد المسؤول الرسمي عنها، جمال الدين الأفغاني – وهو بيان لمدى الثقة التي وضعتها لندن فيه.

وكان ممن عملوا مع محمد عبده، كمساعد له، سعد زغلول، ذلك الرجل الذي قاد الحركة القومية المصرية وحزب الوفد بعد الحرب العالمية الأولى!

وفي عام ١٨٨٣، لحق محمد عبده بالأفغاني في باريس، ثم سافر إلى لندن، حيث قضى بعض الوقت في إلقاء المحاضرات في جامعتي أكسفورد وكمبريدج، والتشاور مع المسؤولين البريطانيين بشأن الأزمة في السودان. وفي باريس ولندن، كان محمد عبده ذراع الأفغاني اليمنى في تنظيم العروة الوثقى، وكانت مهمة محمد عبده التعامل مع اتصالات الجمعية بين العرب، في حين ركز الأفغاني على الأتراك والفرس والهنود.

وعندما قام الفرنسيون بقمع جريدة العروة الوثقى وانفصل الأفغاني ومحمد عبده، وسافر الأفغاني إلى روسيا، حيث اختلط بأصحاب مذهب الفوضى والمنظمين المناهضين لحركة (سلاف) ومسلمي روسيا وغيرهم ممن قد سيمثلون منفعة للبريطانيين لاحقًا في "خطة بارفاس" الشهيرة، وسافر محمد عبده إلى العالم العربي. وظل محمد عبده لأعوام عديدة يسافر مستترًا بأقنعة عديدة إلى كل أنحاء العالم العربي، مركزًا على تونس وبيروت. وفي كل محطة، كان ينظم خلية من خلايا الجمعية السرية ويرسخ مبادئه المستقاة من مبادئ الحركة الإسلامية الشاملة للأفغاني.

كان محمد عبده ينادي بمذهب التبسيط، لكنه كان يوضح لأتباعه قدرًا كبيرًا من طبيعة المسارات المعادية للأديان التي يتبعها المذهب الاسكتلندي، ومنهجه في الدعاية لوحدة الجنس البشري في "عالم واحد". وكان محمد عبده يرتب للقاء الواعدين من تلاميذه مع أحد ضباط المخابرات البريطانية في لندن. وبهذه الطريقة، استكشف محمد عبده شبكة أنصار الأفغاني بأكملها، التي شملت مسيحيين لبنانيين وسوريين، ويهودًا في مصر وفي أماكن أخرى، وممثلين للعديد من طوائف الأقلية والمجموعات العرقية في المنطقة.

أما الجانب العلني من مهمة محمد عبده فتمثل على الدوام في الوعظ بمبادئ الأصولية الإسلامية، حيث ذكر محمد عبده أنه ليس بإمكان العالم الإسلامي المفكك والمتهاوي أن يتقدم إلا بعد التوحد مجددًا تحت حكم خليفة واحد. وألقى محمد عبده باللائمة على مختلف حكام الأمم الإسلامية والمؤسسات الدينية – التي كانت في معظم الحالات تتلقى تمويلات من قادة سياسيين – في المأساة التي حلت بالعالم الإسلامي على مدار القرون السابقة. وكانت جمعياته السرية مكرسة للثورة الإسلامية.

ويتضح السر البريطاني وراء الثورة الإسلامية في كتابات محمد عبده، مثل: "إن العلاج الناجع لأسقام الدول الإسلامية لن يكون في تعددية الصحف إذ أن لها قدرًا يسيرًا من التأثير، ولا في بناء المدارس وفق النموذج الأوروبي، إذ يمكن استخدام تلك المدارس والعلوم التي تُدرس فيها لتعزيز التأثير الأجنبي، ولا في التعليم الأوروبي ومحاكاة العادات الأجنبية، إذ أن تلك المحاكاة لم تنجح سوى إخماد روح الناس وفرض سيطرة الأجانب على تلك الدول. ومن ثم فالحل الوحيد لتلك الأمم هو أن ترجع إلى أحكام دينها."

وفي عام ١٨٨٨، عاد محمد عبده إلى مصر وحصل على عفو شخصي على جرائم التحريض التي نُفي بسببها من مصر على يد اللورد كرومر. ومنذ عام ١٨٨٨ حتى وفاته عام ١٩٠٥، كان محمد عبده واحدًا ممن يظهرون في مشهد النخبة السياسية في مصر، وكان يُرى كثير الزيارة لمنزل ومكتب اللورد كرومر. وخلال الفترة من ١٨٩٥ حتى ١٩٠٥، كان كاتم أسرار مصطفي باشا فهمي، رئيس وزراء مصر. وفي عام ١٨٩٢، رُشح لإدارة اللجنة الإدارية لجامع وجامعة الأزهر. ومن هذا المنصب، استطاع محمد عبده إعادة تنظيم النظام الإسلامي بأكمله في مصر، بل وفي كل أنحاء العالم الإسلامي نظرًا لأن الأزهر حينئذٍ كان مركز كل العلوم في الإسلام. وأخيرًا في ٣ يونيو ١٨٩٩، رُشح محمد عبده مفتيًا لمصر.

أعطى المنصب محمد عبده صلاحية هائلة، إذ كان المستشار العام في شؤون العدالة للدولة بأسرها وللحكومة على نحو خاص، في كل الأمور المرتبطة بالإسلام. وعلى مدار السنوات الست التالية، كان يُعين أعضاء جمعيات الأفغاني السرية والمخلصين للعروة الوثقى في كل المناصب الكبرى في الشؤون المصرية الإسلامية، وعمل بلا كلل على تشجيع نمو الحركة السرية، التي شكلت بشكل رسمي بعد نحو عشرين عامًا من وفاته ما يُعرف بالإخوان المسلمين.

ولا شك أن هناك تسلسلاً واضحًا من الأفغاني، الأداة البريطانية، إلى إخوان آية الله الخميني.

بوفاة الأفغاني عام ١٨٩٧ ومحمد عبده عام ١٩٠٥، انتقلت عباءة قيادة الحركة الإسلامية الشاملة إلى محمد رشيد رضا، وهو سوري تلقى تعليمه في طرابلس، وانضم إلى العروة الوثقى في سن صغيرة. وكونه صوفيًا بصورة قطعية، ترقى رضا خلال الجمعية الماسونية الحرة للأفغاني عن طريق قراءته في العروة الوثقى، التي ذكر لاحقًا أنها كانت أعظم مصدر للإلهام في حياته بعد "إحياء علوم الدين" للغزالي. ولم يلتق رضا بالأفغاني مطلقًا، لكنه ذهب عام ١٨٩٧ إلى مصر للدراسة بصحبة محمد عبده.

وبعد عام واحد، بدأ نشر صحيفته الخاصة، المنار، في القاهرة. وأراد رضا لصحيفته أن تكون صوت الحركة الإسلامية الشاملة، على نهج العروة الوثقى، التي ظلت بعض نسخ منها تتداول في باريس بعد عشرين عامًا من إيقاف نشر الجريدة! ومع هذا لم تكن هيئات الجمارك تسمح بدخول نسخ جريدة المنار إلى تركيا وسوريا، نتيجة موقفها الخطير من "الإصلاح الإسلامي".

لقد اقترحت المنار الخطة ذاتها التي ابتكرها لورنس العرب: إنشاء مجتمع إسلامي تحت حكم الخليفة، على أن يكون فرعها الرئيسي في مكة.

وخلال فترة توزيعها، تابعت جريدة المنار بعناية تطور بدايات الإخوان المسلمين، وامتدح رشيد رضا في المنار ثورة الأتراك الشباب عام ١٩٠٨ مدحًا عظيمًا، غير أن الثورة التركية اللاحقة التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك في العشرينات من القرن العشرين قضت على آمال رشيد رضا، الذي انتقد سلوك أتاتورك واصفًا إياه بأنه "محض كفر وردة عن الإسلام، لا يمكن الشك فيها." ومع استمرار القرن العشرين، أدان رشيد رضا إدانة بالغة تباشير القومية المصرية والتركية، وقد رأينا بالفعل كيف استطاع رجال الدين الشيعة الإيرانيون — ومن بينهم الخميني الشاب — تمكين محمد رضا البهلوي من تأسيس جمهورية إيران على غرار نموذج أتاتورك في العشرينات من القرن العشرين.

كان مجرد ذكر اسم أتاتورك يثير الرعب في قلوب أصوليي لندن في العالم الإسلامي، وبخاصة في الخلايا الصوفية التي تم غرسها بصبر في تركيا. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، عمل البريطانيون على إنشاء تحالف بين العديد من الفصائل الصوفية في تركيا، مثل البقتاشي والنقشبندي والمذهب الاسكتلندي الماسوني الحر "الإسلامي الشامل" للأفغاني وأتباعه. وسويًا شكل هذا التحالف البريطاني الهدام ما يسمى "بلجنة الاتحاد والتطور" وجماعة "الأتراك الشبان." كما نجحت الطوائف الصوفية في إحكام قبضتها على الأكراد شرقي تركيا، وهي أقلية عرقية مثيرة للمشاكل انتقلت إلى العراق وتركيا. وتمت إحاطة مئات الآلاف، بل الملايين من الأتراك والأكراد الأتراك بعباءة الباطنية والخرافات. وكانت هذه هي التربة الخصبة لما عُرف باسم "الدراويش الدوامة" وكان هذا هو التخلف الذي شن أتاتورك الحرب عليه.

وعقب وصوله للحكم، أعلن أتاتورك عام ١٩٢٥ أنه منذ هذه اللحظة ستكون تركيا خالية من "الشيوخ والدراويش والأنصار والسلف والسيد والبابا والأمير والباكيب والحليف والعرافين والسحرة والمعالجين بالسحر وكُتاب الأحجبة والتعاويذ لاستعادة الأملاك المفقودة أو تحقيق الأمنيات، بالإضافة إل كل الخدمات والمستحقات والملابس الخاصة بتلك الألقاب والمناصب.

" إن هدف الثورة الذي أنجزناه وننجزه هو الانتقال بشعب الجمهورية التركية إلى مجتمع معاصر تمامًا ومتحضر تمامًا في الروح والشكل. وهذه هي الركيزة الأساسية لثورتنا، ومن الأهمية بمكان أن نهزم تلك العقليات غير القادرة على قبول هذه الحقيقة. وحتى يومنا هذا، لا يزال هناك العديد من تلك العقليات، التي تعمل على تآكل وإماتة عقل الأمة. وعلى أي حال، سيتم القضاء تمامًا على الخرافات التي تسكن عقول الناس، إذ أنه ما لم يتم القضاء عليها تمامًا، لن يكون بالإمكان إدخال نور الحقيقة إلى عقولهم."

"إن طلب العون من الموتى عار على أي مجتمع متحضر. ما هي أهداف الجماعات خلاف تأمين عافية أتباعها في حياتهم الدنيوية المادية؟ إنني أرفض تمامًا الاقتناع بأنه في هذا العصر الحالي، الذي يضيئه نور العلم والمعرفة والحضارة بكل مجالاتها، هناك رجال في مجتمع تركيا المتحضر، بدائيون لدرجة أنهم يطلبون عافيتهم المادية والمعنوية من توجيه شيخ أو آخر. أيها السادة، يجب أن تعلموا أنتم والأمة جميعها أن جمهورية تركيا لا يمكن أن تكون أرضًا للشيوخ والدراويش والأتباع والإخوة. إن الطريقة الحقيقية (تورية يُقصد بها الإشارة إلى استخدام الوصفية لكلمة "طريقة") هي طريقة الحضارة.

لقد قام أتاتورك بتنفيذ سياسته بالقوة، حيث تم إغلاق النُزل ودور إيواء الإخوة، وحل منظماتهم. كما صادرت الدولة أملاكهم، وعاقب الجيش سريعًا أي شخص يحاول الثورة على تلك القرارات.

وكان الإخوان المسلمون يمثلون رد بريطانيا على تحدي أتاتورك.

وُلد مؤسس الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٠٦. وكما هو الحال في معظم مَن سبقوه في الطائفة الأصولية البريطانية، تلقى المبادئ الباطنية الصوفية في سن مبكرة، وسرعان ما أُلقي القبض عليه ضمن شبكة الأفغاني ومحمد عبده في القاهرة. وكان اسمه حسن البنا، وقبل قتله عام ١٩٤٩، كان قد نجح في بناء منظمة مرهوبة الجانب في كل أنحاء العالم الإسلامي.

كان والد البنا، الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، كاتبًا ذا صيت معقول، تلقى تعليمه في جامعة الأزهر على يد محمد عبده. وتنقل البنا، الذي ألحقه والده بالمدارس الصوفية، بالعديد من الجمعيات الدينية المتعاقبة. في سن الثانية عشرة، كان الصبي رئيس جمعية أُطلق عليها "جمعية السلوك القويم"، ثم انتقل إلى "جمعية منع المحرمات". وفي بداية حياته، تعرف على الدوائر الصوفية للإخوان الحصافية، وظل عضوًا بهذه الجمعية السرية لأكثر من عشرين عامًا. وبحلول عام ١٩٢٢، تم قبوله كعضو كامل الصلاحيات في الطائفة الحصافية، وارتدى بفخر عمامة الطائفة وعباءتها البيضاء.

وكانت الغزالي هو شمس البنا الهادية، حيث قرأ البنا كتبه مرات ومرات.

وكان حديث الجمعيات التي انتمى إليها البنا يدور حول خطر النزعة القومية في مصر، المتمثلة في أحزاب ليبرالية مثل الوفد. كما كانوا يراقبون بحذر التطورات في تركيا تحت حكم كمال أتاتورك. وقد شجعت عملية التطور الاقتصادي في مصر وأجزاء أخرى من العالم الإسلامي على نمو عملية التعلم العلمي والمدارس المخصصة للتعليم الفني، وهو ما اعتبره الصوفيون خطرًا داهمًا على "طريقة الحياة الإسلامية." وفي كل مكان كان ينظر فيه أتباع البنا، كانوا يرون فيه علامات "الردة والعدمية" من التيارات التي يُزعم أنها معادية للإسلام، بالإضافة إلى "إضعاف تأثير الدين." ومن ثم قرر البنا تشكيل جماعات مختلفة مخصصة لنشر الإسلام الأصولي بين المصريين العاديين. اتخذ البنا من جامعة الأزهر ومركز دار العلوم للتعليم العالي مقرًا له، ونظم "المعاهد الشعبية" لمواجهة دعاية الإصلاحيين.

غير أن الزخم للإخوان المسلمين جاء مباشرة من حزب المنار السائر على نهج الأفغاني ومحمد عبده. ومع مطلع القرن العشرين، ساد حزب المنار مصر. ومن بين أعضائه، كان قادة مجمع جامع وجامعة الأزهر، الذي راهن فيه فصيل محمد عبده على دعوته.

وفي سن الحادية والعشرين، وصل البنا إلى قيادة المنار. ومنذ أواخر العشرينات من القرن العشرين، بدأ يقابل بشكل متكرر رشيد رضا ويتحدث معه لساعات. ومن خلال تأثير الرجل الأكبر سنًا، تأكد للبنا معتقده المناهض للتأثير "الغربي" في مصر، وتقاليد "الفرنجة"؛ كما رفض الزخارف الثقافية الغربية لصالح "ألإسلام الخالص".

وفي عام ١٩٢٧، ساعد البنا في تأسيس جمعية الشبان المسلمين، وسرعان ما تلا تلك الجمعية تأسيس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٩.

أنشأ البنا مقر الجماعة في مدينة الإسماعيلية وهي مدينة ساحلية تخضع لسيطرة شركة قناة السويس البريطانية-الفرنسية. قامت الشركة – الممثل الرسمي للاستعمار البريطاني في مصر – بتمويل الإخوان ومساعدة البنا في بناء أول مسجد له، والذي استكمله عام ١٩٣٠. وفي عام ١٩٣٢، استطاعت إخوان البنا، والتي التحق بها أخوه عبد الرحمن البنا، المطالبة بفروع جديدة في الإسماعيلية وبورسعيد والسويس، وكانت تنتشر بشكل سريع في طريقها إلى القاهرة والإسكندرية.

وعلى مدار السنوات التالية، بدأت جماعة الإخوان المسلمين ترسخ جذورها، مُنتجة العديد من الإصدارات، وكان من بينها جريدة.

وفي أواخر الثلاثينات، كانت جماعة الإخوان المسلمين بلغت من القوة ما يمكنها من إنشاء أول فروعها شبه العسكرية، والذي عُرف "بالكتائب." لقد بدأ الأمر بإنشاء قسم يُعرف "بالجوالة". وتحولت "الجوالة" إلى

برنامج تدريب رياضي لقسم الشباب، وسرعان ما تحولوا إلى جيش خاص. وسار تنظيمهم على نهج أسلوب سرايا موسوليني؛ وفي الواقع كانت أجهزة المخابرات الألمانية والنازية والفاشية الإيطالية تساعد على خلق منظمات مماثلة في العديد من الدول العربية، وتعد كتائب بيير الجميل في لبنان أحد الأمثلة على ذلك.

وفي عام ١٩٣٥، أجرى البنا اتصالات مع مفتي القدس المناصر للنازية والممول من بريطانيا، الحاج أمين الحسيني.

كما رنت أبصار الإخوان وحصلوا على دعم من الملك الفاسد فؤاد وخلفه الملك فاروق، وكلاهما دمية ذليلة للندن، التي جلست على عرش مصر. وبدأ تمويل الجماعة من أموال الدولة. ومثلهم مثل الحزب الفاشي الآخر في مصر، مصر الفتاة، احتفل إخوان البنا بحكم الملك، في حين كانت تُعد سرًا لثورة عنيفة.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، بدأ الإخوان في تأسيس الشبكة الباقية إلى يومنا هذا تحت اسم إخوان لندن. في البداية أقام الإخوان علاقات مع عائلة عزام، بما في ذلك عبد الرحمن عزام؛ وفؤاد سراج الدين قائد الجناح اليميني في حزب الوفد المصري؛ والرئيس المصري أنور السادات، وضباط في الجيش المصري.

وفي عام ١٩٤١، تم تسجيل أول حالة تعاون بين الإخوان وأحد كبار ضباط المخابرات البريطانية، ج. هيورث دان، في سفارة لندن في القاهرة، وكانت هذه هي مجرد البداية.

ومنذ عام ١٩٤٢، بدأ الإخوان في تأسيس جهازها السري المرهوب على نطاق واسع، وذراعها الاستخباراتي الذي سرعان ما تحول إلى ذراع إرهابي شبه عسكري. ومع استعداد الإخوان لمرحلتها الإرهابية، قام الإخوان بتنظيم أنفسهم في خلايا إرهابية.

وفي غضون ثلاث سنوات، بدأ الجناح العسكري في الانتشار، بل والسيطرة أحيانًا على بعض المؤسسات. ومن بين المؤسسات التي تم اختراقها الحزب الشيوعي في مصر، الذي يمثل نموذج التعاون الإخواني–الشيوعي الذي سرعان ما انتشر في كل أنحاء الشرق الأوسط. ويُعد هذا المزيج من "اليسار" و"اليمين" هو الطابع التقليدي لمعهد تافيستوك وجامعة ساسكس في لندن. ويدرك الأمريكيون اليوم أن الحركة "الإسلامية الماركسية" هو التي أوصلت الخميني إلى سُدة الحكم.

ومع اقتراب الحرب من نهايتها، بدأ الإخوان أولى هجماتهم الإرهابية، وتمثل الهدف في تدمير الفصائل المنتمية إلى حزب الوفد القومي والحزب الشيوعي وحركة العمال والجيش والصناعة، التي ربما تشكل سويًّا تحالفًا لطرد البريطانيين من السويس والقاهرة.

وبعد عام ١٩٤٥، تم تأسيس تحالف هادئ في مصر بين القصر والطبقة الأرستقراطية والإخوان المسلمين. وكان العنصر الأساسي في هذا التحالف – والذي يمثل حجز الزاوية في الوجود البريطاني في مصر — هو أنور

السادات. فعقب إطلاق سراحه من السجن عام ١٩٤٤، التقى السادات بحسن البنا، الذي طلب منه التوسط في صفقة بين البنا والملك فاروق.

وكانت همزة وصل السادات بالقصر حينئذٍ هو يوسف رشاد، الطبيب الشخصي للملك فاروق ومدير خدمة المخابرات الملكية، وقد ظل السادات ورّاد أصدقاء مقربين لسنوات عديدة. ويذكر السادات في سيرته الذاتية "البحث عن الذات" رشاد قائلاً: "لقد نشأنا أكثر من مجرد أصدقاء." "لقد صرنا رفيقين متلازمين..... ولا أزال أذكر اليوم الذي أعطاني فيه كتاب الشمولية والحرية والحكومة النيابية، لجون ستوارت ميل، وهو كتاب أثّر في كثيرًا."

وهكذا تم تجنيد السادات في المخابرات البريطانية.

وعن طريق رشاد، عمل السادات كهمزة الوصل بين لندن والملك، المغرم بالبريطانيين وإخوان حسن البنا.

وطوال شتاء ١٩٤٦-١٩٤٧، عمل الإخوان كأداة تخريب سياسية، حيث اغتالوا قادةً من جميع الأحزاب، محاولين بصفة خاصة منع التحالف الوفدي-الشيوعي. ورغم انقسم الوفد نتيجة كثرة فصائله والفساد المستشري فيه، كان يعرض اتهامات قاتلة للتحالف السري بين الملك ورئيس الوزراء صدقي، وإخوان البنا، حيث هاجمت صحافة الحزب "الإرهاب الفاشي" للإخوان، متهمة "كتائب الإخوان" بالبلطجة. وعندما كان الوفد يحاول إنشاء "حكومة أقلية"، كان الإخوان يزعزعون استقرارها ببضع مذابح موجهة بدقة.

في إحدى الحالات، تم اغتيال وزير المالية أمين عثمان باشا عام ١٩٤٦، وسط اتهامات عامة بأنه كان "عميلا بريطانيًا"، ولعل المثير للدهشة أن هذه الاتهامات نُشرت عن طريق المعهد الملكي للشؤون الدولية.

وبلغ إرهاب الإخوان المسلمين ذروته عام ١٩٤٨. وفي هذه النقطة الزمنية، بدأت الحكومة المصرية في الانهيار. وفي البداية، نفى البنا أي صلة لجماعته بالإرهاب، ملقيًا باللائمة على العناصر غير الخاضعة للسيطرة في الحركة. غير أنه في نوفمبر عام ١٩٤٨، أصدر رئيس الوزراء النقراشي باشا أمرًا بحل جماعة الإخوان المسلمين واعتبارها جماعة محظورة. وفي ٢٨ من ديسمبر جاء رد الجماعة، متمثلاً في اغتيال النقراشي. وفي غضون أسبوعين، واصل البنا الهجوم، حيث تبرأ من إنكاره الأول للإرهاب، ودعا الإخوان المسلمين للجهاد.

غير أن النتيجة لم تأت كما توقعها، حيث تعرض البنا للاغتيال في ١٢ فبراير ١٩٤٩.

ومثّل اغتيال البنا صدمة للإخوان المسلمين، لكنها لم تدم طويلاً. ففي السجون، حيث قضى العديد من الإخوان معظم فترة العامين من ١٩٤٩ حتى ١٩٥١، ظل الإخوان على قيد الحياة سرًا، حيث غرس الإخوان الذين تعرضوا للنفي بذور الجماعة في سوريا والأردن وباكستان.

تولى منير الدلة، وهو من كبار ملاك الأراضي المصريين، زمام قيادة الإخوان بعد البنا، وعين الدلة حسن إسماعيل الهضيبي المرشد العام للجماعة، وكان الهضيبي زوج أخت رئيس المقر الملكي.

وفي عام ١٩٥٢، قام الضباط الأحرار بانقلابهم العسكري الذي أطاح بالملك. وكان الانقلاب ثمرة عمل العديد من وكالات الاستخبارات الأجنبية، وبخاصة البريطانية والفرنسية والأمريكية، بالإضافة إلى الإخوان المسلمين، الذين التفوا حول فكر قومي مصري. وكان محمد نجيب، واجهة الضباط الأحرار، مقربًا من الإخوان. غير أنه في غضون سنوات، ازداد التوتر بين الضباط الأحرار والجماعة السرية. وفي فبراير وأبريل عام ١٩٥٣، عقد المرشد العام الهضيبي سلسلة من اجتماعات التآمر بالغة السرية مع تريفور إيفانز في السفارة البريطانية في القاهرة. وطبقًا لوثائق حكومية مصرية رسمية، فإن الهضيبي الذي كان يتصرف بناءً على سلطته الخاصة، أخبر البريطانيين أنه قد يتحالف معهم لمنح بريطانيا العظمى حقوقًا دائمة في قاعدة قناة السويس بعد الانسحاب الرسمي للقوات البريطانية المتمركزة هناك. وتمت الاجتماعات السرية في خضم المفاوضات البريطانية الأمريكية المتأزمة بشأن السويس.

لقد ألقي القبض على الإخوان متلبسين بالجريمة. ومع اقتراب حكومة جمال عبد الناصر من المواجهة مع البريطانيين، قامت لندن بتوجيه الإخوان المسلمين، لإشعال حرب ضد الرئيس القومي، وحصل الإخوان على مساعدة من المخابرات الإسرائيلية في هذا الأمر.

ففي فضيحة كانت لها تداعيات عالمية، دخل فريق من المخربين الإسرائيليين إلى مصر، ووضعوا أجهزة متفجرة في العديد من المكاتب الأمريكية والبريطانية، آملين في إثارة حرب أهلية في مصر تسقط حكم عبد الناصر، غير أن الخطة تسربت وتم كشفها. وأطلقت جريدة الأهرام المصرية وغيرها من الجرائد المصرية على الإخوان المسلمين، التي قامت الحكومة بحلها رسميًا، مِعول المستعمرين "والصهاينة."

ومجددًا لجأ الإخوان إلى الإرهاب.

ففي ٢٦ من أكتوبر عام ١٩٥٤، وبينما عبد الناصر يلقي كلمة أمام حشد كبير من الناس، أطلق أحد أعضاء الإخوان ست رصاصات على الرئيس المصري، غير أنه لم يُصب بأذى. ومع خفوت أصداء الطلقات قال عبد الناصر: " أيها المواطنون، أيها الأحرار...حتى لو قتلوني الآن، فقد غرست فيكم احترام الذات. دعوهم يقتلونني الآن، فقد غرست في هذه الأمة الحرية والكرامة واحترام الذات...تذكروا أنه إن حدث لي شيء، فإن الثورة مستمرة، فكلكم جمال عبد الناصر."

وسرعان ما تلا ذلك عمليات اعتقال وإعدام جماعية للإخوان المسلمين. وفي كل أنحاء مصر، تم اصطياد إرهابيي الإخوان، وفر المئات منهم إلى سوريا والأردن والخليج العربي وباكستان.

لقد تم قمع الحركة في مصر، لكنها وجدت مأوى لها الآن في كل ركن من أركان العالم الإسلامي.

(٧)

الإخوان المسلمون -٣-:

خطر محدق وداهم

أصابت الطالب العسكري السوري الشاب الدهشة. لِمَ دُعي الآن لحضور اجتماع؟ لقد راجع لتوه جدول أنشطة كلية حلب العسكرية، ولم يكن هناك اجتماع للطلبة العسكريين في هذا اليوم. وكان سر هذه الدهشة أن مركز حلب هو واحد من وحدات التدريب الرائدة في سوريًا، التي تحظى بتراث طويل وعريق، وهذه التغيرات وليدة اللحظة في الجدول أمرٌ يخالف ما جرت به العادة. وفي الواقع، كان الطالب الشاب منزعجًا إلى حدٍ ما من اضطراره إلى مخالفة نظامه المعتاد، والسير منهكًا لعبور الساحة وصولاً إلى قاعة الاجتماع.

وبينما هو يغادر المبنى، تعثر في أحد رفاقه، وحينها حدث نفسه بأنه أمر غريب، إذ لم يُدعَ الجميع إلى هذا الاجتماع، بل بضع مئات فقط من الضباط العسكريين الشباب الواعدين في وحدته والعديد من الوحدات المجاورة.

وبدأت مجموعات الضباط تتوافد بسرعة وكفاءة على القاعة، ليملئوا المقاعد في انتظار سبب دعوتهم للمكان، أيًا كان. وكان لا يزال هناك أمر غير منطقي بالنسبة للضباط الشباب، إذ أن الفرقة المعتادة من الرفاق الأعلى رتبة لم تكن متواجدة في مقدمة القاعة. وها هي القاعة تمتلئ عن آخرها بالضباط السوريين المهندمين، ولا يبدو أن أحدًا آخر سواهم على وشك الوصول.و لم يحدث شيء بعد، غير أن الضباط السوريين الذين ألفوا الانضباط جلسوا لا يُحركون ساكنًا، رغم أن بعضهم انتابته حالة من عدم الارتياح.

وعقب ذلك في الجزء الخلفي من القاعة، تم إغلاق الأبواب. وسمع الضابط الشاب صوت إغلاقها، ثم بلغت به الدهشة مبلغها حين سمع صوت سقوط رتاج الباب الثقيل وأصوات السلاسل. وحينئذ أحس الشاب بهاجس فوقف ليرى إن كان بإمكانه التعرف على ما يحدث، لكن الوقت كان قد فات، وأكدت شظايا الأخشاب والزجاج المتناثر مخاوفه بأن ثمة خطأ فادح، ونظر في الوقت المناسب تمامًا إلى صف النوافذ المتراصة على جانب المبنى ليرى القنابل اليدوية تُرمى من زجاج النوافذ المحطم، وكان هذا آخر ما رآه، فقد أدى انفجار القنابل إلى تطاير الشظايا في أنحاء القاعة، وانغرست إحداها في حلق الضابط الشاب. وفي التو، كُسرت باقي النوافذ وتوالت باقي القنابل سريعًا على القاعة. ولما كانت كل المخارج مغلقة، لم يكن هناك مفر من حكم الموت.

وعقب الهجوم بالقنابل، لاح فريق من المسلحين عند النوافذ، يحملون أسلحة آلية، وفي إطلاق نار عنيف، أمطر الرصاص الضباط العُزل من كل اتجاه. ولم تدم المذبحة سوى لحظات، لكنها أسفرت عن مقتل قرابة ستين ضابطًا وجرح أكثر من مائة.

وفي هذه الأثناء، كان الرئيس السوري حافظ الأسد على وشك القيام بالترتيبات النهائية لزيارته المهمة إلى بغداد في اليوم التالي، عندما سمع بالمذبحة التي وقعت في الكلية العسكرية في حلب. وذكر ضباط مخابراته أنه فيما يبدو أن الجهة المسؤولة عن العملية هي الإخوان المسلمون. ونظرًا لأهمية الزيارة التي كان على وشك القيام بها إلى العراق، ولإدراكه أن مرتكبي العملية إنما أرادوا إثناءه عن زيارته إلى بغداد التي أرد منها إنهاء حالة العداء المتأصلة بين سوريا والعراق، أمر الأسد بالتكتم على كل أخبار المذبحة.

غير أنه في غضون أسابيع، تسرب التقرير إلى الصحافة العربية، ثم أكدته السلطات السورية لاحقًا.

وفي أغسطس عام ١٩٧٩، أعلنت جماعة الإخوان المسلمون ذات الصيت المحدود عن نفسها مجددًا. وبدأ المتشككون الذين كانوا يسخرون ويؤكدون اختفاء الإخوان المسلمون من مصر منذ خمسة وعشرين عامًا مضت والذين أنكروا المزاعم بأن الإخوان كانوا وراء الثورة في إيران، يعيدون النظر في الأمر مجددًا.

بات واضحًا جرّاء الأحداث التي وقعت في حلب أن وجود الإخوان المسلمين في الشرق الأوسط إنما هو خطر داهم على كل أمة من أمم الشرق الأوسط، وعلى السلام العالمي.

إن ما بات معرضًا للخطر من نهضة الإخوان المسلمون مجددًا وارتقائهم مكانًا بارزًا هو وجود الدولة الأممية في العالم الإسلامي، فالإخوان المسلمون لا يعترفون بوجود دول مستقلة، بل يرغبون في محو الدول وإقامة إمبراطورية إسلامية واحدة مجددًا. وهو ما يقسم العالم إلى قسمين: المناطق الواقعة تحت الحكم الإسلامي، والمناطق التي تحكمها الشعوب "الوثنية" غير المسلمة. كما تدعو الجماعة إلى الجهاد الدائم وأسر وغزو العالم غير الإسلامي، ولا تعترف بالحدود القائمة وحدود الدول. وقد أجاب الرئيس الإيراني أبو الحسن بني صدر، عند سؤاله عن النزاع الحدودي عام ١٩٨٠ بين إيران ودولة العراق العلمانية: "ليس ثمة حدود بين الدول الإسلامية".

تجلت أيدلوجية الإخوان المسلمون في مؤتمر اتحاد الطلاب المسلمين، الذراع الأمريكي لجماعة الإخوان المسلمين، المنعقد في مايو ١٩٨٠، حيث ذكر محمود رشدان، الأمين العام للاتحاد في خطبته قائلاً:

"إننا نعرف قصة كمال أتاتورك، بطل تركيا "الحديثة"، مشيرًا إلى القائد التركي الجمهوري، و"ما هي تركيا الحديثة؟ منذ عام ١٩٢٤ وحتى الآن، أكثر من ستة وخمسين عامًا مضت، فهل نرى تركيا وقد صارت أكثر استقلالاً أم أكثر اعتمادًا على الآخرين؟ وهل صارت تركيا أكثر قوة أم أكثر ضعفًا؟

"هناك العديد من الأتاتوركات اليوم، فقد صار هناك أتاتورك في ليبيا، وآخر في بغداد وثالث في سوريا، وما لم تتم تنحية هؤلاء والقضاء عليهم، ستستمر المؤامرات، وسيتم تدميرهم إن شاء الله!"

وهنا تعالت هتافات الجماهير مرددة "إن شاء الله!" و"الله أكبر!"

وواصل رشدان حديثه قائلاً: "إن هؤلاء الأتاتوركات الذين يتحدثون لغتنا ويفكرون بعقول غربية لا تنتمي إلى أرض الإسلام. لقد أحدث أتاتوركات القرن العشرين ضررًا أكبر بكثير من طغاة العصر القديم. وكما

يقول الشاعر العربي، في العصور القديمة كان هناك فرعون واحد، طاغية واحد، وكان هناك موسى واحد يتحدى ذلك الطاغية. واليوم نرى آلاف الفراعين وليس لدينا موسى واحد، غير أنه إن شاء الله سيخرج من بينكم ألف موسى وموسى يقضون على هؤلاء الآلاف من الفراعين الصغار!"

ومجددًا هتفت الجماهير "الله أكبر!"

"انظروا إلى صدام حسين، سفاح العراق، أراق دماء المسلمين، ويضع يده في يد مَن؟ إن الحكومة التقدمية في العراق تضع يدها في يد الحكومة الرجعية في المملكة العربية السعودية. لقد كان صدام حسين يتحدث بالأمس عن السعوديين على أنهم رجعيون، وعملاء للأمريكان والبريطانيين وغيرهم. وفجأة صاروا أصدقاء، وصار بينهما اتفاقية ووفاق واتفاق أمني، وصاروا فجأة في المعسكر ذاته".

"وأضف إلى ذلك حافظ الأسد، ذلك السفاح في سوريا. إن كلاهما يذبح المسلمين في ديارهم، ومع هذا يذهبان لتلقي التبرعات، ويضعان على صدريهما لافتة تشير إلى أنهما جبهة رفض، ومن ثم يهدهدون جموع المسلمين حتى تخلد للنعاس، لكن جموع المسلمين لم تنم، بل هي يقظة للغاية. فجموع المسلمين لا يؤمنون بهذه الشعارات ويدركون تلك المؤامرات. أنتم تعرفونهما، وهما يدركان أن البيت الأبيض في واشنطن والبيت الأحمر في موسكو يدعمانهما".

وأضاف رشدان معلنًا كون فلسطين "قضية إسلامية": "إنني أعلنها مدوية لكل المسلمين أن فلسطين جزءٌ من عقيدتنا، وإن الصراع في فلسطين صراع عقائدي، ينبغي أن تحتشد جموع المسلمين وتسير إليه تحت راية العقيدة. إننا ندعم كل عمل أو حركة تحرير، تسعى حقيقة لتحرير كل الفلسطينيين – في حيفا والقدس – لا لمجرد رفع شعارات مبهمة...لقد اعتدنا رؤية الملوك يتعرضون للاغتيال لأنهم قبلوا تقسيم عام ١٩٤٧، والآن صاروا أبطالاً لأنهم قبلوا حدود عام ١٩٦٧.

"ومن ثم إخوتي وأخواتي في الإسلام، دعونا نحدد وندرك أن فلسطين أرض إسلامية، بحكم تعريفها الوارد في القرآن الكريم، وهي جزء من معتقدنا. ولذا فإن تحريرها ليس أمرًا متروكًا لحكامنا، فهم لن يحرروها بعد أن قاموا بالتنازل عنها. ينبغي أن نتوقف عن استلهام البصيرة أو الأمل من تلك الحكومات الحالية، بلا استثناء، فهي سبب النكبة. ونسأل الله أن يجعلنا مجاهدين بحق، وأن يحرر فلسطين بدماء وجهاد المسلمين الصادقين من كل أنحاء العالم".

ليست إسرائيل أو الولايات المتحدة هي هدف الإخوان المسلمين، بل حكومات أمم العالم الإسلامي، وخطاب رشدان ليس نمطًا شاذاً، بل يُعد نموذجًا معتدلاً للأسلوب البلاغي الإخواني. وفي عام ١٩٧٩، في مقابلة شخصية، عرض عضو آخر بجماعة الإخوان المسلمين آراءه في الموقف الحالي للحركة، على النحو التالي:

"استولى الإخوان على إيران وباكستان، والثورة هي إحدى نجاحاتنا. وفي باكستان كذلك، تُعد حكومة "زيا" حكومتنا، وقد ناصر بوتو غزو الثقافة الغربية للإسلام، وتجسد فيه كل ما ينافي روح باكستان، ولهذا قتلناه، وسنستخدم موته كرسالة تحذير للباقين".

"وما ترونه يدور الآن في أفغانستان هو أيضًا مما عملت أيدينا، وهو عمل إخوتنا في جماعة الإسلام. والهند هي المحطة التالية، إذ بدأ المسلمون في الهند يدركون ما ينبغي القيام به. كما أن الثورة قادمة في المملكة العربية السعودية وفي مصر، وآجلاً أو عاجلاً في تركيا. إننا حركة إسلامية عالمية، استمرت لقرون، ونحن حملة الإنسانية الإسلامية العالمية. ونحن في حرب".

وسواءً أدرك الإخوان المسلمون ذلك أم لا، فإن الحرب التي يشعلونها إنما هي حرب تصب في مصلحة المصالح الاستراتيجية البريطانية، فالسيطرة البريطانية على الإخوان المسلمين مستمرة منذ أن كان رياض، أستاذ البنا، يلتقي باللورد كرومر يوميًا في مصر.

ومنذ الحرب العالمية الثانية، ظهر جيل جديد من البريطانيين المستعربين ليتولى زمام أمور الإخوان المسلمين. وفي هذا الفصل، سنلقي نظرة على مجموعة "الصبيان القدامى" البريطانيين، وزمرة "البكوات القدامى" الذين امتلكوا زمام تشغيل الإخوان. وتُستخدم هذه السيطرة بعناية وحصافة، عند خروج نظام عربي أو إسلامي على السياسة البريطانية، حيث تتم دعوة جماعة الإخوان شبه النائمة إلى العمل وفق التوجيهات البريطانية، وتُستخدم لتنفيذ أعمال الإرهاب السياسي والاغتيالات، بل حتى الثورة كما هو الحال في إيران وباكستان.

ومنذ سنوات، تم نقل مكتب الاستخبارات البريطانية العربي القديم من القاهرة إلى لندن. وليس هناك ما تُخشى خسارته جراء بعد المسافة بين مركز القيادة والقوات العاملة. واليوم يُطلق على "المكتب العربي" اسم المركز العربي البريطاني، ومجلس تعزيز التفاهم العربي البريطاني (CAABU)، ومحطته الفرعية المعطلة حاليًا في لبنان، مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية (MECAS) في قرية شملان. وجنبًا إلى جنب مع الأقسام البحثية في كليات علوم الشرق في أكسفورد وكامبريدج وجامعة لندن، وجامعة جيزويت لوفين في بلجيكا، وجامعة جيزويت ماكجيل في تورنتو، وجامعات برينستون وجورج تاون في الولايات المتحدة، توجه مافيا مجلس تعزيز التفاهم العربي البريطاني ومركز الشرق الأوسط للدراسات العربية، التي تمارس نشاطها من لندن، جهود الإخوان المسلمين اليوم.

إن دعوات الإخوان للجهاد لا تُصاغ في الخلايا السرية في مدن الشرق الأوسط، بل في مكاتب الأساتذة في الجامعات الغربية. على سبيل المثال، فإن "خطة برنارد لويس" هو الاسم الحركي للاستراتيجية البريطانية فائقة السرية للشرق الأوسط. ومؤلف هذه الخطة، برنارد لويس، هو متخصص في الشؤون الإسلامية والشرق الأوسط في جامعة أكسفورد، ويعمل حاليًا في جامعة برينستون في نيوجيرسي. ورغم كونه ناشطًا في الخطط التكتيكية لصالح الاستراتيجيات الأنجلو أمريكية، كان دكتور لويس ضمن الحضور في اجتماع بيلديربرغ في النمسا عام ١٩٧٩، حيث كانت "الأصولية الإسلامية" هي العنوان الرئيسي، ودكتور لويس هو في الأساس من الأساتذة، واقتصرت مهمته على تقديم نبذة عن أيدلوجية وسمات العالم الإسلامي. واستنادًا لتقييماته، يستطيع البريطانيون اتخاذ قرار بشأن نوع التدخل الأكثر فعالية في تشكيل الشرق الأوسط لصالح التاج البريطاني.

ودراسات لويس للتاريخ الإسلامي ما هي إلا اعترافات أكاديمية بالإخوان المسلمين، تعزز وجهة النظر الخادعة التي مفادها أن طبيعة الإسلام تتجسد في متعصبين من أمثال الغزالي، صوفي القرن الحادي عشر، لا بالتزام الإسلام الثابت على مدار التاريخ بالعلوم والتطور التكنولوجي.

كانت خطة لويس تدعو إلى بلقنة وتقسيم ما يُعرف باسم "قوس أزمة" بريجينيسكي ، طبقًا لتقسيمات عرقية وقبلية ودينية طائفية. وقد كانت، ولا عجب، تتم بمساعدة جهاز الاستخبارات الإسرائيلي.

وطبقًا لآراء لويس، ينبغي على البريطانيين تشجيع حركات التمرد سعيًا إلى الاستقلال، التي تقوم بها الأقليات من أمثال المارونيين اللبنانيين والأكراد والأرمن والدروز والبلوشيين، والأتراك الأذربيجانيين، والعلويين السوريين، وأقباط إثيوبيا، والفصائل الصوفية السودانية، وقبائل شبه الجزيرة العربية وغيرها. ويتمثل الهدف في تقسيم الشرق الأوسط إلى ما يشبه رقعة الفسيفساء التي تضم العديد من الدويلات المتنافسة، وإضعاف هيمنة الجمهوريات والممالك القائمة.

ما هو دور حركة الإخوان المسلمين العامة في كل هذا؟

تُعد حركة الإخوان المسلمين العالمية، بالنسبة لأنصار التحول إلى الطوائف الصغيرة والأقليات خطرًا داهمًا على وجودهم المستقل، ومن ثم لعب البريطانيون دور الوسيط، حيث عقدوا صفقات مع زعماء القبائل والقادة العرقيين لرعاية حركات تمردهم ضد الإخوان المسلمين.

ومن الحالات التي تعد مثالاً على ذلك، إيران. ففور استيلاء ديكتاتورية الخميني على السلطة، بدأ البريطانيون في إجراء اتصالات مع زعماء قبائل الأمة الإيرانية الذين هددوا بإعلان الاستقلال عن إيران. ورغم أن معظم هذه المجموعات – جراء كراهيتها للخميني – قد انضمت بطريقة أو بأخرى إلى المعارضة المناهضة للخميني في المنفى، إلا أن الخطر لا يزال قائمًا في أن يؤدي نجاح ثورة الخميني إلى سلسلة من الحركات الانفصالية لأكراد إيران والأزيريين والبلوشيين والعرب وغيرهم. وحركات الاستقلال هذه بدورها ربما تمثل تهديدات وخيمة لتركيا والعراق وباكستان وغيرها من الدول المجاورة.

وتضع خطة برنارد لويس قادة الدول الإسلامية بين شقي الرحى، بين الإخوان المسلمين من ناحية والأقليات الوطنية من ناحية أخرى.

وبدءًا من الأساتذة، تنتقل السياسة البريطانية عبر مجلس تعزيز التفاهم العربي البريطاني، وغيره من المؤسسات الخيرية. ولا شك أن المجلس يمثل مجموعة ضغط، فدعمها المالي يأتي من أنصار سياسة الإمبراطورية البريطانية: بنك باركليز وشركة الطائرات البريطانية، والبنك البريطاني للشرق الأوسط، ولازارد برذرز، ولويد انترناشونال، وبنك ويستمينستر الوطني، وشركة رولز رويس ويوني ليفر.

ومن مجلس تعزيز التفاهم العربي البريطاني، تنتقل الكلمة إلى "الأذرع العربية" لبريطانيا، المدربة في مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية في شملان، جنوبي غرب بيروت.

لقد كان لمركز الشرق الأوسط، الذي أُغلق مؤخرًا، الغلبة عند مغادرة لورنس العرب. وجمع المركز، الذي أُنشئ عام ١٩٤٤ برعاية المعهد الملكي للشؤون الدولية، المستعربين البريطانيين والصهاينة والعرب المناصرين لبريطانيا، وكان رئيس وزراء إسرائيل السابق، أبا إيبان، أحد الأعضاء المؤسسين، بينما انضم إليه الجنرال إيليويد كلايتون، الحاكم العسكري لمصر خلال الحرب العالمية الثانية، والذي عمل مع الإخوان المسلمين، ولورد كيليرن، السفير البريطاني في القاهرة، ومساعده السير والتر سمارت، ومارتن تشارترز، مدير الخدمات السرية للاستخبارات البريطانية، وسير هارولد بيلي، السكرتير الخاص للملكة إليزابيت، وألبرت حوراني، وهو عضو لبناني في المعهد الملكي.

وتولى المركز تدريب المئات من ضباط وعملاء الاستخبارات البريطانية على اللغة والتاريخ والثقافة العربية. ومن بين أساتذته وطلابه السابقين، يمكننا أن نلمح سير جون بيجوت غلاب باشا وابنه فارس غلاب، وجورج كيرك من المعهد الملكي، و أ. هـ. ويلتون، سفير بريطانيا الحالي للمملكة العربية السعودية، والعميل الثلاثي كيم فيلبي، وسير دونالد ميتلاند، والكولونيل بيرتون توماس.

وانطلاقًا من مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية، نسج البريطانيون العديد من المنظمات التي تسعى "لتعزيز التفاهم البريطاني العربي"، فقد كان هناك مجلس تعزيز التفاهم العربي البريطاني نفسه، والمؤسسة الأنجلو عربية، والاتحاد العربي البريطاني للأعمال الخيرية، ومجلس عمال الشرق الأوسط.

ولعل أهم إفرازات مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية هو المركز العربي البريطاني، الكائن مقره في لندن. وكان من أهم قادته ومديريه: السير هارولد بيلي، الذي يشغل حاليًا منصب رئيس مجلس الإدارة المشترك للمهرجان العالمي للاتحاد الإسلامي بالاشتراك مع السفير الإماراتي محمد تاجير، وسير ريتشارد بومونت، وسير تشارلز دوك، وسير جيوفري فيرلونغ، وكولن جاكسون عضو البرلمان، وبيتر مانسفيلد مؤلف "بيتروماركت" (سوق النفط)، وجون ريداوي، وروبرت سوان، وهو عميل استخباراتي بريطاني تايلندي.

ومن ثم ففي عام ١٩٥٥، عندما نقل الإخوان المسلمون مقرهم الرئيسي من القاهرة إلى لندن وجنيف بسويسرا، عندما دفعهم عبد الناصر للرحيل من مصر، فإن الإخوان كانوا يخرجون بعلاقة استمرت لفترة طويلة إلى حيز العلن.

وفي جنيف، قام قائد الإخوان المصري، سعيد رمضان، بإنشاء معهد الدراسات الإسلامية. أما في القاهرة فأُدين رمضان بالتآمر على قتل عبد الناصر، واُتهم بإقامته علاقة مع المخابرات الإسرائيلية، غير أن هذا لم يمنعه من تأسيس مقر رئيسي للإخوان في أوروبا، حيث قام بالاشتراك مع سلام عزام بتأسيس المجلس الإسلامي لأوروبا، الذي يتولى توجيه الإخوان من المغرب إلى باكستان والهند، ويتحكم في مئات المراكز "الدينية" في كل أنحاء أوروبا الغربية، ومن ثم آلاف الطلاب الأصوليين ورجال الدين الإسلامي في كلّ من الشرق الأوسط وأوروبا.

أما أحدث مؤسسات التنسيق التابعة للإخوان المسلمين فهي مؤسسة الإسلام والغرب (الدولية) التي تأسست عام ١٩٧٧، ويقع مقرها الرئيسي في جنيف.

وتدعم مؤسسة الإسلام والغرب اثنين من النجوم "غير المسلمين"، وهما أورليو بيتشي من نادي روما، والتي أسهمت سياساته في قضاء الخميني على الاقتصاد الإيراني، ولورد كارادون (المعروف كذلك باسم قدم هيو)، خبير بريطانيا في القدس والسفير البريطاني السابق إلى الأمم المتحدة.

وكان من بين الجهات التي عملت على تأسيس المؤسسات صندوق التكافل الإسلامي، وهو أحد المشروعات الفرعية للملتقى الإسلامي العالمي، غير أن المؤسسة الأخرى التي تحمل اسم الاتحاد الدولي لمعاهد الدراسات المتقدمة، هي مؤسسة أرفع قدرًا بكثير، إذ تضم قائمة مؤسسيها أورليو بيتشي؛ وأمير هولندا بيرنهارد، رئيس مجموعة بيلدر بيرغ؛ ورئيس مؤسسة أتلانتك ريتش فيلد روبرت و. أندرسون. ويشغل أندرسون أيضًا منصب رئيس معهد أسبن.

ذكر الأمين العام لمؤسسة الإسلام والغرب، دكتور مارسيل بواسار، نائب مدير الدراسات في كلية جنيف للدراسات الدولية العليا، في مقابلة شخصية أن الاجتماع التحضيري الأول لمؤسسة الإسلام والغرب كان في كامبريدج عام ١٩٧٦، في حين عُقدت اجتماعات المتابعة في فينسيا عام ١٩٧٧، وباريس عام ١٩٧٨. وطبقًا لما ذكره بواسار، كان تركيز المناقشة على الحاجة إلى "التقارب بين الإسلام والغرب" في سياق الحاجة إلى " نظام عالمي جديد"، وخُصصت ميزانية بلغت ١٠ ملايين دولار للمشروعات الخاصة "بالدراسات الخاصة لأثر العلوم والتكنولوجيا على الحياة الثقافية والاجتماعية لكلا الجانبين"؛ ودراسات بشأن "مفهوم المسلمين لحقوق الإنسان" و"تجديد المؤسسات الإسلامية وتأسيس مراكز إسلامية جديدة".

كانت القس جون ب. تايلور، مدير المجلس المسكوني للكنائس الكائن مقره في جنيف، هو همزة الوصل بين الكنيسة البروتستانتية ومؤسسة الإسلام والغرب. وفي لقاء شخصي جرى في ديسمبر ١٩٧٩، امتدح تايلور ثورة الخميني في إيران بوصفها بدايات "عصر النهضة الإسلامي" وتنبأ أن "باقي الأمم ستمسها روح الانتفاضة الإسلامية"، وذكر بالأخص تركيا، التي ستكون الغلبة فيها لرجال الدين، ومصر والجزائر، حيث يلعب الإخوان المسلمون دورًا بالغ الأهمية".

كانت شبكة قيادة الإخوان المسلمين في أوروبا هي خير تجسيد لما قصده زبينغيو بريجينيسكي بلفظ "الأصولية الإسلامية"، فهذا هو الأداة التي يجري إعدادها لإدخال الأمم الإسلامية في تحالف مع حلف شمال الأطلسي. ومن خلال المجلس الإسلامي لأوروبا، الذي يديره سلام عزام، تم اتخاذ الخطوات الأولى لتحقيق ذلك تمامًا، عن طريق المعهد الإسلامي لتقنية الدفاع.

أُنشي المعهد أواخر عام ١٩٧٨ على يد المجلس الذي يديره عزام، واليوم يشغل عزام منصب رئيس مجلس حكام هذا المعهد، في حين يشغل معظم علي، رئيس اتحاد الصحافة الإسلامي (وهو جهة تابعة للمعهد)،

منصب الأمين العام للمعهد. وشهدت لندن حلقة بحث افتتاح المعهد في الفترة من ٥ – ٩ فبراير ١٩٧٩، وحضر حلقة البحث عدد كبير من خبراء الاستراتيجيات العسكرية والضباط من العالم الإسلامي، وبخاصة الجنرال زيا من باكستان، ومن دول حلف الأطلسي، مع وفد ضخم من المملكة المتحدة. وتُلزم لوائح المؤسسة المعهد بجلب أحدث أنظمة التسليح المتاحة.

وحتى يتسنى أن نتذوق نكهة التطوير التي يخطط المعهد لإضفائها على قضية الإخوان المسلمين، مع التعاون في الوقت ذاته مع حلف شمال الأطلسي، لنلق نظرة على العرض التقديمي الذي قدمه في المؤتمر أ. ك. بروهي، الرئيس السابق للمحكمة الباكستانية العليا (الذي مهد الطريق لإعدام ذو الفقار علي بوتو عام ١٩٧٩).

أعلن بروهي أن" الدول الإسلامية تحتل مكانة جغرافية استراتيجية تعزز من أهميتها من حيث القدرات الدفاعية، إذ أن العديد منها يقع على الطرق البرية والبحرية الحيوية في العالم... ويجب أن تسعى الدول الإسلامية للاعتماد على أنفسها في الاستعدادات الدفاعية، وهو ما سيُعد رادعًا يحول دون انتهاك حرمة سيادتها الإقليمية، وأسلوبها الإسلامي في الحياة الذي ترعاه بكل عزيز وغال. وينبغي بذل جهود متضافرة لإحياء الروح الإسلامية الحقيقية، لتمكين العالم الإسلامي من مواجهة التحديات الأيدلوجية والاقتصادية والعسكرية التي يموج بها العصر الحالي".

بالمقاتلات النفاثة الأمريكية والبريطانية بالطبع.

غير أنه إذا كان المقر الرئيسي للإخوان المسلمين يقع في غرب أوروبا، فإنه بطبيعة الحال يقع بالدرجة الأولى في العالم العربي المتوسطي ودول الخليج الفارسي.

ويمكن القول أن الاستقصاءات الأخيرة أوضحت وجود العديد من النقاط الوسيطة لأنشطة الإخوان المسلمين. ومما يُذكر أن هناك قناة للأوامر الصادرة عن الإخوان المسلمين تتدفق من لبنان وسوريا إلى قبرص – التي لطالما كانت همزة وصل الاستخبارات البريطانية بالشرق الأوسط – ومن هناك إلى جزيرة مالطة، التي يعتقد الكثيرون أنها إحدى القواعد الرئيسية للإخوان في شمال إفريقيا ومصر.

وحتى في ظل رعاتها الأوربيين الغربيين والبريطانيين، لن تستطيع جماعة الإخوان المسلمين أن تكون الخطر السياسي التي هي عليه الآن، إن كانت مجرد مجموعة من العصابات الإرهابية الصغيرة ضعيفة التنظيم في الشرق الأوسط. وبالنسبة لأي دولة إسلامية، لن تعدو زُمر الطلاب الأصوليين والمذاهب والطوائف المتعصبة، والخلايا المتطرفة لغربان العصور الوسطى، مجرد مشكلة روتينية تواجه الشرطة، غير أن الإخوان المسلمين تمثل تهديدًا على مستوى أعلى.

في كل الدول العربية وفي تركيا والعديد من الدول الآسيوية، يحظى الإخوان المسلمون بحماية الوزراء وضباط المخابرات والأمن وضباط الجيش، وغيرهم في أعلى المناصب الحكومية.

ورجال التحقيقات الذين يسعون لتعقب قادة الإخوان المسلمين يجدون تحقيقاتهم قد أُوقفت بصورة غامضة بناء على أوامر "عُليا"، كما يتعرض ضباط الأمن ومسؤولي تنفيذ القانون لاغتيالات مفاجئة. كما يتردد السياسيون في فتح تحقيق يتوغل إلى داخل الإخوان لأن "السيد الكبير" لا يرغب في أن يطأ أحدٌ أصابع قدمه.

يحظى الإخوان المسلمون بقدر كبير من المساعدة من الفساد البسيط، فالكميات الضخمة من الأموال التي تتدفق إلى خزائن العديد من الدول الخليجية خلقت طبقة من المسؤولين المرتشين، ويُعد المبعوث الخاص الحالي للجامعة العربية إلى الأمم المتحدة، الدكتور كلوفيس مقصود مثالاً على هذه الظاهرة.

وليس هذا هو جذر المشكلة، فجماعة الإخوان المسلمون الحقيقية ليست ذلك الشيخ المتعصب وتابعه الذي لا يقل عنه تعصبًا، وليست أولئك المُلل وآيات الله الذين يقودون البيئات التي يرتع فيها أولئك المجانين، وما الخميني والقذافي والجنرال زيا ما هم إلا دمى مزركشة.

إن الإخوان المسلمون الحقيقيون هم أولئك الذين لا تتلطخ أيديهم أبدًا بأعمال القتل والحرق، بل هم المصرفيون ورجال المال السريون الذي يقفون خلف الستار، وأفراد العائلات العربية أو التركية أو الفارسية القديمة الذين تضعهم أنسابهم في مصاف النخبة الحاكمة، بالإضافة إلى مؤسسات أعمال واستخبارات سرية مرتبطة بطبقة النبلاء الأوربيين السود، وبخاصة النخبة البريطانية الحاكمة.

وكذلك فإن الإخوان المسلمون هم المال، فالإخوان المسلمون مجتمعين قد يتحكمون غالبًا في عشرات المليارات من الدولارات على هيئة أصول سائلة قريبة، ويتحكمون في مليارات أخرى في عملياتهم التجارية اليومية، وفي كل شيء بدءاً من تجارة النفط والأعمال المصرفية وحتى ترويج المخدرات وتجارة الأسلحة المحرمة، وتهريب الذهب والماس. ومن خلال التحالف مع الإخوان المسلمين، لا يقوم البريطانيون والأمريكان فقط بشراء إرهابيين مأجورين، بل يصيرون شركاء في إمبراطورية مالية قوية وعالمية تمتد من حسابات بنوك سويسرا المتخمة بالمال، حتى الجنان المالية البحرية في دبي والكويت وهونج كونج. هل يحتاج بيرت لانس إلى بضع مئات الملايين من الدولارات لإخراج مصرفه من أزمته؟ فليجرب الإخوان المسلمين. هل يبحث اتحاد شركات في لندن عن شركاء يستثمرون بضع مليارات في مشروع تنقيب عن مواد خام في إفريقيا؟ فليجرب الإخوان المسلمين. هل تبحث إحدى تكتلات البيوت المصرفية في أن تبدأ جولة في الفرنك الفرنسي؟ فلتجرب الإخوان المسلمين.

منذ مقتل أكثر من ستين طالبًا عسكريًا في سوريا، وعمليات القتل الأخرى التي لا تُحصى لكبار وصغار الضباط السوريين بعد ذلك، لم تتم عملية واحدة لإلقاء القبض على إرهابيي الإخوان المسلمين الذين أعلنوا مسؤوليتهم عن تلك الأعمال الوحشية. وقد كان لموجة العنف ضد حكومة الرئيس الأسد أصدقاء أقوياء في الحكومة ذاتها.

وقد كان اثنان من هؤلاء الأصدقاء أشخاصًا بالغي القوة، من أمثال العقيد رفعت الأسد شقيق الرئيس، الذي يرأس لواءً عسكريًا خاصًا، ونائب رئيس الوزراء، محمد حيدر، إمبراطور سوريا الاقتصادي.

وتعد القصة الكامنة وراء هذين الراعيين للإخوان المسلمين مثالاً واضحًا على كيفية عمل خطة برنارد لويس في هذا المجال، إذ كان رفعت الأسد وحيدر من العلويين، وهي طائفة تمثل أقلية في سوريا، غير أنها تسيطر على النظام الحاكم، وقد وُجهت معظم الاغتيالات التي وقعت مؤخرًا ضد العلويين، وزُعم أنها تمت على يد الإخوان المسلمين المناصرين للسنة (أو الأصوليين). كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟ تذكر المصادر أن رفعت وحيدر كانا يناصران سرًا الاغتيالات ضد العلويين لتدعيم موقفهم في الانشقاق على العلويين وإضعاف الحكومة المركزية. ومن ثم كان رفعت وحيدر، الذين وردت أنباء على ارتباطهما بالمخابرات الرومانية، كانا يعملان جنبًا إلى جنب مع الإخوان.

ومن الناحية التاريخية، وكما يعلم معظم السوريين، عمل الإخوان في سوريا وفي لبنان كحائط صد لنفوذ فرنسا، وبخاصة شارل ديجول في المنطقة. وفي عام ١٩٤٤، عندما بدأ البريطانيون هجومهم النهائي لطرد الفرنسيين من المنطقة، بزغ نجم جماعة "شباب محمد" كفرع من جماعة الإخوان المصرية القوية حينئذٍ. وكان النفوذ البريطاني يتركز في المثلث الذي يشمل المدن السورية الثلاث: حمص وحماه وحلب.

وطبقًا لما ذكرته الصحف السورية، فإن دوائر رسمية بعينها في كلٍّ من المملكة العربية السعودية والأردن، تقدم مساعدة لوجستية وعسكرية للإرهابيين الإخوان في سوريا. وهناك تقارير عن معسكرات تدريب شبه عسكرية في الأردن، يتدرب فيها الإخوان المسلمون. وفي مثال واحدٍ على الأقل، اتهمت سوريا منظمة التحرير الفلسطينية — التي تحظى بروابطها الخاصة مع الإخوان المسلمين – بأنها كانت مسؤولة في لبنان عن تدريب إرهابيي الإخوان الذين قاموا حينئذٍ باغتيال مسؤول سوري رفيع المستوى.

غير أن الإخوان المسلمين يحظون كذلك بدعم ألد أعداء منظمة التحرير الفلسطينية: الكتائبيون المسيحيون، الذين كانوا يقدمون الأسلحة والمال للإخوان السوريين.

وكذلك فإن جماعة الأمل الشيعية في جنوب لبنان تمنح المال والأسلحة للإخوان السوريين.

وكانت لبنان هي الممر الذي تصل عن طريقه المساعدات الواردة من المخابرات الإسرائيلية للإخوان المسلمين.

وفي عام ١٩٧٩، التقى الرئيس المصري أنور السادات بالرئيس الحالي للإخوان المسلمين في بلاده، الشيخ المساري من مجلة الدعوة، في وليمة، أعلن فيها السادات أنه لا يحمل أي ضغينة ضد الإخوان، وأنه ينبغي اعتبارها قوة وطنية مخلصة. ومن ثم قطع الإخوان شوطًا طويلاً منذ أن أعلن عبد الناصر رسميًا حل الجماعة.

وبالطبع، فإن أنور السادات عضو "سابق" في الجماعة، ويعمل الإخوان في مصر حاليًا تمامًا كما كانت تعمل أيام عمل السادات لصالحها: أي كذراع للبوليس السري. ويُعتقد بشكل عام أن التحكم السياسي في الإخوان يقع تحت سلطة حسن التهامي، المستشار الخاص للسادات. ويُعد التهامي حلقة الوصل مع المخابرات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية. وفي العام الماضي، أعلن التهامي أن مصر ربما تحشد مليون مسلم للتوجه إلى القدس.

ويتربع الإخوان الرسميون في مصر على عرش مجموعة وفيرة من المجموعات الإرهابية السرية التي لا ترتبط بها ارتباطًا رسميًا، إلا في تنفيذ أوامرها، ومن بين هذه المجموعات التكفير والهجرة، التي ترجع جذورها إلى حسن البنا ذاته. كما ذُكر تورط الجماعة عام ١٩٧٩ في اقتحام المسجد الحرام في مكة.

وكذلك هناك الجماعة الإسلامية، التي بدأت في جامعة الأزهر في عهد البنا. وفي الأعوام العديدة الأخيرة، نفذت الشرطة المصرية العديد من عمليات إلقاء القبض واسعة النطاق ضد هذه الجماعة. وفي أسيوط، عثرت الشرطة على آلاف الأسلحة الآلية، معظمها بنادق رشاشة إسرائيلية الصنع من طراز أوزي. وخلال شهر رمضان المقدس عند المسلمين، استعرضت الجماعة الإسلامية قوتها العسكرية، مشجعة صحيفة لوموند الفرنسية على التعليق بأن الحركة تنافس الجيش المصري كقوة منظمة.

وفضلاً عما سبق، سيطر الإخوان المسلمون –بصورة شبه رسمية– على الحكومات المجاورة لمصر، كالسودان وليبيا.

فمنذ تعيين حكومة الشيخ الترابي في السودان، كان السودان لعبة في يد الإخوان. وتحت تأثير الترابي، أدار السودان ظهره للعلاقة التي ظل يُرسيها مع جارته إثيوبيا، وهو يقدم المساعدة حاليًا لجبهة التحرير الإثيوبية، وهي حركة حرب عصابات موجهة تسعى للاستقلال عن إثيوبيا.

ولا شك أن السودان يحظى بالإمكانات التي تؤهله لأن يصبح سلة غذاء إفريقيا بأسرها بتربته الخصبة في مستنقعات السود في الجنوب، غير أنه لم ينجح مطلقًا في التغلب على التخلف الذي يعاني منه منذ أن صارت الدولة عبدًا في العصور الوسطى. والآن يواجه هذا القطر زيادة سريعة في الحركات الطائفية التي تشمل الدراويش والوعاظ المتعصبين في مناطقه النائية. ومعظم هذه الطوائف تعبد آلهة تعود أصولها إلى أسطورة إيزيس وأوزوريس التي سبقت الإسلام.

ويعمل الإخوان في ليبيا من خلال إخوان السنوسي، وقد تضاءلت قوة إخوان السنوسي قليلاً منذ وصول الأصولي الإسلامي معمر القذافي إلى السلطة. وفي يوليو ١٩٧٩، كان إخوان السنوي هم من نظموا الفيلق الإسلامي المكون من الكوادر المصرية والليبية والتونسية للحرب في أوغندا دعمًا للرئيس عيدي أمين.

إن السنوسيين طائفيون للغاية، وغالبًا ما كان يتم إخطار الصحفيين المستفسرين إخطارًا صارمًا بأنه لم يعد لهم وجود، بل وأن أحدًا "لم يسمع بهم". غير أنه في يوليو ١٩٧٧، تصدر السنوسيون عناوين الأخبار، حيث

ذكرت صحيفة لبنانية أن السادات كان يخطط لإبرام صفقة مع السنوسيين، ويقع هذا التجمع في مركز روحي يُدعى الكُفرة في وسط صحراء ليبيا الشرقية، ظل يُستخدم لفترة طويلة كقاعدة عسكرية. والعديد من العائلات الكبرى في برقة أعضاء في جماعة الإخوان.

لقد كان لمصر والمغرب الخميني الخاص بها وهو الإمام الأعمى المعروف بالشيخ كشك، الذي يؤم مسجد القاهرة. وطوال أعوام، ظل الإمام الأعمى يهاجم "تغريب" مصر وفساد الحياة السياسية، كما هاجم اتفاقية كامب ديفيد. غير أن أنور السادات لم يُلقِ القبض على هذا المُحرِّض، وهو يُعد "أكثر الرجال شعبية في كل أنحاء مصر".

ويمتد تأثير كشك كذلك إلى تونس والجزائر. ففي عام ١٩٧٩، حدث أمر غريب في منطقة مديا في الجزائر، جنوب الجزائر العاصمة، بالقرب من قرية بليدا، حيث انتشر خطاب ينقل فحوى رؤيا إمام في مكة، معلنًا نهاية وشيكة للعالم، وقد طلب الخطاب من كل من استلمه أن ينسخه وينقله إلى شخص آخر.

ومَن فعل ذلك سينشر ما في الخطاب وسيدخل الناسخ الجنة عند موته، وإذا لم يقم بنسخ الخطاب ستصيبه اللعنة. وقد أدى انتشار هذا الخطاب إلى حالة من الرعب بين فلاحي جنوبي الجزائر، طبقًا لما ذكرته صحيفة المجاهد الجزائرية.

وطبقًا لمصادر جزائرية فقد تم نشر هذا الخطاب ذاته في فترة الثلاثينيات. وقد كان مركز العمليات ولا يزال متمثلاً في شبكة في قصر البخاري في منطقة مديا. وتذكر الصحيفة الجزائرية أن "مدرسين أجانب" ينشرون هذا الهراء، بالتعاون مع أشخاص بعينهم في جامعة الجزائر ومسجد شاتونول في بليدا. وكان أصوليو كشك يخبرون أن الصلاة على أرض مؤممة حرام.

كما تم الكشف أيضًا عن انتشار آلاف أشرطة الكاسيت لخُطب الشيخ كشك بين الفلاحين في هذه المنطقة، وهو نفس التكتيك الذي استخدمه الخميني أثناء فترة نفيه.

كان الاستماع إلى الشيخ الأعمى بالنسبة للفلاحين المتخلفين مختلفًا تمام الاختلاف عن استماع المتعلمين في مصر إليه. فطبقًا لأحدث التقديرات، تم تشجيع قرابة ٢٥ في المائة من الشباب في جامعات البلاد بمناصرة الإصلاحات الإسلامية التي يدعو إليها كشك.

لقد ذكر القائد الإيراني في حديثه أمام اتحاد الطلاب المسلمين ربيع عام ١٩٨٠: "لقد ظل اتحاد الطلاب المسلمين بعيدًا عن المملكة العربية السعودية قدر المستطاع، لكنني أعتقد أن هذا سيتغير". وواصل القائد حديثه قائلاً: "في المملكة العربية السعودية، نحن نعمل مع العصبة المحيطة بالأمير عبد الله والملك، كما أن علماء الدين يساندوننا. ومنذ اغتيال الملك فيصل، صار الحاكم الجديد، ولي العهد فهد، أكثر مناصرة للغرب من أي فرد من أفراد عائلته. كما ساعدت الاتفاقية المبرمة بين مصر وإسرائيل على توسيع الهوة بين الفصيلين، وهو ما

يعزز موقفنا بالطبع. فقد اعتمد فهد على التعاون مع الجيش المصري للحيلولة دون تسرب الحركات الإسلامية الإيرانية إلى المملكة العربية السعودية، غير أنه لا يستطيع التعاون مع مصر كما يجب، إذ أن زمرة الأمير عبدالله متعاطفة مع الحركة، وهي تستخدم دولاراتها النفطية لتمويل الحركات في كل مكان آخر في العالم الإسلامي، فهي تتعاون مثلاً مع زيا في باكستان، وأنا أعطي المملكة عشر سنوات على الأكثر، وربما أقل".

وتجد خطط الإخوان المسلمين صدى في الصحافة البريطانية والأمريكية. وعقب انقضاء اجتماع منظمة الأوبك في سبتمبر ١٩٨٠ في فيينا، كتبت صحيفة واشنطن بوست: "تعتمد قوة المملكة العربية السعودية على عدم وجود إيران أخرى في عالم النفط. وقد أوضحت القلاقل التي وقعت في مكة حيث اقتحم الإخوان المسلمون المسجد الحرام، أن "إيران" القادمة قد تكون هي المملكة العربية السعودية ذاتها".

ويزدهر تواجد الإخوان المسلمين في المملكة العربية السعودية، في ظل حماية فصيل واحد من العائلة المالكة، وهو الزمرة المحيطة بالأمير عبد الله. والأمير عبد الله هو الرجل الثالث في البلاد، والقائد القوي للحرس الوطني.

تشكل الحرس الوطني من بقايا إخوان السعودية، الذين كانوا القوة شبه العسكرية التي ساندت استيلاء الملك عبد العزيز مطلع هذا القرن على شبه الجزيرة العربية. وحتى يومنا هذا، تمثل القبائل المختلفة في الصحراء السعودية – رغم أنها لم تعد تحظَ بتأثيرها السابق – مجموعة من المافيا والمنشقين الذين يلتفون حول شخص الأمير عبد الله.

ومع هذا فليس الأمير هو الوحيد من رجالات الصفوة الذي يرعى الإخوان المسلمين، حيث يُصدر الرئيس السابق للمخابرات السعودية، كمال أدهم، وعائلة المستشار الملكي رشيد فرعون، وابنه رجل الأعمال غياث فرعون، التوجيهات للإخوان. وكذلك فإن الأمير محمد بن فيصل، الذي كان يشغل سابقًا منصب وزير الموارد المعدنية والمياه في المملكة، أعلن خلال زيارته إلى نيويورك عام ١٩٨٠، أن الخميني ومُلل إيران يُحدثون "نهضة إسلامية" في إيران.

ويعدّ داعمو الإخوان السعوديون من أقوى الرجال وأكثرهم ثراءً في العالم الإسلامي، إذ يتربع الأمير محمد على عرش إمبراطوريته الصغيرة الخاصة، التي تشمل اتحاد المصارف الإسلامية في جدة، وفروعه المنتشرة في ست دول إسلامية أخرى على الأقل. وقد رعى الأمير، بالاشتراك مع الأرستقراطيين الأوربيين، محادثات بشأن تأسيس "نظام عالمي إسلامي" يعتمد على ما يُعرف "بعملة الدينار الإسلامي".

ولا شك أن كون الإخوان المسلمين قوة كبيرة – ذات قدرات متنامية يمكنها تحقيق نبوءة زبينغيو بريجينيسكي "قوس الأزمة" – قد بات أمرًا واضحًا، غير أن الصدمة الحقيقية هو امتلاك الإخوان المسلمين لتلك السيطرة القوية على الأحداث في الولايات المتحدة، التي هي بلد غير إسلامي. وهذه هي قصتنا التي سنسردها في الفصل القادم.

(٨)

الإخوان – الولايات المتحدة

"لديّ طرد مرسل للسيد طباطبائي"

كان ذلك في ٢٢ من يوليو ١٩٨٠، في ضاحية ميريلاند، في واشنطن دي سي، حيث نظر ساعي البريد نظرة مقتضبة إلى الرجل الذي خرج إلى الباب. تردد الرجل، ولعله شعر بهاجس بوجود أمر مريب في ساعي البريد الواقف على عتبة المنزل، غير أنه استدعى زميله قائلاً: "إنه يقول أن عليك التوقيع على استلام الطرد بنفسك".

شرع "علي أكبر طباطبائي" في السير ناحية الباب. إنه رئيس مؤسسة التحرير الإيرانية، الكائن مقرها في واشنطن. وحتى عامين فقط، كان المستشار المعلوماتي للسفارة الإيرانية في واشنطن، التي تشغل مبنى فخمًا في ماساشوسيتس أفينو، غير أنه مع قيام الثورة في إيران، وجد نفسه فجأة بلا عمل.

ومنذ ذلك الحين، أنشأ المؤسسة كأداة للمعارضة ضد الخميني، ورغم التهديدات التي يتلقاها من أنصار آية الله، إلا أنه رسخ أقدامه بوصفه المتحدث العام الوحيد تقريبًا ضد الخميني. لقد ناصره العديد من الإيرانيين الآخرين – جمهوريين وملكيين وعسكريين – لكن عن بُعد، إذ كانوا خائفين من الظهور علنًا.

منذ عامين، سار طلبة إيرانيون ذوو وجوه مقيتة في الشوارع، يرتدون أقنعة ويرددون شعارات تافهة، مطالبين "بالموت للشاه!" وفي الأخبار التلفزيونية الأمريكية، صار هذا المشهد مألوفًا. أما الآن فإن الطرف الآخر للقضية هو الذي سينظم المسيرات؛ ففي ٢٧ يوليو، أعلن طباطبائي أن مؤسسة التحرير الإيرانية سترعى مسيرة لآلاف المعارضين للخميني في واشنطن. لقد انقلبت الطاولة، وهذه المرة سيكون الدبلوماسيون السابقون وضباط الجيش وأصحاب المهن المتخصصة والطبقة المتوسطة هم من ينزلون إلى الشوارع.

وعلى الباب نفد صبر ساعي البريد، ففي يده المختبئة خلف الطرد، كان يمسك مسدسًا. فتح طباطبائي الباب فأطلق الرجل عليه طلقات عديدة في الصدر والمعدة، مُرديًا إياه قتيلاً على الفور. ألقى الرجل الطرد وانطلق مسرعًا إلى شاحنته وفرّ بسرعة من ضاحية ميريلاند الهادئة.

كان الوقت لا يزال في الصباح، وفي غضون ساعتين، كان منفذ الاغتيال، ديفيد بيلفيلد، المعروف أيضًا باسم داوود صلاح الدين، يجري مكالمة شخصية إلى جنيف، سويسرا، للتحدث مع سعيد رمضان من معهد الدراسات الإسلامية.

ولاحقًا في هذا المساء، سافر بيلفيلد – الذي لم يتم التعرف عليه والذي يحمل جوازات سفر عديدة، لعلها ليبية أو جزائرية – إلى نيويورك تحت اسم مستعار. وهناك قام بتغيير الطائرات، واتخاذ هوية أخرى، والتسلل خلسة من السلطات واستقلال طائرة متجهة إلى سويسرا.

غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، ففي ٣١ يوليو ١٩٨٠، اجتمعت مجموعة من الإيرانيين المستبعدين إلى المنفى، وبعضهم ممن شارك في المسيرة المناهضة للخميني في واشنطن في ٢٧ يوليو، والتي وقعت رغم مقتل

طباطبائي، في منزل قمبيز شهريز، قائد حركة استقلال إيران (جاما). وفي واشنطن، كان شهريز قد أجرى مقابلة شخصية في التلفزيون بشأن مقتل طباطبائي، وأدان وزارة الاستخبارات والأمن الوطني الإيرانية (سافاما) بوصفها المسؤولة عن العملية.

خارج المنزل، كان الطالب الإيراني الشاب صديق المقيمين بالدار، ينتظر في سيارته إلى حين انتهاء المناقشة. وبينما هو يتجول ببصره، لمح ما بدا وكأنه رجل يتسلل إلى المنزل عبر إحدى النوافذ. ولاحظ هذا المتسلل الرجل الجالس في السيارة، فبادر إلى الهرب مختفيًا في نهاية الشارع.

وبعد ذلك، وفي غضون دقائق قليلة، ظهر المتسلل فجأة أمام السيارة مباشرة، جاثمًا على النافذة الموجودة بجوار السائق. خرج الطالب ببطء من السيارة، وأطلق الرجل من مسدسه خمس طلقات على معدة الطالب، فلم تصبه إلا طلقة واحدة، إلا أنه أصيب إصابة خطيرة. ولاذ منفذ الاغتيال بالفرار.

وفي واشنطن، يتتبع المحققون خيوط جريمة قتل طباطبائي. وكان أكثر التقارير إثارة للدهشة، والذي أكدته مصادر إيرانية عديدة، يؤكد أن الجنرال حسين فردوست، الذي كان يُعتقد أنه منسق شؤون وزارة الاستخبارات والأمن الوطني (سافاما) لصالح نظام الخميني، قد شوهد في واشنطن وقت وقوع العملية مباشرة.

ها قد بدأت الأدلة تتجمع، إذ اكُتشف أن ديفيد بيلفيلد عضوٌ في عصابة من قطاع الطرق، تجمعت حول تاجر سجاد أمريكي من أصل إيراني يُدعى باهرام ناهيديان. كما اُكتشف أن بيلفيلد الزنجي لديه تاريخ مرضي من الاضطرابات في الشخصية، وأنه انضم إلى خلية سرية معنية بأمور السياسة الطائفية للمسلمين الزنوج الراديكاليين في منتصف السبعينات. وفي النهاية وجد نفسه يعمل تحت إمرة ناهيديان، الذي استخدمه كحارس شخصي.

ذاع صيت ناهيديان، وهو مناصر قوي للخميني، بوصفه رئيس عمليات (سافاما) في واشنطن، وقد تعاون عن كثب خلال الثورة مع السفير الإيراني "الثوري" علي آغا.

إن ناهيديان، الذي رشا بيلفيلد بالمال ووضعه في "منزله الإسلامي" في ويسكنسون أفينو (آخر مكان إقامة معروف لبيلفيلد)، قد تقمص الشخصية التقليدية لمدير المنزل الآمن لإيواء الإرهابيين. وكذلك كان التاجر وثيق الصلة بالمجموعة الفارسية الناطقة باسم اتحاد الطلاب المسلمين، التي تأسس مقرها في واشنطن منذ سنوات على يد إبراهيم يازدي.

ومع هذا لم يتم إلقاء القبض على ناهيديان، ولم يتم حتى استدعاءه للاستجواب. وعندما بدأت الشرطة في استجواب ناهيديان، جاءت الأوامر "العليا" بإطلاق سراح الرجل. وذكرت الشرطة لاحقًا أن إلقاء القبض على ناهيديان تم اعتراضه بموجب أوامر من وزارة العدل التي يرأسها بنجامين سيفيليتي، ومجلس الأمن الوطني برئاسة زبينغيو بريجينيسكي.

وفي غضون أربع وعشرين ساعة من الاغتيال، اجتمع مندوبو مجلس الأمن الوطني والمخابرات المركزية الأمريكية ووزارة العدل والمباحث الفيدرالية في مكتب سيفيليتي، وقرروا التعتيم على قضية طباطبائي، "لدواعي الأمن الوطني".

غير أنه نظرًا لأن المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي في طريقه للانعقاد في مطلع شهر أغسطس، أصدر قمبيز شهريز و(جاما) بيانًا يتهمون فيه إدارة كارتر بالتعاون مع منفذي اغتيال طباطبائي.

أدلت (جاما) بتصريح كان نصه: "إن التزام إدارة كارتر المستمر بسياسة التحالف مع الأصولية الإسلامية قد أدى إلى أوضاع كارثية". وأضافت: "منذ انسحاب حكومة الشاه الراحل ورئيس الوزراء شهبور بختيار، لم تؤدِ فقط إعلانات رئيس مجلس الأمن الوطني الأمريكي، زبينغيو بريجينيسكي، عن دعمه للأصولية الإسلامية بوصفها "درعًا واقيًا من الشيوعية" في الشرق الأوسط، إلى تأسيس نظام لا يقل همجية عن نظام بول بوت الكمبودي الذي كان ينشر الرعب ويلقي القبض على المواطنين الأمريكيين، بل تهدد الشرق الأوسط بأكمله بحرب إقليمية زعزعة للاستقرار، مع احتمال وقوع مواجهات بين القوى الكبرى...

"وما لم يتم التبرؤ من هذا التحالف على الفور، فإن فرقة الاغتيالات التابعة للخميني سيكون لديها ترخيص افتراضي بقتل خصومها في الداخل والخارج. ونحن بوصفنا الهدف المعلن لهذه الاغتيالات نحثكم على التبرؤ من مبدأ التحالف مع الأصولية الإسلامية، التي لا تمثل التقاليد الصحيحة للإسلام. نحن نحثكم على دعم حملة مداهمة وتفكيك لجماعة الإخوان المسلمين".

دعم نتائج تحقيق "إكزيكتيف إنتليجينس ريفيو" بشأن مقتل طباطبائي وتداعياته، الاتهامات التي وجهتها (جاما). وقد جمع التحقيق، بالإضافة إلى مصادر أخرى، معلومات من الشرطة ومسؤولي تنفيذ القانون والإيرانيين المستبعدين. وتؤكد تلك المعلومات أن إدارة الرئيس كارتر توصلت لاتفاق مع نظام الخميني للسماح للشرطة السرية للخميني بالتعامل مع معارضيها داخل الأراضي الأمريكية.

وليس هذا فحسب، بل تؤكد المصادر أنه منذ وصول إدارة الرئيس كارتر إلى سُدة الحكم عام ١٩٧٧، وهي تحمي مجموعة يُطلق عليها اتحاد الطلاب المسلمين، التي يقع مقرها في بلينفيلد، في إنديانا، حيث يقع مركز التدريب الإرهابي التابع لها.

وطبقًا لما ذكرته صحيفة "واشنطن بوست" حينئذٍ، فإنه عقب الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران، واحتجاز الرهائن الأمريكيين، أجرى باهرام ناهيديان الخاضع للحماية، مكالمة هاتفية مع الطلاب المسيطرين على السفارة.

وكذلك كان هذا الرجل على اتصال يومي بقادة اتحاد الطلاب المسلمين، وقد بدأ خطر الإرهاب في الولايات المتحدة بأفعال اتحاد الطلاب المسلمين. وفي غضون عدة أيام من الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران، تسلل قرابة ٣٠٠ طالب إيراني على الأقل سرًا إلى الولايات المتحدة بتأشيرات مزيفة، تم إصدارها بختم التأشيرات الموجود في مبنى السفارة في طهران.

وقد وفر ناهيديان والكابتن سيتوديه المأوى للعديد من هؤلاء الطلاب.

غير أن ناهيديان ما هو إلا همزة الوصل لجناح العمليات في اتحاد الطلاب المسلمين، أما مَن يعطي الأوامر فهو سايرس هاشمي، التي تقع المكاتب التابعة له في ٩ ويست شارع ٥٧ في مدينة نيويورك، بالتعاون مع أخيه ريزا

هاشمي. ويشغل هاشمي منصب رئيس بنك واتحاد شركات الخليج الأول المحدود، الكائن مقره في ويست إنديز. ويتحكم هاشمي في شبكة من الشركات التي تشمل انترناشيونال انترتريد، وذا أرابيان ترادنج كومباني، وآي تي سي ليمتد، والبنك العربي الأول.

وطبقًا لمصادر إيرانية، فإن هاشمي هو المنظم الرئيسي لسافاما الخميني في الولايات المتحدة، وتمثلت المسؤولية المنوطة به في توفير الأموال لجبهات السافاما في الولايات المتحدة، عن طريق فروع شركاته في جزر الباهاما.

وبات واضحًا أن هاشمي لا يخجل من نشاطاته. في مقابلة شخصية أجراها مطلع هذا العام مع "إكزيكتيف إنتليجينس ريفيو"، اعترف أنه يمرر الأموال من إيران، وذكر أنه على علاقة وثيقة باتحاد الطلاب المسلمين.

كما اعترف هاشمي أيضًا بكونه المستشار المقرب للرئيس الإيراني أبو الحسن بني صدر، وصديق لإبراهيم يزدي. وقد أمد هاشمي طهران بمعلومات استخباراتية مضادة عن مجموعات المعارضة في الولايات المتحدة. وقد ذُكر أنه استأجر لهذا الغرض الكابتن سایاماك دايهيمي، وهو قائد سابق في أسطول البحرية الإيرانية، الذي هو في إجازة من القوات المسلحة في عهد الخميني، وكان راتب هذا الرجل يُدفع من إيران. وكان الكابتن دايهيمي يتنقل ذهابًا وإيابًا بين نيويورك وروما، حيث يجري محادثات "مع هيئات إيطالية محددة"، حسب ما ذكره هو، بشأن توريد قطع غيار عسكرية إلى إيران.

لكن مهمة دايهيمي الأساسية كانت مراقبة أنشطة المستبعدين الإيرانيين إلى الولايات المتحدة، وبخاصة تلك التي تتضمن شؤونًا عسكرية محتملة، وهو ما يضع هاشمي في موقف ضابط الاستخبارات المطلع على أعمال طباطبائي، ومؤسسة التحرير الإيرانية.

ومع هذا يُسمح لبنك واتحاد شركات الخليج الأول، المملوك لهاشمي، بالعمل في الولايات المتحدة، رغم أنه غير مسجل في أي هيئة في أي ولاية أو في أي هيئة فيدرالية. كما لم يتم إلغاء التصريح الخاص به، عندما أعلن الرئيس كارتر تجميد كل الأصول الإيرانية في نوفمبر من العام الماضي.

وفضلاً عن ذلك، أغمضت إدارة كارتر عينها عن أنشطة ناهيديان، الملازم الأول التابع لهاشمي. فمنذ يناير ١٩٨٠ على الأقل، علمت الهيئات الفيدرالية أن ناهيديان هو رجل (سافاما) الظاهر على الساحة وأنه ساعد في توجيه الإرهاب الأصولي الإسلامي في الولايات المتحدة، وأنه المتحكم في اتحاد الطلاب المسلمين.

وعل سبيل المثال، كان معلومًا للجميع أن ناهيديان قد أحضر ٧٠٠ ألف دولار من إيران – بنوع من غسيل الأموال عن طريق شركة السجاد التي يملكها – ليدفع ثمن الأسلحة المخصصة لفرقه الإرهابية. ومنذ ٤ من نوفمبر عام ١٩٧٩، علمت الجهات الفيدرالية بعلاقته بقاتل طباطبائي، ديفيد بيلفيلد.

تعرض ابني بيلفيلد وناهيديان للاعتقال معًا في اقتحام احتجاجي لمحيط تمثال الحرية، بعد ثلاثة أيام من اقتحام السفارة الأمريكية في طهران.

كما كان ناهيديان يحظى بعلاقات رسمية مع السفير الإيراني إلى الولايات المتحدة، وهو ما يظهر في مستندات المحكمة التي تم الحصول عليها من مقاطعة فيرفاكس، فيرجينيا، والخاصة بتأسيس شركة "ريسيرش آند بابليكيشنز"

في مارس ١٩٧٩. وتُصدر الشركة، المدرجة كشركة نشر غير ربحية في فولز تشيرش في فيرجينيا، جريدة تحمل اسم "ذا إسلاميك ريفولوشن" (الثورة الإسلامية)، وهي مخصصة لنشر المذهب الخميني.

وتذكر المستندات أن مدير الشركة هو علي آغا، الذي عمل حينئذٍ سفيرًا لإيران في الولايات المتحدة، كما يضم مجلس الإدارة كوكب صديق، وهو عضو مؤسس لاتحاد الطلاب المسلمين. كما ذكرت وثيقة أخرى صادرة عن محكمة مقاطعة فيرفاكس بتاريخ ٥ يونيو ١٩٧٩، أن المكتب المسجل للشركة كان يقع في ٢٠٤٦ كيربي رود، ماكلين، فيرجينيا. والمبنى ملك باهرام ناهيديان.

صرح متحدث باسم مجموعة من مواطني إنديانا، الذين انتابهم القلق مما يحدث في المزرعة القريبة في بلينفيلد، إنديانا، قائلاً: "لم نُعر الأمر اهتمامًا في البداية". "لكن صحفيًا من إنديانابولس نيوز أخبرنا أنهم يحاولون إنشاء ساحة للتدريب على إطلاق النار هناك. ومن ثم أجرينا بعض المكالمات الهاتفية لتحري الأمر، وعلمنا أن بعضًا من الأشخاص الذين يقومون بإعداد المركز كانوا من المتورطين في أحداث العنف في ميسوري".

غير أن "المواطنين القلقين"، وهو الاسم الذي أطلقته هذه المجموعة من المواطنين على نفسها، لم تحرز أي تقدم في محاولتها إجبار اتحاد الطلاب المسلمين على وقف أنشطة التدريب شبه العسكري لأعضائه في مزرعته القريبة من بلينفيو. ذكر أحد أعضاء الجماعة: " لقد جربنا رفع دعوى فيدرالية لمنعهم، غير أن كل ما نقوم به كان يتم إخماده. لقد كان هناك شخصٌ ما في مكانٍ ما في مستوى رفيع من حكومتنا لا يريد كشف هذا الأمر، ومن ثم كانوا يحبطون مساعينا".

لقد بدأ اتحاد الطلاب المسلمين في عام ١٩٦٣، وقام منذ ذلك الحين ببناء شبكة تدعو أو تروع كل طالب إيراني يدرس في الولايات المتحدة، وإمبراطورية تجارية وقدرة شبه عسكرية. واستطاع الاتحاد شراء مزرعته المهجورة عام ١٩٧٦ بسعر يبلغ ٣٧٥,٠٠٠ دولار. ويُذكر أن اتحاد الشركات الإسلامية في أمريكا الشمالية، كان يقوم بغسل عشرات الملايين من الدولارات سنويًا لاستخدامها في أغراض الإخوان. كما يتولى الاتحاد تشغيل شركات مثل هيئة الكتب الإسلامية وشركة السالم الزراعية وشركة "صن سيستمز". وفي مركز التدريس الإسلامي التابع للاتحاد في إنديانابولس، كانت تدرس الأصولية الإسلامية للشباب العرب والزنوج الأمريكيين السجناء.

في عام ١٩٦٣، لم يكن اتحاد الطلاب المسلمين سوى جمعية غير مترابطة للطلاب العرب في الجامعات الأمريكية، غير أنه بحلول عام ١٩٦٦، استحوذ عليها الأعضاء السريون للإخوان المسلمين، الذين استخدموا مجموعة الطلاب الناطقين بالفارسية في الاتحاد لتكون نقطة انطلاقهم. واليوم نستطيع رؤية قادة الإخوان المسلمين الذين استولوا على اتحاد الطلاب المسلمين في مناصب عليا في القيادة المدنية لإيران الخميني: إبراهيم يزدي ومصطفى تشامران وصادق قطب زاده.

ذكر مصدر مطلع قائلاً: "كان استحواذهم على اتحاد الطلاب المسلمين ماكرًا للغاية ومدروسًا للغاية، فقد تسللوا إلى مراكز القيادة. وأجرت المافيا الخاصة بهم العديد من الرحلات إلى الشرق الأوسط لجمع المال، فقد

استطاعوا تعويم شركة في سينسيناتي، وذهب محمد شمه إلى المملكة العربية السعودية للحصول على النقد، حيث سيناقش أنشطتهم السياسية و"الثقافية" المتوقعة، ثم يقول مثلاً: وكما تعلمون فنحن لدينا شركة خاصة".

ويتضح مدى اتساع نطاق القوة التراكمية للإخوان المسلمين في الولايات المتحدة تحت ستار اتحاد الطلاب المسلمين من وجود جهاز حاسب آلي يبلغ ثمنه ٢ مليون دولار فيما يدعى مركز التوثيق الإسلامي في منطقة إنديانابولس. وفي عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧، مرر الإخوان المسلمون ما يصل إلى ٣ ملايين دولار عبر الاتحاد لتمويل المشروع، وذلك عن طريق يوسف ندا، وهو قيادي إخواني مقيم في سويسرا.

ومن المعتقد أن مركز التوثيق قد تداخل مع مركز التوثيق الدولي في مدريد، بأسبانيا، الذي يديره الأرشيدوق أوتو فون هابسبرج، وهو المركز الرئيسي لشبكات دي سبيني الإرهابية الدولية السوداء.

وفي سبتمبر ١٩٧٥، وطبقًا لما ذكرته الوثائق، كان ندا حاضرًا في اجتماع في توليدو، أوهايو، حيث تقابل هناك مع قيادات اتحاد الطلاب المسلمين، جمال بارزينجي ومحمد شمه وأبو السعود. ويؤكد محضر الاجتماع المنعقد للتخطيط لمركز التوثيق: "سيكون المشروع سريًا تمامًا، وإلا ستضع حكومات الشرق الأوسط الإخوان المسلمين في السجون".

وتذكر وثيقة أخرى: "تم الاتفاق على أن المركز سيبدأ عمله بجمع كل البيانات المتاحة التي تخص حركة الإخوان المسلمين في مصر. تُعد حركة الإخوان المسلمين الحركة الرائدة في العالم الإسلامي، والتي تستحق انتباهًا فوريًا في ظل المعلومات المتحيزة والمبتورة التي تُنشر منذ عام ١٩٥٢".

"إن من الأهمية بمكان أن نؤكد على حقيقة مفادها أن كل النفقات – من خارج المركز – يجب الوفاء بها عن طريق دخل ثابت نسبيًا ينبع من استثمار آمن للأموال المتاحة... وإننا نخشى أن يؤدي الإخفاق في ذلك... إلى عواقب خطيرة، إذ قد تتشتت المعلومات وتقع في أيدي جماعات معادية، تسيء استخدامها ونرد بعنف على مصدر المعلومات".

وفي هذا الصدد، وصف أبو السعود، المُلقب "بالعبقري المالي" لاتحاد الإخوان المسلمين، ذات مرة وظيفته في المنظمة بلفظ "التلاعب بالعملة"، ويعني ذلك وضع تمويلات اتحاد الطلاب المسلمين عند مستوى محترم. وفي ظل شركاته العديدة التي تمثل واجهة له، يُعد اتحاد الطلاب المسلمين ممرًا للأموال السرية التي تذهب إلى أنشطة سرية.

على سبيل المثال، يشغل أبو السعود منصب أمين خزينة شركة سلام الزراعية، الذي يُعد رئيسها صديقًا مقربًا لإبراهيم يازدي. وتقع الشركة التي تأسست عام ١٩٧٥ في هيومانزفيل، ميسوري، حاليًا في مارشفيلد. وهناك أدلة كثيرة توضح أن أبو السعود كان يصوغ الخطابات بأسماء أناس آخرين، للسماح بنقل الأموال من حساب الشركة إلى حسابات شخصية لاستخدامها في العمليات الخاصة للإخوان المسلمين في أنحاء العالم. ويتم نقل ملايين الدولارات بصفة دورية عن طريق حسابات اتحاد الطلاب المسلمين، هنا وفي الخارج، وعن طريق مؤسسات سرية وبنوك سويسرية.

وفضلاً عما سبق، كان أبو السعود ضالعًا في استحواذ اتحاد الطلاب المسلمين على شركة صن سيستمز، الواقعة في إيوركا، إلينوي، والتي تتعامل في أنظمة ومكونات التسخين بالطاقة الشمسية. ووقت الاستحواذ، كانت صن سيستمز في انتظار الحصول على قرض يبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار من الحكومة الفيدرالية.

ملايين الدولارات – ومعظمها غير قابلة للتتبع وغير خاضعة للضرائب – تتدفق عبر حسابات جبهة اتحاد الطلاب المسلمين في كيانات مثل هيئة الكتب الإسلامية، في بلينفيلد، إنديانا، وسكوير ديل لوندري في سبرنغفيلد، ميسوري، والهيئة الدولية لطباعة الرسوم المصورة في برنتوود، ميريلاند، والجمعية الثقافية في إنديانابوليس، والخدمات الإسلامية لاتحاد الطلاب المسلمين في تورنتو، كندا.

وتجد معظم هذه الأموال طريقها إلى حسابات سرية في أوروبا، وبخاصة في سويسرا. ومن أهم ممرات غسيل الأموال شركة ميجال ووتش إس إيه، الواقعة في ٥ بلاس دي لاجار في بيين، سويسرا. وتوضح الوثائق الواردة من الشركة خلال فترة واحدة، أن م. مطي، رئيس الشركة، قام بتحويل أكثر من ٥٠,٠٠٠ دولار إلى أبو السعود، الذي أعاد نقل المال إلى زوج ابنته، الدكتور أحمد القاضي، من اتحاد الطلاب المسلمين. وتوضح المصادر أن الأموال جاءت من أعضاء سريين في الإخوان المسلمين في المملكة العربية السعودية وفي مصر.

غير أنه حتى الآن، يعد أكثر المشروعات الخادعة لاتحاد الطلاب المسلمين هو المقترح الذي صاغ مسودته أبو السعود وقدمه لاتحاد الشركات الإسلامية بأمريكا الشمالية، الذراع المالي لاتحاد الطلاب المسلمين، لإنشاء مركز تجارة عالمي في شارع ١٢٥ في هارلم.

وتدرس إدارة الرئيس كارتر تقديم منحة تُقدر بنحو ٤٠ مليون دولار – أكثر بمقدار ٣٠ مليون دولار عن الميزانية التقديرية التي اقترحها أبو السعود – لإنشاء المركز. وليس من المعلوم بعد إن كانت هذه الهدية لها أي صلة بأن أبو السعود كان فيما مضى المستشار المالي للحكومة الليبية.

ويرتبط بهذه الخطة خطاب مُرسل من رجل الكونجرس تشارلز رانجيل إلى الرئيس كارتر، ويذكر فيه:

"وفقًا لما تم بيننا من نقاش خلال اجتماعنا في ٨ من مارس [١٩٧٨]، يمكن أن تمثل فكرة مركز التجارة العالمي في هارلم عاملاً محفزًا لتحقيق تطور جديد في العلاقات الأمريكية الدولية... إنني مقتنع أنه ينبغي إنشاء المركز في هارلم كمرفق عام، تمامًا كذلك الموجود في نيو أورليانز...

"سيشمل مركز التجارة العالمي مجموعة واسعة النطاق من المشاركين من شركات الأعمال الأمريكية الدولية. ومن اللازم أن تشارككم هذه الشركات رؤيتكم في آثار هذا البرنامج على الأقليات الأمريكية ودول العالم الثالث. كما سيحتاج المشروع إلى النصح والاستشارات المتواصلة من الإدارة الأمريكية، والمشاركة المباشرة من السفير "يونج" والأمناء "كريبس" و"فانس". وفي ظل الدعم والمساعدة التي يحصل عليها المشروع منكم ومن إدارتكم، أنا على ثقة أن بالإمكان تحويله إلى حقيقة".

ومع هذا، فليس كل ما سعى المندوب رانجيل لبناء مركز التجارة العالمي من أجله، هو أن يكون أداة لتعزيز الصناعة في هارلم. إذ أن نموذجه لمركز التجارة العالمي – سوق نيو أورليانز للتجارة الدولية – كان شركة تمثل غطاء

وواجهة لمؤسسة تُدعى "بيرميندكس"، والتي أُشير إليها بوصفها الجهة الرئيسية المسؤولة عن اغتيال جون كينيدي، والتي طُردت من فرنسا لمحاولاتها المتكررة قتل الرئيس شارل ديجول. وضم مجلس إدارة بيرميندكس الأمير غويتيريز سبادافورا، راعي نقاط الاتصال الإيطالية بين بيلي كارتر والحكومة الليبية.

أما رئيس سوق نيو أورليانز للتجارة الدولية، كلاي شو، فأدين على يد محامي المقاطعة في نيو أورليانز بتهمة التآمر على قتل الرئيس كينيدي.

هناك خمسون مركزًا تجاريًا على مستوى العالم، ولا تمثل الأسواق التجارية مجرد أدوات عقارية ضخمة فحسب، بل يرى بعض الخبراء أن مراقبتها المحوسبة للنقل العالمي تشكل المركز العصبي للتحكم في تجارة المخدرات السنوية البالغة قيمتها ٢٠٠ مليار دولار.

ولا شك أن كل هذا يُعد كافيًا للمطالبة بتحقيق مجمع في روابط اتحاد الطلاب المسلمين بالجهات الأجنبية مثل الإخوان المسلمين، وأنشطتها في الولايات المتحدة، غير أنه لم يتم فتح مثل هذا التحقيق حتى الآن. فما السبب؟ يحظى اتحاد الطلاب المسلمين، مثله مثل الإخوان في العالم العربي، بأصدقاء في مناصب عليا في الولايات المتحدة. ومن بين هؤلاء السيناتور الديمقراطي توماس إيجلتون من ميسوري، الذي اعتاد التدخل لجذب الخيوط مع دائرة الهجرة والجنسية لمنع ترحيل قيادات اتحاد الطلاب المسلمين. وأبو السعود نفسه انتفع من خدمات السيناتور.

أما أهم الشخصيات التي اعتادت حماية الاتحاد، فهو المحامي الأمريكي العام السابق، رامزي كلارك.

ومن المرجح أن كلارك لم يتخلَ مطلقًا عن لقب المبعوث الأمريكي الخاص إلى إيران، منذ أن أرسله جيمي كارتر إلى طهران في نوفمبر عام ١٩٧٩.

وفي صيف عام ١٩٨٠، وبعد أن أُجبر الرئيس كارتر على قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران، ومنع المواطنين الأمريكيين من زيارتها، ذهب المحامي الأمريكي العام السابق رامزي كلارك إلى إيران مجددًا. وأثناء تواجده هناك، اجتمع كلارك مع القادة الإيرانيين، بما في ذلك أولئك المسؤولين مسؤولية مباشرة عن احتجاز رهائن أمريكيين. وعند عودته إلى الولايات المتحدة لم يتم إلقاء القبض عليه لمخالفته قرار حظر السفر الصادر عن الرئيس، ولم تتم محاكمته.

ويُعد كلارك الرئيس الشرفي لمنظمة في الولايات المتحدة، تفوق في الواقع اتحاد الطلاب المسلمين. وتضم عصبة كلارك رجال من أمثال البروفيسور ريتشارد فولك، وشين ماكبرايد من محكمة العدل الدولية، ودكتور نورمان فورير وغيرهم، ممن يمثلون "لجنة التعاون" غير الرسمية بين إدارة كارتر والإرهابيين الإيرانيين.

لقد كانت هذه هي الشبكة التي اعتمد عليها كارتر، عندما أراد في فبراير ١٩٨٠ وعلى مشارف انتخابات نيو هامشاير الأولية، أن يبدو وكأنه على وشك إطلاق سراح الرهائن. لقد عارض كارتر التوجه العام للسياسة الأمريكية ووافق على تشكيل لجنة من الأمم المتحدة للتحقيق في شكاوى إيران ضد الولايات المتحدة، حيث قال حينئذٍ: "إن تشكيل لجنة ذات غرض محدد بدقة سيكون خطوة نحو حل الأزمة".

لطالما طالب الإيرانيون بتشكيل لجنة للتحقيق في "جرائم الشاه" المزعومة ودور الولايات المتحدة في إيران. وذكر الرئيس بني صدر ووزير الخارجية قطب زاده أنه قد يتم إطلاق سراح الرهائن في ظروف معينة، شريطة أن تعترف الولايات المتحدة بأنها "مذنبة" في حق إيران. وبالموافقة على لجنة الأمم المتحدة، دعا كارتر العالم إلى حضور مشهد اعتذار واشنطن عن سياستها الخارجية تجاه أمة يحكمها الإرهابيون ومُلل الإخوان المسلمين.

وبالنسبة لمهندسي اللجنة المقترحة، كانت لجنة الأمم المتحدة التي وافق عليها كارتر هي مجرد الخطوة الأولى. فقد كانت محكمة الكنغارو المقترحة لا تهدف إلى محاكمة الولايات المتحدة والشاه فحسب. بل تهدف إلى محاكمة عملية التعاون الصناعي الغربي في العالم الثالث بأسرها. وقد أطلق البروفيسور ريتشارد فولك، شريك "كلارك" الرئيسي في منظمة العفو الدولية، والذي يدعم الخميني عن اللجنة الشعبية الأمريكية بشأن إيران، اسم "التطور الصناعي" على الجريمة.

صرح فولك قائلاً: "لقد تحدثت أنا ورامزي كلارك إلى العديد من الناس، وأوضحنا أن وجود التقنية النووية في دولة متأخرة سيقتضي لا محالة استخدام طرق بوليسية، بطبيعة الحال".

وكان العون الأساسي لكلارك وفولك قادمًا من باريس، ومتمثلاً في شخص نوري ألبالا، الذي صرح قائلاً: "أنا أعلم أن من بين شكاوي الإيرانيين الرئيسية التي سيتم طرحها على اللجنة، قضية بيع الولايات المتحدة لمحطات الطاقة النووية، إذ يذكر الإيرانيون أن ذلك البيع يمثل أمرًا فظيعًا".

وخلال تلك الفترة، دخل نورمان فورير، ذلك البروفيسور المجهول الذي يُدرس الرفاه الاجتماعي في جامعة كينساس، إلى دائرة الضوء فجأة.

وفي شهر فبراير، أعلن فورير – وهو قائد سابق في ميليشيا هاجانا التابعة لإسرائيل– عن رحلة إلى إيران ضمن وفد يضم ٥٠ أمريكيًا لإجراء ما أُطلق عليه "حوار المصالحة" مع الإرهابيين الذين يسيطرون على السفارة الأمريكية. وكما اتضح بعد ذلك، كان فورير متورطًا مع المتعاطفين مع الخميني هنا في الولايات المتحدة. وطبقًا لما ذكرته زوجته، درب فورير بعض الطلاب الإرهابيين الذين قاموا بالاستيلاء على السفارة في نوفمبر عام ١٩٧٩، وقد كانوا أصدقاءه".

ويرجع تورط فورير في الإرهاب إلى منتصف السبعينات، عندما كان منسق اللجنة الأمريكية للحقوق الإيرانية، بالاشتراك مع بروفيسور جامعة كينساس دون براونشتاين. لقد كان فورير ناشطًا فيما مضى في حركة الحقوق المدنية، وعمل مع وزارة العدل في "الوساطة" أثناء أعمال الشغب وغيرها من المشكلات. وفي عام ١٩٧٧، ذهب فورير وبراون ونانسي هيرميتشا من هيوستن، تكساس، إلى إيران بحثًا عن مجموعة من الكتَّاب الإيرانيين المنشقين، الذين زُعم اختفاؤهم، والذين صارت مشكلتهم قضية شهيرة في منظمة العفو الدولية.

وعقب مغادرة إيران – دون ظهور "الكُتاب" – ذهبت المجموعة إلى باريس، حيث تواصلوا مع أبو الحسن بني صدر وصادق قطب زاده، وكلا الرجلين كان ضمن الخلايا السرية المناهضة للشاه.

وخلال الفترة ذاتها، شكل رامزي كلارك "لجنة الحرية الفكرية والفنية" في إيران، والتي ساعدت مجلس الأمن الوطني الأمريكي في بناء صلات بين الأنجلو أمريكيين والقوات المناهضة للشاه.

وبعد إقامة علاقة فاعلة مع الخلايا السرية الإيرانية، قام فورير برحلات عديدة إلى غرب أوروبا بصحبة ممثلي منظمة العفو الدولية والجمعية الدولية للمحلفين الديمقراطيين. كما أقام جسور اتصال مع كلا من رامزي كلارك ورتشارد فولك، والشبكات الإرهابية في أوروبا، بما في ذلك "الجيش الأحمر" وعصابة بادر ماينهوف. وعند عودته إلى الولايات المتحدة، صار فورير مستشارًا لاتحاد الطلاب المسلمين والاتحاد الكونفيدرالي للطلاب الإيرانيين، وكلا المجموعتين من المناهضين للشاه. وبعد ذلك قام فورير بالتدريس للطلاب الذين استطاعوا بعد سنوات الاستيلاء على السفارة الأمريكية.

وعقب احتجاز الرهائن مباشرة، عاد فورير – بدعوة من طلابه – إلى إيران مجددًا في ٥ ديسمبر ١٩٧٩، حيث التقى بالمجلس الثوري في طهران. كما نظم فورير، بصحبة وزير الخارجية قطب زاده، رحلة إلى إيران لزيارة القس ويليام سلوان كوفين من جماعة "رجال الدين والشعب المعنيين" والقس ويليام هوارد من مجلس الكنائس العالمي، والأسقف توماس جامبلتون من ديترويت، وجميعهم كانوا من المؤيدين للثوار منذ عام ١٩٧٧.

وعقب ذلك، وفي ١٧ من يناير، نظم فورير – بناء على طلب طلابه مجددًا – رحلة أخرى إلى إيران، لكي تشمل هذه المرة وفدًا مكونًا من خمسين شخصًا. وتم اختيار الوفد – وفقًا للتوجيهات الإيرانية الدقيقة – بحيث يشمل ممثلين للجماعات الأمريكية الراديكالية والمتطرفة، ومن بينها تحالف حركة ديترويت، والحركة الأمريكية الهندية (AIM) الإرهابية، وحركة القبعات البنية، وحركة عدم الانحراف، ومختلف المجموعات الراديكالية السوداء. وقد حاول العديد من تلك المنظمات الأمريكية السوداء من قبل زيارة الشرق الأوسط بشكل مستقل للاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية بعد استقالة أندرو يونغ في أغسطس عام ١٩٧٩.

وخلال الفترة ذاتها، كان باهرام ناهيديان في إيران أيضًا.

لكن، في كل خطوة طوال هذا المشوار، حظيت أنشطة فورير بالتعاون والإقرار الكامل من وزارة الخارجية.

(٩)

على شفا عصر مظلم جديد

"نحن نعرف كيف نصوم"، هكذا تبجح آية الله الخميني ردًا على احتمال تعرضه لمقاطعة اقتصادية عالمية في نوفمبر عام ١٩٧٩. "سنأكل القمح والشعير الذي ينبت في أراضينا، ونأكل اللحم مرة في الأسبوع، فتناول اللحم ليس مفيدًا على أي حال. إننا أمة قوامها ٣٥ مليون نسمة، والكثيرون منا يرنُون بأبصارهم إلى الشهادة. سنتحرك مع هؤلاء الخمسة وثلاثين مليونًا، ومتى نالوا الشهادة جميعًا، يمكنهم فعل ما يريدون بإيران".

استوحي تهديد الخميني بتحويل إيران إلى أمة من "الشهداء" لمحة الجنون التي كست عملية الانتحار الجماعي لما يقرب من ٩٠٠ شخص في معبد جيم جونز في أحراش غيانا، غير أنه زاد العدد ليصل إلى أمة كاملة. وبعد شهور قليلة من وصول الخميني إلى سُدة الحكم، تلقى العالم صدمة قاسية بالاكتشاف الرهيب أن حكومة بول بوت، التي ترعاها الحكومة الصينية، قتلت قرابة نصف سكان كمبوديا. وفي ظل المراقبة المتأنية لآلاف المستشارين الصينيين الشيوعيين، شرع نظام بول بوت ولينج ساري في التعذيب والقتل المنتظم لأكثر من ٣ ملايين رجل وامرأة وطفل، من بين سكان كمبوديا، البالغ عددهم ٧ ملايين نسمة، وذلك في فترة لا تتجاوز أربعة أعوام.

لقد وجد المراقبون الذين وصلوا إلى كمبوديا عقب الإطاحة الرحيمة بسفاحي بول بوت، مقابر جماعية وأكوامًا ضخمة من العظام، ومعسكرات أسرى، كان قاطنوها يُستخدمون أولاً في الزراعة كثيفة العمالة، ثم صاروا يُساقون إلى القتل الجماعي بعد ذلك.

صارت عاصمة كمبوديا، بنوم بنه، قابعة وسط الركام، وبدت أقرب إلى مدينة الأشباح، حيث اصطفت السيارات المحترقة في الشوارع، ونما العشب في الشوارع، وأخذت الحيوانات تتجول وسط الأنقاض والحطام. وتعرضت المكتبة العامة للنهب وتحولت كل المصانع إلى أجزاء مفككة، وتعرض البنك للتفجير، واحترقت عملة الدولة. ولا شك أن كراهية نظام بول بوت للتكنولوجيا بكل أشكالها كانت عظيمة لدرجة أنه حتى أدوات المائدة لم تسلم من الدمار.

والآن يهدد نظام الخميني بتقمص حالة الرعب التي سادت كمبوديا، حيث يُباد نصف سكان أمة صغيرة نتيجة الزحف القسري إلى الريف، وفي حالة إيران، يمكن القول أنها أمة بدأت تشق طريقها للتحول إلى قوة صناعية. غير أنه في إيران، لن يتم تنفيذ الإبادة الجماعية عن طريق الطعن بالحراب، بل عن طريق نوبات من الجنون الديني التي تسير على نهج أتباع جيم جونز.

ليس هذا من قبيل المبالغة، ففي مقابلة شخصية مع صحيفة لوموند الفرنسية في ديسمبر عام ١٩٧٩، أعلن الرئيس الإيراني أبو الحسن بني صدر، أن سياسة حكومته تقتضي تفريغ المدن الإيرانية من السكان، وذكر

أبو الحسن "أن طهران مدينة ضخمة، تستوعب بمفردها نصف الاستهلاك الوطني، وتمثل عبئًا بالغًا على ميزانية الدولة".

"سنعمل على تفريغ طهران بإنشاء وحدات إنتاج صناعية وزراعية في الأقاليم".

وسُئل بني صدر عما إن كان يميل إلى تطبيق النموذج الكمبودي على إيران، فأجاب: "نعم لكن دون استخدام البنادق، بالإيمان والإقناع".

وفي قرابة عامين من حكم الخميني، بدأ تحويل إيران إلى النموذج الكمبودي. فحكم "الإيمان والإقناع" هو حكم ٢٠٠,٠٠٠ من الملالي الذين يبسطون سيطرتهم حاليًا على كل مجال من مجالات الحياة اليومية في إيران. في كمبوديا، نفذ الحرس الصيني وحرس الخمير الحُمر إبادتهم الجماعية بإخبار ضحاياهم بأنه " يجب القيام بذلك، فهذه تعليمات أنغكار". وفي إيران، يقول الملالي إن ذلك مُسطر في القرآن، أو أن الله أو الإمام يريد منا ذلك. وفي كمبوديا، لا يظهر أنغكار في الصورة، أما في إيران، فيظهر وجه الخميني، غير أن التأثير واحد في المكانين، وهو التنفيذ القسري لسياسة التفكك الجماعي.

وفي إيران اليوم، تُنفذ عقوبات مخالفة قوانين الملالي علانية، بعد صدور حكم المحكمة الثورية، حيث يتم إعدام النساء علانية لارتكابهم أفعال الزنا أو البغاء. ويُساق المجرمون المدانون إلى الموت في شوارع مزدحمة، حتى "يتعلم الناس درسًا" على حد تعبير أحد الملالي. أما الجرائم الصغيرة فيتعرض مرتكبوها للجلد لعلني، وفي بعض المناطق يتعرض المعتدون للرجم حتى الموت.

لقد تم دفن رجل وامرأة متهمين بمخالفة ما يسمى بقواعد الشريعة التي تحرم الزنا، حتى أكتافهم في الرمال، ثم تعرضوا للرجم بالحجارة عن بعد على يد جماعة من الملالي الذين يصيحون، حيث يبدؤون بإلقاء حجارة صغيرة لإحداث جروح دموية مؤلمة، ثم حجارة أكبر لتكسير العظام، وفي النهاية تحطيم الجماجم.

وكما هو الحال في رواية "بيج برذر" (الأخ الكبير) لجورج أورويل عام ١٩٨٤، يعد المُلا كلي الوجود. لقد تحولت الإذاعة والتلفزيون الإيراني حاليًا إلى ما يطلق عليه الإيرانيون "مُلا فيزيون"، ففي أي ساعة من ليل أو نهار، لا يعرض التلفزيون شيئًا سوى منظر الملا الملتحي المُعمم، الذي يتلو بعض الأدعية أو يقرأ من القرآن. وحتى ما يندرج تحت بند الأخبار، فيقرؤه مذيعون من الملالي، ولا يسمح بأي ترفيه،– من أفلام أو نوادي ليلية أو قاعات رقص. وكذلك حُظرت الخمور، على الرغم من توفر الأفيون بكثرة. وفي مطلع الثورة، حرم الخميني عزف كل أنواع الموسيقى، وحملت كل أنواع الموسيقى، سواء موسيقى الروك آند رول أو الكلاسيكيات الموسيقية العظيمة لباخ وبيتهوفن، اسم "منتج أبالسة الشر الغربيين".

وفي صيف ١٩٨٠، أُعلن أن المسلمين ليسوا في حاجة إلى الأثاث. وفي غضون أسبوع، أُغلقت كل متاجر بيع الأثاث، ومصانع تصنيع الأثاث. وأدت قرارات مماثلة إلى القضاء على كل باعة الزهور ومتاجر بيع العطور

والعديد من متاجر الثياب، ومجالات أخرى من البضائع الاستهلاكية. وعندما حكم الخميني بحرمة تناول المسلمين للحوم التي تم تجميدها، توقف فجأة استيراد اللحوم، ويواجه الإيرانيون اليوم نقصًا في الغذاء.

وبصورة تراكمية، أدت هذه التدابير إلى زيادة ملحوظة في نسب البطالة والتضخم وانخفاض حاد في استهلاك المواد الأساسية والكماليات على حدٍ سواء.

إن الجهل هو العمود الفقري لنظام الخميني، فعندما قرر الملالي أن ولاء القوات المسلحة ينبغي ألا يؤخذ كقضية مُسلَّم بها، قرروا وضع العديد من الملالي على رأس كل قاعدة عسكرية للإشراف على العمليات. ورغم افتقارهم إلى أي خلفية عسكرية وجهلهم التام بالعلوم والتكنولوجيا، كان الملالي يصدرون الأوامر إلى القادة في تلك القواعد العسكرية. وفي حالة من الحالات، عندما علم الملالي بمرور القمر الاصطناعي الفضائي الأمريكي فوق رؤوسهم، أخبر الملالي الموجودون في القاعدة سلاح الطيران بالإقلاع وإسقاط القمر الاصطناعي.

وكما هو الحال في كمبوديا، تعرض التراث الثقافي للأمة لهجوم وحشي، حيث قامت فرقة من الملالي المتعصبين، الذين يعتقدون أن من المنوط بهم تدمير أي بقايا للحضارة الإيرانية قبل الإسلام، بالتجول في أنحاء البلاد وبأيديهم مطارق ثقيلة، وأخذوا يهاجمون آثار الثقافات القديمة في إيران واحدًا تلو الآخر، محطمين كنوزًا لا يمكن تعويضها، ومدمرين مواقع أثرية لا تُقدر بثمن، ذهبت الآن في غياهب النسيان.

إن إيران يحكمها الآن أناس بعقلية بدو القرون الوسطى، ولا تُعد عودة إيران إلى همجية القرون الوسطى محل ترحاب فقط في إيران، بل محل رعاية وإشراف من الأشخاص ذاتهم الذين أوصلوا الخميني إلى سُدة الحكم.

صرح رامزي كلارك ذات مرة قائلاً: "تذكروا الشاه وهو يحلم بالطاقة النووية، لقد كان محض خيال لأنه ليس ثمة واقع وطني للطاقة النووية في إيران، لأنه تخطيط اقتصادي قائم على نموذج أجنبي، وهو ما أنكره بني صدر لأكثر من عشرين عامًا بوصفه عالم اقتصاد. إنني على دراية جيدة ببني صدر، وكتابه" *النفط والعنف*" يذكر هذه المشكلات بكفاءة بالغة".

وكذلك يصف توماس ريكس من جامعة جورج تاون برنامج بني صدر بكلمات واضحة وضوح الشمس، حيث يذكر أن الرئيس الإيراني سيؤسس هيئة تطوعية وطنية وفق النموذج الصيني، لتقود الزحف إلى خارج المدن. ويصر النظام على أن يمثل الإيرانيون من مواليد المناطق الحضرية قيادة هذه الحركة".

ولعل كمبوديا هي المثال الواضح على ما تعنيه تلك السياسة، حيث اُغتيل ثلاثة ملايين كمبودي على يد نظام بول بوت من بنوم بنه، وبدأ النزوح الإجباري لقاطني المدينة البالغ عددهم ٢ مليون نسمة بعد يومين فقط من دخول الخمير الحُمر إلى المدينة، ولم ينجُ من هؤلاء إلا بضع مئات.

وهذا هو ما سيتم في إيران – "بدون بنادق، لكن بالإيمان والإقناع" – باسم الإسلام وبدعوى وضع حد لكل أشكال "التغريب". والمدهش أن رعاة بني صدر في الغرب يبررون هذه السياسة، لأنهم يزعمون أنها

ستضع حدًا لجرائم "القتل العرقي". ويعني هذا المصطلح، وفقًا لما يراه ريتشارد فولك الأستاذ بجامعة برينستون ومؤسس لجنة الحرية الفنية والفكرية في إيران، القضاء المتعمد على السمات الثقافية التي يُعتقد أنها تشمل سمات أساسية للشعب الإيراني. ومن وجهة نظر فولك، يُعد تحول إيران إلى دولة صناعية "قتلاً عرقيًا"، في حين يستحق قيام الشيعة الطائفيين المتعصبين بجلد أنفسهم بالسياط في الأعياد الدينية الثناء بوصفه عملاً "أصيلاً".

وفي الواقع، يمثل جلد النفس بالسياط نوعًا من ازدراء النفس، وهو ما يؤدي بأمة إلى أن تتحول إلى "شهداء". ولا شك أن مصطلح "القتل العرقي" ما هو إلا خدعة، إذا تمت صياغته لتبرير تدمير أمة وفقًا لمصالح أخرى. وفيما يخص المصالح البريطانية التي أوصلت الخميني إلى الحكم، فإن إيران تتهيأ لتكون النموذج الذي يقضي على فكرة إخراج الأمم المتخلفة من تخلفها البائس إلى العالم الصناعي المتحضر.

ذكر أحد المسافرين إلى إيران عام ١٩٨٠ قائلاً: " رأيت إغلاق مشروع تلو الآخر، وهم يبدون مثل جثث ضخمة تلوح في الأفق، والجميع متعطلون عن العمل".

وحتى وصول الخميني إلى الحكم، كانت إيران في طريقها لأن تكون ربما النموذج الأول لعملية التحول الصناعي في الدول النامية. وكان محرك هذا التحول هو إنتاج النفط على يد الشركة الوطنية الإيرانية للنفط.

وفي عام ١٩٧٨، كانت هذه الشركة تُعد أكبر شركات البترول في البلاد، إذ كانت تنتج في العام السابق للثورة ما يزيد عن ٦ ملايين برميل يوميًا، وكانت الإنشاءات تسير على قدم وساق لزيادة الإنتاج إلى ٧,٢ مليون برميل يوميًا.

أما اليوم فلا تزيد صادرات إيران من النفط عن ٥٠٠,٠٠٠ برميل يوميًا.

كان مستشارو الشاه الاقتصاديين يخططون كذلك للمستقبل عند نضوب النفط. ففي عام ١٩٧٨، كانت هناك ٣٢ محطة نووية إما قيد الإنشاء أو في مرحلة إعداد الرسومات الهندسية، وكان من المقرر أن يرى معظمها النور قبل حلول عام ١٩٩٠. وكذلك أبرمت فرنسا وألمانيا الغربية عقودًا لإنشاء منشآت نووية تبلغ قيمتها ٣٠ مليار دولار. وفي عام ١٩٧٨، كانت إيران تُجري محادثات مع الولايات المتحدة للحصول على حزمة نووية بقيمة ٢٥ مليار دولار، غير أن الصفقة لم يُكتب لها أن تكتمل نتيجة معارضة إدارة الرئيس كارتر لامتلاك إيران قدرات نووية. كما بدأت إيران كذلك استغلال ما كان يُعتقد أنها احتياطيات ضخمة من وقود اليورانيوم النووي. وكانت مشروعات طاقة الانشطار النووي مصدر فخر العلماء والمهندسين الإيرانيين.

كان الصلب عصب التحول الإيراني إلى دولة صناعية، إذ كانت إنشاءات الصلب في آريامهر في أصفهان هي الموقع الصناعي الرائد في البلاد. وفي عام ١٩٧٨، كانت آريامهر تنتج بالفعل ١,٩ مليون طن من الصلب سنويًا، وكان من المقدر أن تنتج ٨ ملايين طن بحلول عام ١٩٨٥، وهو ما يجعلها واحدة من أكبر مصانع الصلب في العالم. كما بدأت الشركة الإيرانية الوطنية للصلب، وهي الشركة الأم، إنشاء العديد من المنشآت

الأخرى، وكانت بعض مصانعها تستخدم معدات اختزال الغاز التي تمثل أحدث تقنية متقدمة في المجال. ولولا مجيء الثورة الإيرانية وتدميرها لكل شيء، كان عام ١٩٨٣ سيشهد بناء مصانع جديدة في أهواز وبندر عباس وأصفهان وغيرها من المدن، وهو ما من شأنه أن يمنح إيران قدرة تتجاوز ١٥ مليون طن سنويًا في مجال إنتاج الصلب.

وكان قطاع الصلب كذلك هو جامعة الصناعة الإيرانية، حيث كان مصنع أصفهان مركزًا لتدريب العمال المهرة وشبه المهرة والمهندسين والمديرين من كل أنحاء البلاد. وجاء الدليل على ذلك في تصريح أحد مديري الشركة الوطنية الإيرانية للصلب قبل الثورة، حيث قال:" لا يعتمد دخلنا على مبيعات الصلب وحدها، بل يعتمد كذلك على الأصول غير المادية النابعة من التدريب. إن لدينا معدل دوران ضخم للعمال، وهذا هو هدف الحكومة تحديدًا، حيث يتلقى العمال تدريبهم هنا، ثم تأخذهم الحكومة إلى الأماكن التي تحتاجهم فيها. فنحن في الواقع ندير مدرسة رسمية، تتمثل في مركز تدريب لقرابة ٧,٠٠٠ شخص".

أما شركة سار شيشميه لتعدين النحاس فاستطاعت تحويل إيران إلى سادس أكبر منتج للنحاس في العالم، إذ كانت تنتج ما يزيد عن ١٤٢,٠٠٠ طن من النحاس سنويًا عام ١٩٧٩، إلى جانب ٤٠٠ مليون طن من احتياطيات النحاس في باطن الأرض، وهو ما أدى إلى إنشاء مدينة جديدة بأكملها في سار شيشميه، وكان تعدادها ٢٥,٠٠٠ نسمة، ومزودة بالمناجم ومصانع الصهر والتنقية ومصانع جديدة للتصنيع.

ومن ناحية أخرى، كانت تبريز، ثاني أكبر المدن الإيرانية، موقعًا لمصنع تبريز الضخم للماكينات، إذ كان المجمع الضخم الذي تكلف مليارات عديدة من الدولارات، والذي أُنشئ بمدخلات فرنسية وألمانية غربية، ينتج سنويًا نحو ١٠,٠٠٠ طن من الحفارات والمضخات والمخارط والمطاحن والضواغط والمكابس. ومنذ عام ١٩٦٦، صارت تبريز مركزًا لصناعة الماكينات، حيث تضم مصنعًا للجرارات ومصانع للمحركات ومحطات تجميع حافلات وشاحنات، وغيرها من الصناعات الثقيلة. وتوافد الآلاف من الإيرانيين على تبريز للانضمام إلى قوة العمل المتنامية. وكما هو الحال في أصفهان، أخرجت المدينة في مدرستها المهنية الآلاف من المديرين والعمال الذين توجهوا إلى مصانع أصغر.

كما تم تعيين نسبة ١٠% أخرى من قوة العمل الإيرانية في صناعة السيارات، تحت رعاية الشركة الوطنية لتصنيع المركبات.

وفي غضون ستة أشهر فقط، عكست ثورة الخميني ذلك الاتجاه الذي كان يسعى جاهدًا لإخراج إيران من العصور الوسطى، حيث ألغت على الفور عقود تطوير تبلغ قيمتها ٥٢ مليار دولار، في العديد من المجالات المختلفة، وهو ما أدى إلى الكساد، حيث انسحب ذلك بالتبعية على المئات من المشروعات الأصغر.

وكان من بين المشروعات الملغاة العديد من المحطات النووية التي كان الكثير منها أوشك على الانتهاء، بقيمة تبلغ ١٥ مليار دولار على الأقل، بالإضافة إلى مطار طهران بقيمة تبلغ ١,١ مليار دولار، ونظام مترو

طهران بقيمة تبلغ ١,٣ مليار دولار، ومصانع نحاس سار شيشميه بقيمة ١,٩ مليار دولار، والتي أُستكمل منها أكثر من ٩٠ في المائة، ومصانع صلب بندر عباس بقيمة ٢,٩ مليار دولار، ومشروع ضخم لضخ الغاز وتكرير النفط الثانوي في حقول النفط الإيرانية في خوزستان بتكلفة ٦ مليارات دولار، ومصنع ميتسو الياباني في بندر شهبور للبتروكيماويات بتكلفة ٣,٣ مليار دولار، وخط الغاز الثاني إلى الاتحاد السوفييتي، والذي يحمل إجات – ٢ بقيمة ٣ مليارات دولار. ونظام اتصالات تبلغ قيمته مليار دولار، والعديد من أنظمة السكك الحديدية الكاملة، وميناء جديد في بندر عباس ومعامل تكرير النفط ومرافئ بناء السفن ومصانع الصلب، ومشروعات الإمداد بالكهرباء.

أما قلب الاقتصاد الإيراني النابض، المتمثل في إنتاج الشركة الوطنية الإيرانية للنفط، فقد تراجع من معدله البالغ ٤ ملايين برميل وقت الثورة إلى مستواه الحالي البالغ ٢٠٠,٠٠٠ برميل يوميًا.

والآن أدى الافتقار إلى العمالة المهرة والإدارة نتيجة عمليات الاستنزاف المستمرة للشركة على يد الحرس الثوري التابع للخميني، إلى تدمير الشركة.

وكانت الشركة قبل الثورة بدأت في تركيب أنظمة ضخ الغاز المعقدة في الآبار القديمة، للحفاظ على منسوب الضغط كافيًا لمواصلة الضخ. ويتطلب هذا الأسلوب بعض أحدث التقنيات في مجال النفط، ناهيك عن الفنيين المؤهلين. عقب الثورة، تم ببساطة هجر الحقول التي تعمل بهذه التقنية، فانخفض الضغط إلى درجة ربما تكون معها هذه الحقول بلا فائدة اليوم.

وطبقًا لما ذكره خبراء سابقون في صناعة النفط الإيرانية، تعرض العديد من الآبار لارتفاع الطمي نتيجة انعدام الصيانة، وربما تدعو الحاجة إلى حفر آبار جديدة، إذا كانت الدولة تعتزم مواصلة الإنتاج. وكذلك تعرض نظام الحاسب الآلي الإيراني الذي كان ينظم عمليات تشغيل الشركة إلى التهاوي نتيجة عدم الصيانة.

وبإيجاز يمكن القول أن نظام الخميني نجح في تدمير كل ما بناه النظام السابق في مجال الصناعة، حيث يُقدر الإنتاج الصناعي حاليًا بقرابة ١٥% من مستواه قبل الثورة، وتقبع القطاعات الإنتاجية الكبرى، كالصلب والتعدين وتصنيع الأجهزة الصغيرة، بلا حراك حاليًا.

وفي مجمع البُرز الصناعي خارج قزوين، غربي طهران، يعمل حاليًا ١٤ مصنعًا من أصل ١٢٥ مصنعًا. وكانت البُرز تمثل واحدًا من أكثر مشروعات التطوير الصناعي غير النفطي الطموحة، باستثمارات تزيد عن ٢٠ مليار دولار في أكثر من ٢٠٠ مشروع في مجال التصنيع.

وفي عام ١٩٧٩، اقترح المجلس الثوري تحويل أبراج تبريد اثنين من محطات الطاقة النووية الألمانية الغربية في بوشهر إلى صوامع للقمح!

قدرت الإحصاءات المتحفظة البطالة في إيران بقرابة ٤ ملايين نسمة أو أكثر. ويمكن للزائر في المدن رؤية المئات من الرجال ذوي البنية القوية (والمتعلمين غالبًا) يتسكعون دون عمل في الطرقات. وتحول العديد من

سكان المدن إلى إدمان الأفيون، ويرجع ذلك جزئيًا إلى حظر النظام الإسلامي للخمور، مع تشجيع المزارعين في الوقت ذاته على زراعة الأفيون الذي يُدر ربحًا أعلى في السوق المحلية والأجنبية. وذكرت صحيفة واشنطن بوست أن هناك ما لا يقل عن ٢ مليون مدمن للأفيون في إيران، ونصفهم من المتعطلين، وأن هذا العدد شهد زيادة كبيرة منذ الثورة.

وصف أحد الإيرانيين الموقف مؤخرًا بقوله: "إن البقية الباقية من الإيرانيين المتعلمين الواعين يشعرون بأنهم محاصرون، إذ تتلاشي آمالهم، ولم يعد أمامهم بديل سوى المخدرات؛ لم يكن هناك سوى نذر يسير من الأفيون قبل الثورة، أما الآن فهو منتشر في كل مكان. إن الأمر يذكرني بما فعله البريطانيون في الصين في القرن الماضي. ألقِ نظرة على الناس؛ إنهم لا يفعلون شيئًا سوى الجلوس ومشاهدة البلاد وهي تنهار وتتحول إلى اتجاه سلبي على الصعيد السياسي، وهذا هو ما يحدث في إيران".

وتواترت الأنباء عن أن الرئيس بني صدر يحبذ الطريقة التي تلجأ إليها الصين اليوم للقضاء على وباء إدمان الأفيون، حيث توفر الحكومة جرعات يومية صغيرة من الأفيون للمدمنين كما هو الحال في توزيع الميثادون في الولايات المتحدة، ومن ثم تقنن السوق السوداء المربحة.

ولعل أكثر المخاطر التي تتعرض لها إيران، نتيجة تأثيره على مستقبل الدولة، هو تراجع نظام التعليم الإيراني على يد ملالي العصور الوسطى. ففي يونيو عام ١٩٨٠، تعهد مظفر برتوماه، مستشار الرئيس الإيراني بني صدر، في حديثه أمام اللقاء السنوي لاتحاد الطلاب المسلمين في أكسفورد، أوهايو، بأن يزيل من الجامعات الإيرانية "كل الخونة"، ثم واصل حديثه قائلاً: "ثم ننتقل لتطهير المدارس الثانوية والابتدائية".

لقد تم إغلاق جميع الجامعات الإيرانية لأجل غير مسمى إلى حين تطهيرها من الميول الغربية وجعلها "أكثر إسلامية". وصرح نائب وزير التعليم محمد جواد راجالين أن الجامعات قد تظل مغلقة لمدة عامين، في حين ذكر آخرون أن الفترة ربما تمتد لخمسة أعوام. وتم تشكيل "لجان خاصة" لطرد الطلاب والأساتذة الذين لا يملكون الميول الإسلامية الكافية، ومن ثم تعرض العديد من أساتذة جامعة طهران العريقة للطرد.

واستكمالاً لما سبق، فُرض منهج إسلامي على كل الجامعات والمدارس بهدف "حماية شباب إيران من الضلال والفساد". وصُمم المنهج خصيصًا لإنتاج جيل جديد من الإيرانيين ذوي المبادئ الراسخة المناهضة للعلوم والتكنولوجيا، وأصحاب النظرة الأصولية للعالم، وأعيدت كتابة كل كتب التاريخ لحذف كل الإشارات إلى إنجازات العصر البهلوي وعصر الشاه. وبدلاً من دراسة الأدب والتاريخ، تعلم أطفال المدارس كيف يرددون بلا عقل أناشيد مثل "خميني، خميني، أنت نور من الله".

وفي عام ١٩٨٠، عين الخميني لجنة مكونة من سبعة رجال لتطهير النظام التعليمي في البلاد من كل "التأثيرات الإمبريالية" التي تركتها الحكومة القديمة. وذكر الخميني "أن استمرار هذا التوجه ذاته، والذي يُعد

كارثة محققة، هو هدف التأثيرات الأجنبية". "إن الهدف هو توجيه ضربة مميتة للجمهورية الإسلامية، وأي تقصير في تنفيذ إصلاحاتنا التعليمية سيُعَد خيانة مباشرة للإسلام ولجمهوريتنا الإسلامية".

وعقوبة هذا الجرم هي الموت، ومن ثم أُعدم العديد من الإيرانيين، على سبيل المثال، لأنهم لم يتخلصوا من منفضة السجائر الموجودة في مكاتبهم، التي تحمل رموز نظام الشاه.

ويخضع ما تبقى من جيش إيران خضوعًا تامًا للإخوان المسلمين. ففي ظل ما كانت تمتلكه من تقنيات متطورة، كانت القوات المسلحة ساحة تدريب أنتجت المهندسين والعلماء والمحترفين بالإضافة إلى الجنود، مع سعي جيد لامتلاك التكنولوجيا الحديثة. كما كانت كذلك معقل كراهية الخميني، حيث لجأ النظام الجديد إلى سياسة قاسية لإبادة فيلق الضباط بعمليات إعدام وتسريح جماعي. وقد نُقل العديد من ضباط الجيش إلى فرق الإطفاء أو تعرضوا للاغتيال في مكاتبهم، وتعرض عدد أكبر للسجن وأجبر الباقون على الفرار من البلاد.

وتولى تدمير القوات المسلحة عصبة صغيرة ممن تحكموا في (السافاك) في الأيام التي تلت الثورة، ومن بينهم إبراهيم يزدي، وعباس لاغوتي، والأخوان تشامران والجنرال غاراباغي والجنرال فردوست.ونجحت هذه الزمرة عن طريق الانتقالات والصرف من الخدمة والتغييرات في القيادات في إنهاك القوات المسلحة، لدرجة أنه لم تعد لها قيادة، وأجبرت عمليات الإعدام التي كانت تتلو اكتشافات "المؤامرات" المزعومة باقي الضباط على التزام الصمت.

وخلال عام ١٩٧٩ ومطلع عام ١٩٨٠، مرت إيران بعملية انحدار مستمر ومتزايد إلى هوة السيطرة الكاملة لرجال الدين والإخوان المسلمين، وكان أول من تم القضاء عليهم في سلسلة عمليات التطهير الحكومية الأعضاء القدامى في الجبهة الوطنية، الذين ظنوا برفضهم دعم حكومة بختيار في يناير عام ١٩٧٩ أن بإمكانهم عقد صفقة مع الخميني. وقد قاد هذه المجموعة كريم ساندجابي، رئيس مجلس إدارة الجبهة الوطنية والمرشح لخلافة رئيس الوزراء مصدق، الذي شغل منصب وزير خارجية إيران لفترة وجيزة عام ١٩٧٩، قبل أن يحل محله إبراهيم يزدي.

وتدريجيًا، تم إقصاء كل عضو ديمقراطي أو ليبرالي من حكومة بازركان خلال عام ١٩٧٩، إلى أن استقال بازركان نفسه في نوفمبر عام ١٩٧٩ عقب الاستيلاء على السفارة الأمريكية. وفي الشهر ذاته، أُجبر رئيس مجلس إدارة الشرطة الوطنية الإيرانية للنفط، حسن نزيه، الذي ناضل خلال عام ١٩٧٩ للحفاظ على تدفق ولو قدر يسير من النفط، على ترك منصبه وانتهى به المطاف إلى النفي من البلاد. وكذلك تم تسريح باقي أعضاء الجبهة الوطنية، مثل فاروهار والأدميرال أحمد مدني، تدريجيًا من مناصبهم وثم تعرضوا للنفي لاحقًا.

وإذا ما قلنا أن إيران صارت الآن بيد مجموعة من الملالي، فإن ذلك يعني أنها عادت إلى عصر الإقطاع، فالملالي أبناء عائلات النخبة المالكة للأراضي يعملون الآن على الانقلاب على ثورة الشاه البيضاء وإعادة

الأملاك الإقطاعية إلى العائلات الإيرانية النخبوية. وهذا هو مصدر قوة الملالي، بالإضافة إلى سلطتهم على المزارعين الإيرانيين البسطاء.

ما نوع العقلية التي يمثلها الملا؟

حتى يتسنى لنا الإجابة عن هذا السؤال، ينبغي أن ندرك أولاً العمليات العقلية الخاصة براعي الغنم البدائي الذي يقضي عمره في علاقات شاذة مستديمة مع قطيع أغنامه. ثم ينبغي على المرء بعد ذلك أن يحاول التعرف على ما يجب أن يُعد بمثابة "احتياجات دينية" لمثل هذا الشخص. والملا هو الشخص الذي يخدم هذه الاحتياجات المنحرفة.

إن "الدين" الذي يمارسه أولئك الملالي هو مجموعة من القواعد اللازمة للحفاظ على نظام منضبط منظم لسوء طباع الجماهير. ولعل هذا ما يفسر تلك القواعد التي صاغها آية الله الخميني بقوله:

"أثناء الصلاة، يجب على المرء أن يتجنب التلفت يمنة ويسرة أو العبث بلحيته أو النظر إلى المصحف أو أي كتابات أخرى أو التجمع في حلقات. كما يجب على المرء الامتناع عن الصلاة أثناء شعوره بالنعاس أو الحاجة إلى التبول أو التغوط أو انتعال جورب ضيق".

"إن بول وغائط أي حيوان يتغذى على الروث غير طاهر، ويعد هذا صحيحًا أيضًا بالنسبة لأي حيوان امتلكه الإنسان بغرض التناسل، وكذلك بول وروث الماشية التي تغذت على ألبان الخنازير".

"ومن المستحب عند التبول أو التغوط الانطلاق إلى مكان منعزل، كما يُستحب الدخول إلى هذا المكان بالقدم اليسرى أولاً، والخروج منه بالقدم اليمنى أولا؛ كما يوصى المرء بتغطية رأسه أثناء التغوط وأن يرتكز بثقل جسده على القدم اليسرى".

"إذا تعرض رجل للإثارة من امرأة خلاف زوجته، ثم جامع زوجته، فيُستحب ألا يُصلي إذا تعرّق أثناء ذلك. أما إذا جامع زوجته أولاً ثم تلت ذلك امرأة أخرى، فيجوز له الصلاة حتى لو تعرق".

"كل جزء من جسد غير المسلم نجس، حتى شعر رأسه وشعر جسده وأظفاره وكل إفرازات جسده".

إن الملالي لم يصلوا إلى حكم إيران استنادًا إلى قوتهم الخاصة، بل وُضعوا في الحكم عن طريق أُناس أكثر شرًا منهم، أناسٌ يستغلون عطن التخلف لتحقيق مآربهم الخاصة.

في سبتمبر عام ١٩٧٥، عقد معهد آسبن ندوة في بيرسيبوليس في إيران. وقد نشر القسم العلني من الوقائع بعد عدة سنوات تحت عنوان: إيران: الماضي والحاضر والمستقبل. أما في المناقشات التي تمت خلف الستار، تم وضع خارطة لعملية تغيير اتجاه التحول الصناعي الذي بدأه الشاه، وتحويل إيران إلى نظام من طراز عصور الظلام. ولعل من مصادفات القدر المريرة أن الشاه وزوجته الإمبراطورة فرح ديبا قدما مبالغ ضخمة لتمويل مشروع آسبن.

وقد حضر هذا الاجتماع ما لا يقل عن عشرة أفراد من نادي روما، ومن بينهم رئيس مجلس الإدارة، أوريليو بيتشي، وسول لينوفيتز من شركة كوديرت برذرز القانونية، وجاكوس فريموند من معهد الدراسات الدولية في جنيف، وروبرت أندرسون وهارلين كليفلاند، وكلاهما من موظفي معهد أسبن وشركاء نادي روما في الولايات المتحدة.

وكذلك حضر الاجتماع عدد من الشخصيات من أمثال تشارلز يوست، وكاثرين بيتسون وريتشارد غاردنر، وثيو سومر، ودانيال يانكيلوفيتش، وجون أوكس من صحيفة نيويورك، وصفوة ضباط البريطانية الأمريكية المتخصصين في الشؤون الإيرانية، من أمثال جيمس بيل ومارفين زونيس وليونارد باينـدر وروح الله رامازاني وتشارلز إيساوي.

وركزت جلسة معهد آسبن على قضية أساسية واحدة، وهي أن التحديث والصناعة يقوضان القيم "الروحية غير المادية" للمجتمع الإيراني القديم، وأنه يجب الحفاظ على تلك القيم قبل أي شيء. وقد أشار إحسان ناراغي، مستشار أبو الحسن بني صدر، في كلمته أمام المؤتمر، إلى أن:

"أقامت كل الجامعات ومراكز الأبحاث في الغرب دراساتها التنموية على مفهوم تغريبي خطي للتطور....وتعاني العلوم الإنسانية التي قامت على أساس الموضوعية المنطقية من تراجعات وهزائم كبرى. وإن من الأهمية بمكان، بعد أن أعلينا شأن العقلانية لضمان سعادة البشر، أن نبتكر نظامًا خاصًا —التحليل النفسي— لمداواة الأوجاع الناتجة عن الحياة المنظمة وفق عقلانية مفرطة التي حُرمت من علاقتها الأساسية مع اللاعقلانية؟...لماذا يتم حرمان ثقافة مثل ثقافتنا، التي تراعي الإنسان في كل جوانب حياته، من جوهرها باتباع ما يطلق عليه المسار العقلاني، الذي يوجد في نهايته فضاء اللاعقلانية الرحب؟

وواصل إحسان حديثه قائلاً: " إن للناس احتياجات وطموحات ليست مادية بحتة... وإن توغل الماكينات في هذا النظام التقليدي قد يعرض حياتهم الإبداعية للخطر".

وتلا مدح إحسان "اللاعقلانية" تدفق عاطفي مماثل من هرمز فرحات من جامعة طهران، الذي قال: "لقد ازدادت أمريكا وعيًا باعتمادها المفرط على القيم المادية". "وقد قامت الحركات الواعية خلال الخمسة عشر عامًا الماضية، لإعادة تركيز أهداف الحياة على الجوانب الروحية. وقد ظهر هذا الوعي جليًا في سلوك الشباب حيال الحياة".

"دعونا الآن نركز جهودنا على ما كان يحدث في إيران حيال النقطة التي أثرناها لتونا. أن البلاد تمر بصحوة اجتماعية هائلة... وأنا أؤمن أن الحالة الثورية التي تمر بها الأمة الحالية، إذا تم تطبيق التدابير المهمة صعبة المنال، توفر الظروف المواتية لولادة وطنية جديدة في اتجاه النهضة الأخلاقية القائمة على الحق والعدل".

وبالنظر إلى أن هذه الكلمات قد قيلت قبل حركة الخميني عام ١٩٧٨، يمكن القول بأنها كانت أكثر من نبوءة. لقد كانت أوامر الزحف الموجهة للزمرة المحيطة بالخميني لاتهام الشاه بتدمير القيم الثقافية لإيران ودينها

الشيعي، عن طريق تطوير الصناعة والقيم "المادية". ومنذ عام ١٩٧٥ فما بعده، أقام معهد آسبن علاقات أوثق مع وزارة التعليم الإيرانية، عن طريق العملاء الداخليين من أمثال مانوشهر غانجي، الذي مهد الطريق لدخول مارفين زونيس، بل ومعهد آسبن نفسه إلى إيران. كانت كاثرين بيتسون، الأستاذة بكلية دامافند في طهران، مشاركًا بالغ الأهمية في هذه الاستراتيجية، إذ كانت تبذر بذور "مناهضة المادية" بين الشباب الإيراني.

ثم انتقلت الرسالة إلى الأستاذ "علي شريعتي" لتكثيف جهوده. وكان شريعتي –أكثر من أي شخص آخر– المرشد للطلاب والمثقفين الإيرانيين الذين جلبوا ثورة الإخوان المسلمين. وتمثلت قدرات "علي شريعتي" في قدرته على صياغة المبادئ الصوفية المناهضة للعلوم في مصطلحات قد تكون مقبولة للشباب المعاصر غير المدرب في الشريعة. وحيث إنه لم يكن كسب تحيز الشباب الإيراني إلى النسخة الخمينية من المذهب الشيعي مباشرة، كان لزامًا أن يظهر أمثال علي شريعتي، الذي استطاع أن يُلبس المبادئ الصوفية عباءة الراديكالية شبه الماركسية. ويُعد شريعتي مؤسس ما يعرف بالماركسية الإسلامية.

كان شريعتي راديكاليًا للغاية في مناهضة المادية، لدرجة أنه رأى القبول الاختياري للموت "المفر" الوحيد المشروع من العالم المادي! وقد كتب ذات مرة قائلاً: "هل ترون كيف يموت الشهداء في راحة وسكينة؟"

"بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون التكيف التام مع نظام حياتهم اليومية، يُعد الموت تراجيديا رائعة، وتوقف رهيب لكل الأشياء؛ إنه الضياع في العدم. غير أن الشخص الذي يعتزم الهجرة من نفسه يبدأ طريقه بالموت. يا لعظمة هؤلاء الأشخاص الذين انتبهوا إلى هذا الأمر وتصرفوا طبقًا لذلك: "مُت قبل أن تموت".

كان والد شريعتي، أغا محمد تقي شريعتي، جزءًا من حركة الماسونية الحرة برعاية المخابرات البريطانية، وافتتح مركزًا للدعوة إلى الحقيقة الإسلامية في "مشهد" في طهران. ويقول شريعتي عن والده: "لقد ظل في المدينة وناضل بقوة لتزويد ذاته بالعلم والمحبة والجهاد، وسط مستنقع الحياة الحضرية". "لقد كان شريعتي الأكبر في طليعة المناضلين لإعادة الشباب ذي التعليم العصري إلى الإيمان والإسلام، وتمكينهم من الولادة الجديدة التي تتيح لهم التخلص من المادية وعبادة الغرب والعداء للدين".

وكان هذا نداء الحرب لاندلاع ثورة الخميني.

واستطاع شريعتي، الذي تجول بين باريس وطهران، أن يجمع زمرة من المريدين من الشباب الإيراني، وأطلع الطلاب الإيرانيين على أعمال جان بول سارتر، وفرانتز فانون وألبرت كاموس وجاك بيرك ولويس ماسيجنون، وجميعهم من كُتاب مستنقع الوجودية المناهضة للرأسمالية، ممن يحصلون على التمويل والتوجيه من شبكات نادي روما ذاتها، التي اجتمعت في بيرسبوليس.

وصار كتاب فرانتز فانون بعنوان "تعساء الأرض"، الذي يؤكد فيه وقوع فوضى وثورة العالم الثالث الموجهة ضد "الغرب" والعنف لمجرد العنف، الكتاب المقدس لعلي شريعتي، الذي كتب ذات مرة: "هيا يا

أصدقائي، دعونا نهجر أوروبا، دعونا نترك تقليد أوروبا الأعمى المثير للاشمئزاز. دعونا نلقي وراء ظهورنا بأوروبا التي تتحدث دومًا عن الإنسانية، لكنها تقضي على البشر أينما وجدتهم".

لقد تحول شريعتي، من خلال كتاباته وصحيفته الصادرة بالفارسية، إلى شبه أسطورة. وفي عام ١٩٧٧، تعرض شريعتي للقتل، ورغم أن أنصاره ألقوا باللوم على الشاه، إلا أن من المرجح أن مقتله جاء على يد أنصاره في (السافاك) ليخلقوا منه شهيدًا يشعل حركة شعبية تلتف حول شخصه. ولولا الدور الذي لعبه شريعتي، لما التف العديد من الطلاب في الجامعات حول الخميني المجنون.

وفي حين بدأ معهد آسبن وشريعتي يثيران القلاقل حول الشاه، بدأ في عام ١٩٧٧ أعضاء نادي روما من أمثال بيتشي وجاك فريموند وغيرهم تركيز جهود الإخوان المسلمين في غرب أوروبا حول نسخة مصطنعة جديدة من الإسلام، لا تسمح بأي قدر من النمو. وعُقدت أولى جلسات التخطيط لهذا المشروع، الذي حمل اسم "الإسلام والغرب" في جامعة كامبريدج في إنجلترا. وفي ظل توجيهات بيتشي ولورد كارادون وقائد الإخوان المسلمين معروف الدواليبي، قام "مشروع الإسلام والغرب" بوضع الإطار العام للسياسة المرتبطة باستخدام العلوم والتكنولوجيا في هدم الإسلام. ونُشر هذا الإطار العام سنة ١٩٧٩، وحظي بدعم الاتحاد الدولي لمعاهد الدراسات المتقدمة، الذي يرأسه عضو نادي روما والمستشار العلمي لحلف شمال الأطلسي، أليكساندر كينج.

وأعلن مشروع الإسلام والغرب: "ينبغي لنا العودة إلى المفهوم الأكثر روحانية للحياة... فالدرس الأول الذي نتعلمه من العلوم الإسلامية هو إصرارها على شعار الاتزان المستقر الذي لا يدمر الترتيب الطبيعي للبيئة، التي يعتمد عليها في نهاية المطاف البقاء الجماعي لإنسان". واُستخدمت هذه الجدلية لمهاجمة العلوم والتطور التكنولوجي "الغربي" في أوروبا وأمريكا الشمالية.

وبعد ذلك انتقل بيتشي ونادي روما إلى بلاط الشاه. ففي مؤتمر ليبسون المنعقد في نوفمبر ١٩٧٧، تحت رعاية مؤتمر السلام بين الأديان، وهي منظمة أُنشئت على يد سايروس فانس وسول لينوفيتز، تآمر بيتشي مع العديد من قيادات حركة الإخوان المسلمين، وبخاصة "فيلسوف البلاط" الإيراني المعروف، سيد حسين نصر، الأستاذ بجامعة طهران والصديق الشخصي للشاه. كما حضر هذا الاجتماع إسماعيل الفاروقي الأستاذ بجامعة تمبل في فيلادلفيا، وخورشيد أحمد، الرئيس السابق للمؤسسة الإسلامية في ليسيستر في إنجلترا، ووزير التخطيط الحالي في باكستان.

وكان الأستاذ نصر والدكتور مانوشهر غانجي أداة لجمع الأموال من زوجة الشاه، فرح ديبا، وآخرون لصالح مشروع النمذجة الاقتصادية لإيران الذي يقوم به نادي روما. ووفقًا لما ذكرته مصادر إيرانية، فقد تفوق نصر على مستشار جامعة طهران هوشانج نهاوندي، وهو مستشار الشاهبانو، في ضخ الأموال إلى المُنَظِّر المرتبط باليسوعية الفرنسية، روجيه جارودي، لصالح معهده الخاص بحوار الحضارات.

وقد تم تخصيص جزء من الأموال لنموذج ميساروفيتش للتخطيط الإقليمي لإيران الذي يرعاه نادي روما، تحت الرعاية الجزئية لمنسقه الفرنسي، موريس جورنييه. ومن ثم صار جورنييه وجارودي المستشارين الفعليين للشاه في شؤون التخطيط الاقتصادي و"استراتيجية التطوير"! وتواترت الأنباء أن من المنافذ التي تم تمويلها معهد أبحاث البحر المتوسط، الذي أنشئ عام ١٩٧٧ على يد بول فيل، وهو عالم اجتماع باريسي راديكالي، وأبو الحسن بني صدر.

وهكذا كان الشاه نفسه يمول الحسن بني صدر، سواءً علم ذلك أم لم يعلم.

ويُعد جارودي شخصية بارزة في عمليات المخابرات البريطانية، وهو شخص بالغ التأثير في إيران ما بعد الثورة، وبين الجناح اليساري المتطرف في الجزائر، كما كان أحد المعلمين وثيقي الصلة بمعمر القذافي في ليبيا. وجارودي أحد مُنظّري الحزب الشيوعي السابقين الذين تحولوا إلى الكاثوليكية الرومانية نتيجة تأثير "الأب لوبريه" وهي هيئة يسوعية تهدف للمحافظة على الهياكل الاجتماعية الإفريقية اعتمادًا على السحر القبلي.

وفي عام ١٩٧٧، قام جارودي بتأسيس مؤسستين هما المعهد الدولي لحوار الحضارات، وجامعة المعاقين في السنغال. وفي الأشهر الأخيرة، نشر مجموعة من المقالات في الصحافة الفرنسية تصف الطاقة النووية بأنها "الخطر الداهم على الوجود الفعلي للكوكب"، وتنتقد "النمو الرأسمالي" على "كسر الوحدة بين الإنسان والطبيعة". كما شارك جارودي كذلك في صحيفة "ميديتيرنيان بيبول" التي أُنشئت عام ١٩٧٧ كقناة تحكم للمخابرات البريطانية وسط شبكات "العالم الثالث الراديكالية".

وفي يونيو عام ١٩٨٠، حضر جارودي مؤتمرًا أمريكيًا إيرانيًا في طهران، رتب له بني صدر، وحضره المحامي العام الأمريكي السابق رامزي كلارك. وقبل المغادرة إلى طهران بصحبة وفد أوروبي من أتباع بيرتراند راسل، نشر جارودي مقالاً حماسيًا يمتدح فيه كتاب بني صدر "أي ثورة لإيران؟"، حيث ذكر جارودي أن تحليل بني صدر "قيِّم لأنه يرسم خطوطًا عريضة لا للقطاع المتطور بأكمله فحسب، بل حتى لدولتنا، إن أردنا ألا نتأخر عن التحول الضخم القادم".

ووفقًا لرأي جارودي، فإن بني صدر يحدد بصورة صحيحة موقع الثورة الإيرانية بوصفها "تمرد الشعب" على "نموذج النمو الغربي" وعلى المعتقد السائد الذي مفاده أن "المهمة الأساسية للحكومات في عالمنا المعاصر هي تلك المهمة المرتبطة بالتطور الاقتصادي والنمو والاستهلاك والنمو والتعليم".

ويختتم جارودي حديثه قائلاً: " وينبغي أن نشكر الرئيس بني صدر، لإلقائه الضوء، من خلال كتابه الرائع، على المستقبل الذي يمكن أن نرنو إليه، إذا سلكنا عن طريق الطاقة النووية، مسارًا مماثلاً لذلك الذي سارت فيه إيران عن طريق ما تملكه من نفط: مسار الحكم التكنوقراطي المطلق داخليًا، مع الاعتماد على طاقات أجنبية، والتضحية بثروتنا المادية وأرواحنا كذلك".

ولا شك أن تأثير جارودي على بني صدر كان من بين التأثيرات العديدة التي تعرض لها الرئيس الإيراني في منفاه في فرنسا. بل يمكن القول أن بني صدر نفسه ما هو ما منتج مغلف تغليفًا جيدًا، صنعته أيادي الأفراد والمؤسسات ذاتها التي خلقت حركات أنصار حماية البيئة، والقوات الإرهابية المقاتلة التي كان أفضل تجسيد لها هو تنظيم "الألوية الحمراء" في إيطاليا.

ولا تُعد تجربة بني صدر فريدة في هذا المجال، فمعظم زملائه المتواجدون حاليًا في طهران، وعدد كبير من أفراد المجموعة الاستشارية للخميني قد تلقت تدريبها، إما في أعشاش علم دراسة الإنسان الاجتماعي في فرنسا، كما هو الحال مع بني صدر، أو في المعاهد التي تقع مقراتها في الولايات المتحدة، والتي تروج لفكرة "التمرد المائي" ضد المجتمع الصناعي، مثل مجمع ستانفورد - بيركيلي في كاليفورنيا أو مجمع معهد ماساشوستيس للتكنولوجيا –هارفارد. وفي كل تلك الحالات، تلقت الصفوة المنتظرة بعد الشاه مبادئ كراهية الأساليب "الغربية"، وصارت المعادلة القائلة بأن الشاه يساوي الغرب، هي البنية العقائدية المحفزة لأنشطتهم.

وقبل ذلك بقليل، تم تدريب "النخبة" في المؤسسات ذاتها، فمثلهم الأعلى هم سفاحو كمبوديا المنتمون إلى بول بوت ولينغ ساري، والذين صارت "ثورتهم الثقافية" التي تحمل طابع الإبادة الجماعية هي النموذج لما يود بني صدر ورفاقه تطبيقه في إيران. وقد تدرب رئيس كمبوديا في حقبة بول بوت، خيو سامفان، في نفس المركز التابع لجامعة السوربون، والذي أنتج بني صدر.

أم أقرب معلمي بني صدر وشركائه فقد جاؤوا من أربع مؤسسات متداخلة: قسم علم الاجتماع والإنسان في المركز الوطني للأبحاث العلمية "CNRS"، و"القسم السادس" من المدرسة العملية للدراسات العليا (PHE-٦) والمعهد الوطني لأبحاث الهندسة الزراعية. ولعل القسم السادس هو الأكثر أهمية من بين تلك المؤسسات، فهو الذي درب الأستاذ المشرف على رسالة بني صدر، الأستاذ جورج بالاندييه، تلميذ الأعراف القبلية الإفريقية. ويُعد القسم قاعدة حركة البيئة المناهضة للتكنولوجيا النووية في فرنسا. وأثناء دراسته "للإصلاح الزراعي" على يد بالاندييه، تأثر بني صدر بالأشخاص التالية:

- بول فييه، "عالم اجتماع ماركسي"، المركز الوطني للأبحاث العلمية، ومعهد أبحاث البحر المتوسط.

- رينيه دومونت، عالم هندسة زراعية راديكالي في المركز الوطني للأبحاث العلمية، والرئيس الفخري لجمعية "أصدقاء الأرض"، ومؤسس "إيكروبا"، تلك المنظمة الأوروبية البيئية العامة. وقد طُرد دومونت، مستشار البنك الدولي، من كلا من كوبا والجزائر، لكونه عميلا للاستخبارات المركزية الأمريكية. وفي عام ١٩٧٦، قاد دومونت رحلة استكشافية إلى إيران، لاستكشاف النظام الزراعي هناك، وصار منذ ذلك الحين مستشارًا للرئيس الخميني.

- ميشيل كروزيه، وهو مُنظر بالقسم السادس من المدرسة العملية للدراسات العليا، وأستاذ في معهد تافيس توك في جامعة ساسيكس البريطانية، والذي ساعد في زعزعة استقرار حكومة شارل ديجول عام ١٩٦٨.

- جان بيير فيجبيه، وهو عالم راديكالي من المركز الوطني للأبحاث العلمية ، وهو الذي أدار "مركز قيادة الثورة" السري ضد ديجول عام ١٩٦٨.

وتشمل قائمة الأشخاص الآخرين الذين عملوا مع بني صدر، والذين شاركوا جميعًا في جهود المخابرات الإسرائيلية والبريطانية في زعزعة استقرار ديجول وفرنسا خلال العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، ميشيل فوكولت، وجاك سوستيل وتشارلز بيتلهايم، وكلود ليفي شتراوس، والراحل هنري كوربين.

وهؤلاء السادة، مدعومين بمؤسسة السلام التابعة لبرتراند راسل ومؤسسة ليليو باسو والمعهد الأممي ورامزي كلارك وريتشارد فولكس من مجلس نيويورك للشؤون الخارجية، هم مَن ينبغي أن نتوجه لهم بالشكر على الرعب الماثل حاليًا في إيران، والمدعو بني صدر، رمز "التحول إلى النموذج الكمبودي بالإقناع".

(١٠)

العنصر السوفيتي: كيم فيلبي

تبدأ العوامل الفاسدة الخفية في ثورة الخميني في الظهور عندما يدرس المرء كيف تعاون العديد من أجهزة المخابرات القوية للارتقاء به أولاً إلى مرتبة التفوق، ثم الوصول به إلى سُدة الحكم. لقد لعب جهاز المخابرات البريطانية الدور الأساسي في التنسيق مع الاعتماد على موارد المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، بل والمخابرات الروسية أيضًا.

وفي نهاية المطاف، سيُلقي أي تحقيق كامل للمكائد السرية التي أدت إلى ظهور الخميني، إلى إلقاء الضوء على أكثر قضايا الجاسوسية إثارة للجدل في القرن العشرين، والتي لم يتكشف غموضها حتى الآن: أسطورة "الرجل الثالث"، الجنرال هارولد أدريان راسل "كيم" فيلبي من المخابرات السوفيتية، اللجنة السوفيتية لأمن الدولة.

كيم فيلبي، أحد أرفع ضباط المخابرات البريطانية رتبة، والمسؤول خلال الحرب العالمية الثانية عن تدريب ضباط الاستخبارات الأمريكية للمكتب الأمريكي للخدمات الاستراتيجية، الذي تحول لاحقًا إلى الاستخبارات المركزية الأمريكية. وكان من بين طلاب كيم فيلبي جيمس جيسوس أنجيلتون، الذي رأس قسم الاستخبارات المضادة التابع للاستخبارات الأمريكية إلى حين طرده عام ١٩٧٣.

وطبقًا للأسطورة الرسمية لهيئة الاستخبارات، فإن اثنين من الجواسيس السوفييت في مبنى المخابرات البريطانية، بيرغس وماك لين، قد قاما بارتداد مذهل إلى الاتحاد السوفيتي قبل أن تستطيع التحقيقات الرسمية المستمرة التي تجريها المخابرات البريطانية الوصول إلى أهدافها. حدث هذا عام ١٩٥١، وظل العالم لمدة خمسة أعوام تتقاذفه التكهنات عن هوية "الرجل الثالث" الذي زود بيرغس وماك لين بمعلومات سرية مكنتهما من الارتداد إلى الاتحاد السوفيتي.

وفي عام ١٩٥٥، تم تحديد كيم فيلبي رسميًا بوصفه الرجل "الثالث"، وتمت مسامحته على الجُرم الذي اقترفه وأعيد تكليفه بمنصب استخباراتي شبه رسمي في الشرق الأوسط. وخلال الفترة من ١٩٥٥ حتى ١٩٦٣، تم تسليم كيم فيلبي شبكات وأصول بريطانيا في الشرق الأوسط، عن طريق والده سان جون فيلبي، أكثر ضباط المخابرات المستعربين إنجازًا في تاريخ الإمبراطورية البريطانية. وعندما تم نقل السلطة من الأب إلى الابن، انتقل كيم فيلبي إلى الاتحاد السوفيتي بدعوى الارتداد.

ولسنوات عديدة، أبقت موسكو كيم فيلبي مجمدًا، وعاد إلى الظهور في النطاق العام، في الوقت ذاته تقريبًا الذي أوصلت فيه لندن ثورة الخميني إلى ذروتها. وفي عام ١٩٧٨، وبعد سنوات عديدة من الصمت الرسمي، عُين كيم فيلبي منسقًا سياسات لسوريا والعراق والأردن وشبه الجزيرة العربية في وزارة الخارجية السوفيتية.

وفي العام التالي، تولى الخميني السلطة في طهران، وحصل كيم فيلبي على ترقية إلى رتبة جنرال في المخابرات السوفيتية. وفي عام ١٩٨٠، حدثت الواقعة غير المسبوقة، حيث أجرى كيم فيلبي مقابلة شخصية فريدة مع صحيفة إيزفستيا الروسية، لإرسال إشارة إلى أنه صار يتمتع بالثقة الكاملة للحكومة السوفيتية. وقد تم نشر هذه المقابلة الشخصية بعد فترة وجيزة من إعلان القيم على الفنون في خدمة جلالة الملكة، سير أنتوني بلنت، أنه كان المتحكم الاستخباراتي في كيم فيلبي لصالح البلاط الملكي البريطاني.

وذكرت مصادر في هيئة المخابرات أن الثورات "الأصولية الدينية" التي تم التخطيط لها خلال فترة الثمانينات إنما هي من بنات أفكار فريق صغير من واضعي الاستراتيجيات، من بينهم الملكة إليزابيث الثانية، ومستشارها الديني الشخصي هيربرت وادامز، رئيس قسم البعثات التبشيرية الأجنبية في الكنيسة الإنجيلية وصاحب القوة الفعلية في المجلس العالمي للكنائس، والقادة القدامى في هيئة العمليات الخاصة (SOE) الكندية، ومن بينهم نخبة جماعة "رُسُل كامبريدج" القديمة مثل بيرغس وماك لين وفيلبي وأنتوني بلنت- الذي يتولى حاليًا الشبكات الاستخباراتية في الكتلة الشرقية. وعندما حاول بعض أصحاب النفوذ في إنجلترا معارضة هذا الجنون الخاص بالثورات الكهنوتية، حدثت أمور استثنائية، حيث تم اغتيال اللورد ماونتباتين، وتُوفي كبير أساقفة كنيسة كنتربيري في سن صغيرة، ليحل محله رجل كرس جهوده لمناصره قضية "لاهوت الحرية" والثورات الكهنوتية بصفة عامة. كما تم العمل على برنامج تقارب بين الكنيسة الإنجيلية والجناح اليسوعي المناصر لقضية لاهوت الحرية في كنيسة الأرمن الكاثوليك، وأُعلنت نتيجة البرنامج، بما في ذلك إضافة بند في القانون البريطاني، يسمح للمرة الأولى لولي عهد بريطانيا العظمى بالزواج من امرأة من الأرمن الكاثوليك.

ومن الواضح أن معارضي هذه الاستراتيجية في إنجلترا قد لجأوا إلى حيلة إظهار السير أنتوني بلنت بوصفه المتحكم في كيم فيلبي، للقضاء على خرافة أن كيم فيلبي هو شيوعي مُكرس على المدى البعيد، استطاع اختراق المخابرات البريطانية لصالح الاتحاد السوفيتي.

لقد تم الآن الكشف عن كيم فيلبي بوصفه عميلاً "ثلاثيًا"، فهو ضابط مخابرات بريطانية يعمل متخفيًا "كعميل سوفيتي مزدوج".

وفي الظروف العادية، فإن هذا الإعلان من جانب أنتوني بلنت سيكون كافيًا لأن تقوم السلطات السوفيتية بقتل كيم فيلبي. ولكن هذا لم يحدث. فبدلاً من ذلك، أشارت السلطات السوفيتية إلى ثقتها في فيلبي بنشر هذه المقابلة غير المسبوقة في جريدة إيزفستيا. ولعلنا لن نعرف مطلقًا على وجه التفصيل المؤامرات المتبادلة التي كانت تُحاك فيما بينهم. غير أن من الواضح بصفة عامة أنه كانت هناك صفقة بين المخابرات البريطانية والسوفيتية تتضمن اتفاقًا مشتركًا بزعزعة الاستقرار في إيران، والإطاحة بنظام الشاه، والوصول بآية الله الخميني إلى سُدة الحكم والقضاء على النفوذ الأمريكي في إيران. وسيكسب البريطانيون من ذلك جسرًا جديدًا تعبر عليه "ثورتهم الكهنوتية" العالمية، في حين يستخدم السوفيت، غير المعنيين بهيمنة الأفكار الدينية، الملالي لتفكيك القدرات العسكرية الأمريكية في منطقة الخليج.

ومن ثم فقد توثق اتفاق مثير للسخرية بين القيادة السوفيتية العليا ذات التوجهات العسكرية البحتة والبريطانيين الأكثر تطورًا المتحكمين في اللعبة، والذين لا يشاركهم السوفيت البدائيون في درايتهم باستخدامات "سلاح الأصولية الدينية". كان بريجنيسكي على سبيل المثال واثقًا أن الأصولية الإسلامية ستؤدي في نهاية المطاف إلى تقويض وزعزعة استقرار التماسك السوفيتي في آسيا الوسطى. ومن ناحية أخرى، كان خصوم بريجنيسكي واثقون أن الأصولية الإسلامية ستمزق القوة العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط. أما البريطانيون، الذين كانوا يلعبون في المنتصف بين المعسكرين، فرتبوا أن يضع كل من مجلس الأمن الوطني الأمريكي والسوفيت رهاناتهم لصالح الخميني وضد الشاه.

ومن ثم فإن المشهد المذهل تمثل في قيام أربعة من أكبر هيئات المخابرات الأسطورية في العالم، التي هي شديدة العداء فيما بينها، بالتعاون لدعم الخميني، وشملت تلك الجهات المخابرات السوفيتية والاستخبارات المركزية الأمريكية والموساد الإسرائيلي والمخابرات البريطانية.

أما الرجل الذي استندت إلى شخصيته وسمعته هذه الصفقة فهو كيم فيلبي، أستاذ اللعبة البريطاني، الذي باع أسرار المخابرات الأمريكية للمخابرات الروسية، وأستاذ وصديق رجل الموساد تيدي كوليك، وأستاذ وصديق رئيس قسم الشؤون الإسرائيلية في الاستخبارات المركزية الأمريكية، جيمس أنجيلتون. ومن ثم واكب ظهور كيم فيلبي إلى الحياة العامة مجددًا ظهور الخميني.

ولعل مفتاح فهم شخصية كيم فيلبي، الجنرال في المخابرات السوفيتية، هو والده هاري سان جون بريدجر فيلبي، كبير واضعي الاستراتيجيات للعالم الإسلامي في بريطانيا العظمى لمدة أربعين عامًا، والعقل المدبر "للمكتب العربي" للمخابرات البريطانية طيلة حياته. وخلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته، اجتهد سان جون فيلبي في نقل معرفته ومعارفه وشبكاته إلى ابنه "كيم". لقد سكن فيلبي الأب والابن سويًا العالم السفلي الذي تلتقي فيه المعلومات الاستخباراتية البريطانية اليسوعية الاستراتيجية طويلة المدى مع الفصيل الماركسي الراديكالي من المخابرات السوفيتية.

لقد ترعرع سان جون فيلبي الأب في مطلع القرن في مراكز كامبريدج الفكرية المتحمسة، حيث كانت إنجلترا العصر الفيكتوري لا تزال تحتفل بما أطلقت عليه "معجزات القرن التاسع عشر الثلاث". لقد كانت هناك ثلاث إبداعات قوية للمخابرات البريطانية، ثلاث مشروعات أيدلوجية كبرى من المقرر استخدامها لإدارة الإمبراطورية: ١) الليبرالية كميول سياسي عالمي، و٢) دراسات المستشرقين كما صاغها سير ريتشارد بيرتون ولورد أكتون، مستشار الملكة فيكتوريا المتخصص في الرفاه الديني الأيدلوجي، و٣) الماركسية بوصفها "هيكلاً عقائديًا" لإدارة الحركات اليعقوبية ضد الحكومات والقوى المعادية للإمبراطورية.

وفي فترة شباب سان جون، كان القادة الأساتذة منفتحون إلى حدٍ ما، في دوائر معارفهم الصغيرة، في التفاخر بإنجازاتهم.

وبتتبع سير العديد من كبار اختصاصيي المخابرات البريطانية السريين، نجد أنه تم تعيين سان جون فيلبي من عائلة تنتمي إلى عائلة إنجليزية من الطبقة المتوسطة العليا، وجاء إلى جامعة كامبريدج عام ١٩٠٤. وفي كامبريدج، تم تعريف فيلبي على كبار موظفي المائدة المستديرة في المخابرات البريطانية، وتدرج إلى رُتب تجمع "الفابيون في كمبريدج" المنشأ حديثًا. كانت كامبريدج مفرخة الفابيون، الذين هم طلائع الجمعية الفابية، كجزء من الجهود العامة للمائدة المستديرة الرامية إلى تخليق ما يبدو جهازًا "يساريًا" تابعًا للمخابرات البريطانية. ولاحقًا، وعقب مغادرة كامبريدج في العشرينات من القرن العشرين، صار فيلبي عضوًا في الجمعية الفابية في بريطانيا العظمى.

مُعلنا عن التزامه المبكر بقيمة الطوائف والشعور "الديني" كآلية للتحكم الاجتماعي، وهي وجهة نظر استخدمها لاحقًا للمساهمة في إنشاء الإخوان المسلمين في العالم العربي، ركز فيلبي أبحاثه ورسائله قبل التخرج، على الدين. وفي أحد أبحاثه التي أجراها في شبابه، كتب أن الدين "يُعد الأعظم بين كل الاتفاقات، فهو عالمي للغاية وهو جزء أساسي للغاية من النظام البشري، وهو بالغ القوة في مقاومته لكل أشكال المعارضة". وفي عمل آخر منفرد، قارن فيلبي بين تأثير الفيلسوف أرسطو وبين تأثير الأصوليين الدينيين، وتوصل إلى أن الدين هو الواقع "أكثر تأثيرًا بكثير".

وتطور لاحقًا هذا الميول لدى سان جون فيلبي الشاب في التأكيد على الدور الكهنوتي في عمليات المخابرات السياسية، إلى مبدأ تشغيل مركزي للمخابرات البريطانية، على يد رئيسها الشهير، المؤرخ أرنولد جوزيف توينبي. وخلال الحرب العالمية الأولى وفترة معاهدة فيرساي، شغل توينبي منصب رئيس المخابرات البريطانية في دول البلقان والشرق الأوسط، وخلال الحرب العالمية الثانية، تولى منصب قائد الخدمات الاستخباراتية المجمعة لكنيسة وينستون.

وكان أرنولد توينبي، المشرف المباشر على سان جون فيلبي في المخابرات، واحدًا من أبرز المروجين للمبدأ القائل بأنه "على مدار عصور التاريخ الطويلة كانت الأيدلوجية الدينية والسلطة الكهنوتية والإحساس الديني بهوية الفرد، من القوى التاريخية التي هي أقوى بكثير من أنماط الهوية القومية والسلطة القومية، السائدة حاليًا". ومن ثم ذكر توينبي أكثر من مرة أنه إن كان المرء بصدد إنشاء والسيطرة على نظام عالمي إمبريالي مستقر ودائم، يجب على المرء هندسة أعمال المخابرات والشبكات السرية القادرة على فرض سلطة كهنوتية وإحساسًا دينيًا بالهوية على الشعوب، التي تحكمها حاليًا سلطات علمانية وإحساس قومي بالهوية.

وفي عامه الأخير في كامبريدج في ١٩٠٧، وجد فيلبي طريقه إلى الصفوة العميقة من محاربي نظرية المعرفة في المخابرات البريطانية. وكان "الحارس والمرشد" الخاص به سنة تخرجه هو إ. ج. براون، خليفة سير ريتشارد بيرتون، مهندس "الثورة" الفارسية عام ١٩٠٥، والخبير الأول في المائدة المستديرة البريطانية بشأن الصوفية الإسلامية وبلاد الفرس. وجنبًا إلى جنب مع ويلفريد س. بلانت، كان براون الراعي الرئيسي للجد الأكبر لما

عرف بعد ذلك بالإخوان المسلمين، الطائفي الماسوني الحر المتبع للطقوس الاسكتلندية، والمنظم الإسلامي العام، جمال الدين الأفغاني. ومن خلال عمله المكثف مع براون عام ١٩٠٧، تعلم فيلبي أسرار الاستخدام الاستراتيجي البريطاني للطوائف الراديكالية القومية والدينية المختلقة. كما صقل فيلبي معرفته باللغات الفارسية والهندوسية، وبدأ في تعلم اللغة الأردية. وخلال مسيرته الوظيفية، صار يتحدث هذه اللغات بطلاقة، بالإضافة إلى العربية والتركية والعديد من اللهجات المحلية.

ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى، تم إرسال سان جون فيلبي الشاب إلى الهند، كضابط مخابرات صغير في مكتب الهند. وقد كانت تلك السنوات بمثابة فترة تدريب، حيث اشترك في هذه السنوات في مشروعات لزيادة التوترات الهندوسية الإسلامية في الهند، والتي أسهمت لاحقًا في تقسيم شبه القارة الهندية إلى كيانين منفصلين بناءً على الدين، وهما الهند وباكستان. ورغم إدراكه لاستراتيجية "فرق تسد" التي يتبعها الحكم البريطاني في الهند، إلا أن السنوات التي قضاها مع أستاذه إ. ج. براون، قد علمته أيضًا أهمية تشجيع الحركات القومية، حتى تلك المكرسة لإنهاء الحكم البريطاني للهند، كوسيلة لتأكيد النفوذ البريطاني في نهاية المطاف.

وشهدت سنوات الحرب العالمية تطبيق هذه الاستراتيجية في صيغتها الجوهرية، على يد المكتب العربي الجديد للمخابرات البريطانية في القاهرة، الذي تأسس تحت قيادة د. ج. هوغارث، من متحف أشميلون التابع لجامعة أكسفورد. وكان أبرز العاملين في المكتب العربي حينئذٍ هو ت. إ. لورنس "لورنس العرب"، الذي انهمك في العمل في منطقة الحجاز غرب شبه الجزيرة العربية مع الشريف الحسين في "الثورة العربية". واشتملت الاستراتيجية على نقل كميات ضخمة من الذهب البريطاني إلى الجيوش القبلية العربية في الحجاز، لتشجيع قيام حركة استقلال عربية تهدف إلى الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية.

وفي عام ١٩١٥، تم تكليف فيلبي بالعمل في بلاد الرافدين (العراق)، التي كانت ترزح حينئذٍ تحت احتلال القوات البريطانية والهندية، وتحت قيادة مكتب الهند. وعلى الصعيد الاستراتيجي، كان صراع السياسات قد بدأ في الظهور بين مكتب الهند والمكتب العربي. وفي ظل توجيهات هوجارث وجيرترود بيل ولورنس، كان المكتب العربي يشجع نمو الأصولية الإسلامية والقومية العربية الخاضعة للسيطرة البريطانية، في حين تلكأت حكومة الهند المحافظة وبعض فرق المكتب البريطاني في الهند في إشعال فتيل التمرد الإسلامي، خوفًا من انتشاره غير المنضبط من العالم العربي إلى الهند، وكانت هناك لمحة من الثورة ضد الحكم البريطاني هناك. ومن جانبه في العراق، انجرف فيلبي تدريجيًا لرأي المكتب العربي. وتلقى مساعدة عن طريق توجيهات جيرترود بيل، وهي مسافرة جريئة للمخابرات البريطانية، وكانت واحدة من الأضواء الكاشفة لسياسة لندن حيال العالم العربي. وظل فيلبي وبيل أصدقاء مقربين لسنوات تلت ذلك.

ومنذ عام ١٩١٨ حتى موته بعد ذلك بأربعين عامًا، كان سان جون فيلبي قائد عمليات المخابرات البريطانية في المملكة العربية السعودية.

وفي البداية، غاص فيلبي في أسرار السياسة القبلية في شبه الجزيرة العربية. وفي فترة وجيزة تلت تكليفه في العالم العربي، استطاع فيلبي الإلمام بكل شاردة وواردة في شبه الجزيرة العربية. وعند وفاته صار يُعرف بأفضل مقتفٍ للأثر في رمال الصحراء، وكُتب على شاهد قبره: "أعظم مكتشفي شبه الجزيرة العربية".

وفي سنواته الأولى في شبه الجزيرة العربية، درس بعناية أقوى الحركات العربية، وهي الطائفة الوهابية للإسلام الأصولي، والتي رأسها حينئذٍ عبد العزيز بن سعود، المؤسس اللاحق للمملكة العربية السعودية في العشرينات من القرن العشرين. ولمدة ثلاثين عامًا، ظل فيلبي همزة الوصل بين لندن والملك سعود. في البداية سعى فيلبي للتوفيق بين أهداف أسرة سعود في شرق الجزيرة العربية وحركة الحجاز الراسخة بالفعل، والتي تتبع العشيرة الهاشمية لشريف مكة، حسين، الذي كان وقتئذٍ عميلاً بالأجر للمكتب العربي. ومع هذا تزايد جدال فيلبي في المجالس البريطانية في أن على لندن أن تُلقي بثقلها لدعم بن سعود. وفي نهاية المطاف، جاءت الانتصارات العسكرية السعودية في وسط شبه الجزيرة لتُثبت أنه كان على حق.

لقد اعتمدت القوة العسكرية للأسرة السعودية على الحركة الأصولية الصحراوية التطهيرية التي تُدعى الإخوان. حيث صارت قوات الإخوان المكونة من القادة القبليين المنظمين في ميليشيا عشائرية والغيورين في إيمانهم الإسلامي، سوط الجلاد في شبه الجزيرة العربية، مستخدمة في ذلك الأسلحة البريطانية. وبعد ذلك بسنوات، وقع نزاع بين الملك سعود، ملك المملكة العربية السعودية وبين الإخوان، وأجبرهم على تسريح قواتهم في فترة الثلاثينات. ومع هذا يعتقد الكثيرون أن الإخوان، بعد التسريح، استمروا أحد الأصول السرية للمخابرات البريطانية في المملكة العربية السعودية، وهم محتفظون بهيكلهم حتى يومنا هذا. كما يُعتقد كذلك أن الحرس الوطني السعودي اليوم، وهو صفوة القوات، تحت قيادة الأمير عبد الله بن عبد العزيز المناصر للإخوان المسلمين، يتكون بصفة أساسية من المجموعة الأساسية التي شكلت الإخوان في فترة الثلاثينات.

في مارس عام ١٩١٩، تم تعيين فيلبي في لجنة الإدارات الشرقية، ذات الأهمية البالغة، التي أسسها لورد كيرزون، وفي مطلع عام ١٩٢١، حالف فيلبي ولورنس النجاح في تشكيل إدارة مستقلة للشرق الأوسط في مكتب شؤون المستعمرات. واستمر فيلبي، المتورط حينئذ في صفقات التعاون البريطاني الصهيوني والتقلبات المختلفة في معركة لندن ضد الفرنسيين والاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط، يعيث فسادًا في أنحاء الجزيرة العربية، ويعيش حياة فاجرة، متقمصًا العادات الإسلامية (بما في ذلك تعدد الزوجات)، وادعى في النهاية اعتناقه للإسلام. وفي هذه الفترة، ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى بداية الحرب العالمية الثانية، لم يقع حدث واحد مهم في المملكة العربية السعودية بدون معرفة فيلبي، بل وموافقته غالبًا. على سبيل المثال، تأمين حصول شركة ستاندرد أويل، من كاليفورنيا، على عقد التنقيب عن النفط في المملكة العربية السعودية، والذي أدى بعد ذلك إلى تأسيس الشركة العربية الأمريكية للنفط (أرامكو)، لم يكن ليتحقق لولا نفوذ فيلبي الشخصي في البلاط الملكي السعودي.

وعلى الصعيد السياسي، استطاع فيلبي أن يرسخ لنفسه شهرة بأنه شخص غريب الأطوار، فخلال الحرب العالمية الثانية، كان مناصرًا علنيًا لهتلر، وكان يدعو البريطانيين في أحيان كثيرة إلى وقف الحرب ضد ألمانيا، وانضم إلى الحزب الفاشي الشعبي في إنجلترا برئاسة لورد تافيستوك. ومع هذا، عمل فيلبي على أن يرسخ بحرص مظهر "المناهض للإمبريالية"، المعادي لفكرة استمرار الإمبراطورية عقب الحرب، والمناصر للقضايا القومية وبخاصة القومية العربية. وفي هذا الوقت تحديدًا، خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، بدأ فيلبي في إقامة علاقات سرية مع الاتحاد السوفيتي. ولم يكن بالطبع لدى ستالين أدنى شك في هوية فيلبي أو المذهب الذي يعبر عنه، غير أنه رأى أن سعي فيلبي الظاهري لتفكيك الإمبراطورية البريطانية قد يمثل أرضية للتعاون.

لكن صلات فيلبي في الاتحاد السوفيتي عملت من خلال قنوات أخرى أكبر، أقدم وأكثر دقة. فبوصفه عضوًا بارزًا في مجلس المستشرقين، حظي فيلبي بصلات وثيقة مع كبار الأساتذة السوفييت، المتخصصين في الإسلام والشرق والعالم العربي والهند. وكان مجلس المستشرقين، الذي ينعقد كل بضع سنوات في عاصمة مختلفة من عواصم العالم، حركة تأسست في الثمانيات من القرن التاسع عشر، واستمرت طوال القرن العشرين كمشروع مشترك بين المخابرات البريطانية واليسوعيين.

ولاحقًا، قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، كان من بين أساتذة ورعاة فيلبي مونسينييه جونزاج ريكمانز، وهو قس يسوعي من جامعة لوفين في بلجيكا. كان ريكمانز من منارات حركة المستشرقين، ومؤلف "لو ميوسيون أوف لوفين" (le Museon of louvain). وكان اجتماع فيلبي مع جاك، ابن ريكمانز، رمزًا مثاليًا للزواج الاستراتيجي البريطاني- اليسوعي في الشرق الأوسط، والثلاثي الذي جاب سويًا أنحاء المملكة العربية السعودية.

وكان مما يسعى فيلبي وعائلة ريكمانز لإثباته في تلك الفترة، هو وجود حركات جاهلية في شبه الجزيرة العربية. حيث كان فيلبي وريكمانز يبحثان، عن طريق استكشاف المواقع الأثرية وتدوين ملاحظات كثيرة للغاية، عن "تحف" مادية يمكن أن تمثل قاعدة لقيام حركة جديدة مناهضة للإسلام، ترتبط بالآلهة القبلية القديمة، مثل "اللات" التي سادت عبادتها شبه الجزيرة العربية قبل مجيء النبي محمد. لقد كانت مثل هذه الآلهة هي التي غذت الحركات الصوفية والعشائر المناهضة للإسلام في فترة فيلبي.

ولاشك أن مجلس المستشرقين قد ظهر إلى الوجود في الفترة ذاتها التي بدأت فيها الحركة الإسلامية الشاملة في الظهور في أفغانستان، والتي حملت اسم "العروة الوثيق لجمال الدين لأفغاني ومحمد عبده"، والتي كانت مفرخة الجمعيات البريطانية الماسونية الحرة في كل أنحاء العالم الإسلامي. ومع مطلع القرن، كان الأفغاني نفسه كثير الزيارة لروسيا القيصرية، حيث تواصل هناك مع تلك القوى الموجودة في روسيا، والتي صارت بعد ذلك قيادة الأجنحة التروتسكية والبخارية للحركة الشيوعية السوفيتية، والفوضويين وحركة "سلاف" الشاملة،

وبخاصة الأساتذة الروس والمتخصصين في الإسلام. ونظرًا لكونها في مأمن من التعرض للإبادة على يد الثورة، استمرت شبكات الأفغاني في روسيا لتصبح من المتعاونين مع فيلبي.

والآن ماذا عن ابن سان جون فيلبي؟

تم تلقيب هارولد أدريان راسل فيلبي، المولود في الهند خلال فترة خدمة والده في المخابرات، "كيم" تيمنًا بالصبي بطل رواية روديارد كيبلنغ الذي ذهب للعمل لصالح المخابرات البريطانية، لتعلم "اللعبة الكبرى" الخاصة بالحرب مع روسيا للسيطرة على الأراضي اليورو آسيوية. وفي فترة الثلاثينات، سار فيلبي على خُطى والده والتحق بكلية ترنتي بجامعة كمبريدج. وهناك انضم كيم فيلبي إلى بعض الأصدقاء في جمعية سرية تُعرف بنادي الرسل. وكان من بين زملائه في هذا النادي، دونالد ماكلين، وجاي برغيس وأنتوني بلنت، والأخير هو من سلالة ويلفريد س. بلنت الشهير، عضو فريق بلنت- براون في القرن التاسع عشر.

وبموافقة والده، انضم كيم فيلبي إلى الحركة الشيوعية والاشتراكية أثناء دراسته في الكلية، واعتنق صراحة أكثر القضايا الإصلاحية الاجتماعية والقضايا الليبرالية الأكثر راديكالية التي تبنتها الحركة المناصرة للاتحاد السوفيتي في هذه الفترة. وخلال إقامته في فيينا، النمسا، تواردت الأنباء أن كيم فيلبي تم تعيينه في شبكة الاستخبارات السوفيتية في أوائل الثلاثينات. وعلى الرغم من ذلك، يعد جولة موجزة في إسبانيا كمراسل أجنبي، وهي وظيفة وفرها له والده، تم إدخاله إلى المخابرات البريطانية الأجنبية (MI-٦). وفي مواضع متعددة في مسيرته الوظيفية، أدار كيم فيلبي مكتب المخابرات البريطانية الأجنبية في آيبريا، ومكتبها السوفيتي، وفي فترة تأسيس الاستخبارات المركزية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية، كان رئيس محطة للمخابرات البريطانية في واشنطن دي سي.

وفي عام ١٩٥١، سرت شائعات أن فيلبي متورط في ارتداد اثنين من زملائه في المخابرات البريطانية الأجنبية، بيرغس وماكلين، إلى الاتحاد السوفيتي. وعلى الرغم من تلك الشائعات، سُمح له بالبقاء في الخدمة النشطة في المخابرات البريطانية الأجنبية، وزُعم أنه كان يقوم خلال الفترة بنقل الأسرار البريطانية والأمريكية إلى موسكو. (في الواقع، قام فيلبي قطعًا بنقل أسرار الاستخبارات الأمريكية إلى موسكو، إلا أنه من غير المرجح أنه قد خان قيادته البريطانية بتسريب أي شيء ذي قيمة للسوفيت!)

ومع هذا، في عام ١٩٥٥، لُقب فيلبي على الصعيد العام بلقب "الرجل الثالث" في فضيحة بيرغيس وماكلين، وتم نقله من منصبه إلى منصب أقل في المخابرات البريطانية الأجنبية، ليشغل وظيفة "مسؤول" استخباراتي في بيروت. وفي هذا المنصب، ظل كيم فيلبي يعمل حلقة وصل بين المخابرات السوفيتية والمخابرات البريطانية والعديد من أجهزة المخابرات العربية والإسرائيلية. وأما على الجانب العلني، عمل كيم فيلبي بعد عام ١٩٥٥ مراسلاً لجريدتي "أوبزيرفر" و"إيكونومست" اللندنيتين.

وفور وصوله إلى بيروت، استطاع فيلبي الأب تعريف ابنه كيم بكل معارفه في الشرق الأوسط، بدءاً من شيوخ المملكة العربية السعودية وقادة الفيلق العربي الأردني وحتى عملاء الموساد الإسرائيلي وكل الشخصيات السرية اللبنانية من كل الفئات.

سافر فيلبي الأب والابن سويًا إلى الشرق الأوسط. ومنذ عام ١٩٥٥ وحتى سبتمبر ١٩٦٠، أوضح سان جون فيلبي لابنه كل الخيوط، وبخاصة تعريفه على شبكات الإخوان المسلمين البريطانية في العالم العربي، وعلى المجالات الاستخباراتية الكبيرة التي تعاونت فيها المخابرات البريطانية والسوفيتية لدعم الحركات "اليسارية" والشيوعية. وبهذا صار كيم فيلبي صديقًا حميمًا للعديد من الأحزاب الشيوعية العربية، مثل حزب توده الإيراني، والحركات اليسارية والناصرية اللبنانية، وفصيل ميشيل عفلق حزب البعث العربي الاشتراكي. وفي كلٍ من هذه الحركات، كان للمخابرات البريطانية تاريخ طويل من التوغل، بل والسيطرة الكلية الفعالة.

وفي سبتمبر ١٩٦٠، تُوفي هاري سان جون بريدجير فيلبي، وكانت آخر كلماته: "أنا أشعر بالملل".

واستمر كيم "فيلبي" في العمل كهمزة وصل للمخابرات البريطانية في بيروت، حيث واصل تمرير المعلومات (وأحيانًا نفي المعلومات) إلى المخابرات السوفيتية. وفي عامي ١٩٦٢ و١٩٦٣، دخل الشرق الأوسط في خضم أزمة خطيرة. في إيران أطلقت المخابرات البريطانية حملة زعزعتها لاستقرار الشاه، مثيرة أعمال الشغب والتمرد المناهض للشاه على يد أنصار آية الله الخميني. وفي يناير ١٩٦٣، اختفى كيم فيلبي بينما هو في طريقه إلى حفل دبلوماسي في بيروت. وفي الشهر التالي، في ٨ من فبراير، استولى حزب البعث على مقاليد الحكم في سوريا، ثم قام حزب البعث ذاته، بالإطاحة بالحكومة العراقية في الشهر التالي، في ٨ من مارس. وبدأت سوريا والعراق محادثات فورية عن الوحدة السياسية، وتنبأت الصحف البريطانية والأمريكية بالسقوط الوشيك للأنظمة الموالية للغرب في الأردن والمملكة العربية السعودية. وفي خضم هذه الأزمة، التي وصلت إلى قدر من الرعب في عواصم غربية بعينها، وبخاصة فرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية واليابان، ظهر "كيم فيلبي" فجأة، في أبريل عام ١٩٦٣، في موسكو. لقد نجح الجاسوس البريطاني المحنك والعميل الثلاثي، وسط أزمة الشرق الأوسط التي يرجع الفضل إليه جزئيًا فيها، في "غسل" نفسه والانسلال إلى الاتحاد السوفيتي ذاته.

وبدءاً من هذه النقطة فما بعدها، عمل كيم فيلبي كضابط نشط في المخابرات السوفيتية. وفي عام ١٩٧٨، عندما كانت ثورة الخميني في طريقها للوقوع في إيران، أشارت دورية "جورنال" الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي ذات الصلة بالإخوان المسلمين، إلى منصب فيلبي كمنسق سياسات وزارة الخارجية السوفيتية حيال سوريا والعراق والأردن وشبه الجزيرة العربية. وفي العام التالي حصل فيلبي على ترقية ليصبح الجنرال فيلبي في المخابرات السوفيتية، وهو المنصب الذي يشغله حاليًا. وخلال هذه الفترة، كان لناشطي "الرسل" و"دارك إيدجز" في كمبريدج تأثيرًا كبيرًا على السياسة السوفيتية حيال ثورة الخميني والإخوان المسلمين في العالم العربي.

ولا تزال قضية كيم فيلبي، "الرجل الثالث"، لم تُحل بُعد، على حد علم الاستخبارات المركزية الأمريكية، ولا يزال الملف مفتوحًا على أكثر من صعيد.

إن ارتداده عام ١٩٦٣ لا يزال يطرح أسئلة تنعكس اليوم في البحث المستمر عن "العميل الخفي للمخابرات السوفيتية" في مناصب مرموقة في واشنطن. كما أن هناك أسئلة أخرى مطروحة عن "إخفاق" الاستخبارات المركزية الأمريكية في منع وصول الخميني للحكم، تتخلل عملية البحث عن "العميل الخفي للمخابرات السوفيتية"، فما هي الحقيقة؟

بصفة عامة، يتمثل حل هذه المشكلة فيما يلي: ليس هناك، ولم يكن هناك أبدًا "عميل خفي للمخابرات السوفيتية". بل تكمن المشكلة في وجود تجمع معين في المحيط الاستخباراتي الأمريكي، يخضع منذ بدايته أثناء الحرب العالمية الثانية، للهيئة التنفيذية للعمليات الخاصة، الخاضعة للسيطرة البريطانية – الكندية، والتي ذاع صيتها أثناء الحرب. ويلتف هذا التجمع حول عائلات قوية وثروات مالية بعينها في الساحل الشرقي، والتي تشكّل ذراع عملياتها الاستخباراتية على يد الشبكات التي أنشأها سير وليام ستيفنسون قبل ذلك. وتشمل هذه التجمعات الحزب الاشتراكي القديم وشبكات لجنة العمال اليهودية، والشبكات الاستخباراتية المحيطة بالأسماء التي دربها فيلبي، والتي تشمل جيمس جيسوس أنجلتون وجاي لافستون وإيرفنج براون وإيرفنج سوال؛ بالإضافة إلى شبكات فيتزروي ماكلين المحيطة بمنظمة الأمم المتحدة؛ والشبكات الكندية اليسوعية التي تدير عمليات "الدين التحرري" في أمريكا اللاتينية، وجناح جابوتنسكي الصاعد مجددًا في الحركة الصهيونية؛ والإخوان المسلمون في الإسلام.

ولا شك أن قائمة المتحكمين البريطانيين في هذه الشبكة التي تمارس نشاطها في الولايات المتحدة، يتحكمون كذلك، في الاتحاد السوفيتي، في أجزاء عديدة من المؤسسة الاستخباراتية السوفيتية، بما في ذلك لجنة خبراء معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية (IMEMO) التي عُين فيها دونالد ماكلين، بالإضافة إلى تلك الأجزاء من المخابرات السوفيتية ووزارة الخارجية، التي عيُن فيها فيلبي. وهذه هي قطاعات الإدارة السوفيتية، التي تعاني من هوس بحركات التحرير في "العالم الثالث" ومشروعات صراع الطبقات.

وما يبدو أنه مشكلة "تسرب استخباراتي" يحاول البعض أن يعزوها إلى "عميل سري للمخابرات السوفيتية"، سيثبت في النهاية أنه ترتيبٍ، يتم فيه التحكم في القسم الأكبر من المخابرات الأمريكية وقسم من المخابرات الروسية، عن طريق الكيان المهيمن ذاته وهو تجمع هيئة العمليات الخاصة (SOE) "الكندية" في المخابرات البريطانية. ولعل هذا هو ما يفسر، إلى جانب أشياء أخرى، كيف تواطأ مناهض متقد بالحماس للشيوعية مثل السيد بريجينيسكي، مع المخابرات السوفيتية لإيصال الخميني إلى الحكم. وهذه المعلومات قد دُفنت جميعها في الملف الذي لم يتضح بعد، الملف الخاص بهارولد أدريان راسل "كيم" فيلبي، أو "الرجل الثالث".